الموؤدات

الموءودات

روايـــة

منال عبد الحميد

الموءودات

اسم الكاتبة: منال عبدالحميد
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: فارس حسن
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 2977
الترقيم الدولي: 3 – 58 – 6610 – 977 – 978

للنشر والتوزيع
Arabic Library

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

تلك الرواية

أنا أؤمن أن هناك أوضاعا إجتماعية خاطئة كثيرة في الصعيد .. أوضاعا تمس المرأة كما تمس الرجل ، ويكتوي هو بنارها وبمتطلباتها العسرة كما تكتوي رفيقته في الحياة تماما .. وأؤمن بنفس الوقت أن هذه الأوضاع الخاطئة تساهم المرأة في صنعها أو في تكريسها أحيانا أكثر مما يساهم الرجل .. فكثيرا ما تتعرض البنات للإضطهاد على أيدي الأمهات والجدات والعمات والخالات وزوجات الإخوة أكثر مما يتعرضن على أيدي الآباء والجدود والرجال المحيطين بهن .. فقد كرست الثقافة السائدة في صعيدنا كراهية للجنس الأنثوي لدي من تنتمين إليه أكثر، في أحيان كثيرة ، مما يحمل الجنس المذكر لهن .. إننا نجد أن الجدات والعمات هن أكثر من يحزن لمولد البنات أكثر من الأب ذاته !

فالحقيقة أن الرجل في الصعيد رغم قوته وتجبره وشهامته إلا أنه أكثر خضوعا لقوة النساء مما يتخيل الكثيرون وأكثر من قدرتهم حتى على التصديق !

وإذا أردنا أن نوزع المسئولية الإجتماعية عن تلك الأوضاع الخاطئة الملتوية فسنجد أن النساء يساهمن في صنعها بما لا يقل عن ٦٠% .. بينما لا يساهم الرجال إلا بنحو ٤٠% .. نتيجة مفاجئة ومذهلة لكثيرين !

لكن تعمق للحظة في السطور التي ستقرأها الآن .. لتعرف حقا من المسئول .. ومن هو الذي يصنع تلك المآسي ويسيطر على عجنها وخبزها وتسويتها .. وتسوية المجتمع المنغلق معها على الجانبين !

(١)

إلي جوار الباب جلس منتظرا نهاية المخاض ..

كانت الزوجة ترقد في الداخل وبجوارها أمها وحماتها وقابلة مدربة (حكيمة) .. الزوجة تعاني الآلام وعذاب المخاض ، وسائرهن ، عدا الحكيمة ، التي لم يكن الأمر يعنيها في شيء ، سوى أن تقوم بتوليد المرأة الماخض وتحصل على أجرتها ، يعانين القلق الموجع ومرارة الانتظار اللائي يعرفن أنه انتظار عقيم بلا طائل ..

فقد أعلنها الطبيب منذ أشهر بدون رحمة :

" مبارك .. بنت ! "

" بنت ؟! "

إذن فليس مباركا على الإطلاق .. إنها البنت الرابعة آتية لتزيد الدنيا سوادا في عيني الأم المسكينة !

إنها بنت أخري .. والزوج لن يسكت هذه المرة ولن يصبر أكثر من ذلك !

حمي الطلق وأشتد المخاض ودفعت الطفلة، المحاصرة بالداخل، العوائق بيديها العاجزتين الصغيرتين محاولة أن تثبت للعالم جدارتها بأن تخرج له.. بل لعلها أحست أن الأب غير راض عن مجيئها إلى العالم، ويراها فائض بشري لا قيمة له، فأرادت أن تثبت له جدارتها وهي لا تزال في منتصف الطريق بين أن تكون أو لا تكون!

أطلقت الأم الصرخة المدوية الأخيرة. صرخة الميلاد.. وانزلقت الطفلة إلى العالم مغطاة بأوزار المعركة التي لم تخضها بعد!

أطلقت الجدة الأولى زغرودة قصيرة مختنقة.. لم تلبث أن قطعتها عندما زغرت لها الجدة الثانية ورمقتها من طرف عينها بنظرة حادة مسنونة وكأنها تقول لها بصمت كامل مزدري:

" بتزغرتي على أيه يا ولية ؟ على خيبة بنتك ؟! "

وبالفعل فقد وئدت الزغرودة في مهدها.. كما وئدت فرحة الميلاد في صدري الأم والطفلة على السواء..

" هتسموها أيه ؟! "

"سموها زي ما تحبوا .. مش هتفرق .. كنا عايزين واد .. لا حول ولا قوة إلا بالله!"

وكأنهم يتقبلون العزاء في مأتم.. ظل الأب جالسا أمام الباب والسجائر المستهلكة تتكوم تحت رجليه، حتى أمست تلا صغيرا من الأعقاب التي ينطلق من بعضها خيوطا واهنة من الدخان.. كانت السجائر تنفث الدخان بالنيابة عن الأب، الذي يمتلئ فراغ صدره العريض بأدخنة الغضب واللوم والمرارة واليأس والأمل المفقود .. والرغبة في الانتقام!

*****

مرت أشهر ثلاثة على مولد " أسماء " وكأنها لم تمر أساسا .. أمسي الأب أكثر صمتا وانعزالا وبات لونه أكثر بؤسا وقتامة .. وفي المساء حين يجلسون جميعا ، لأول وآخر مرة ، ليتناولوا وجبتهم معا كان الأب يرمي الكلام دون مواربة :

" فلانة ولدت النهاردة وجابت واد ! "

" طيب ! "

هكذا ترد الزوجة ، المشغولة بإطعام الطفلتين اللتين تكبران " أسماء " بسنوات قليلة ومنعهما من اللعب بما تحتويه صينية العشاء من أطباق وأرغفة خبز..

طيب أيها الزوج، حسنا يا " شهريار" .. وماذا تريد الآن ؟!

وهل هي تختار نوع الجنين بحسب مزاجها .. أليس تلك البنات لك النصف فيهن .. ألسن يحملن نصف كروماسوماتهن منك قبل أن يحملن نصفها الآخر مني ؟!

طبعا لم تكن الزوجة تفكر بمثل هذا الكلام ، تلك الردود القاسية ، ولم تكن تعرفها أصلا .. لكن غيظا مكبوتا وحزنا قديما ، كأطلال بيت مهدم تثير الحزن أكثر مما تثير الخوف ، كانا ينخران في صدرها المثقل ..

إنها لم تكن تحلم بذلك ، كانت ذات يوم طالبة متفوقة وذكية ، وينتظرها مستقبل مشرق ، إن تركها أحد تصل إليه .. لكنها لم تحصل على فرصتها قط ، فالعريس المنتظر قد جاء يدق الباب ورده أمر غير وارد إطلاقا :

"ده ولد عمتك يا بتي .. وغلبان وعلى قد أيدينا وفوق ده وده شاريكي ومستنيكي من زمان! "

ينتظرها منذ زمن وهي لا تزال في سادسة عشرتها من العمر القصير الجميل !

في الصف الثاني الثانوي يا ناس .. فكيف ينتظرها منذ زمن يا من تلعقون الكذب كما تلعق الكلاب عظمة شهية المنظر!

ولكن أليس بوسعها أن تقاوم .. أليس مسموح لها بالاعتراض ؟!

لا ليس بوسعها ولا مسموح لها .. وحتى إن فعلت فمن هذا الذي سيستمع لها !

الجدة المتصرفة قد تحجرت رأسها ، المتحجرة من الأساس، وأصرت على إتمام الزيجة .. الأم الأمية ، التي لا تقرأ ولا تكتب، قد أنفتح فمها وأنشق من الأذن حتى الأذن فرحة بأن ابنتها الوحيدة ، الفتاة الوحيدة وسط أولادها، ستتزوج وستصبح عروسا .. ستساق إلي بيت العريس، الذي لا تريده ولا تريد الزواج نفسه، كما تساق ذبيحة إلي يدي القصاب لينحرها!

ماذا ينتظرون إذن ؟!

ينتظرون دمها ليلطخوا به الجدران ويرسموا خمسة دموية على الجدران.. ليدرؤوا بها عين الحاسد والحاقد والذي له عين تفلق الحجر نفسه!

وهكذا استسلمت لقضائها ورضيت بقدرها.. لا لم ترضي يوما لكنها استسلمت وفارق بين اللفظتين، لو تعلمون، عظيم.. استسلمت إذن.. وبعد أن رفعت الراية البيضاء ودخلت حياتها الجديدة راجية دون كبير أمل أن تلقي فيها السعادة التي خلفتها وراءها بين صفحات كتبها، التي أُغلقت للأبد الآن، وبين ثنيات جلباب المدرسة الأزرق الفضفاض، وتركت بقاياها متناثرة كرماد حريق فوق مقاعد المدرسة الكالحة المحببة إلي قلبها.. ولكن الدنيا كلما جابهتها بخنوع واستسلام كلما طلبت منك المزيد والمزيد!

وبعد الزواج بدأت المشاكل.. فالعروس لم تحمل لعدة أشهر بعد الزواج وبدأت الحماة تئن بخبث والزوج يتساءل بلا مواربة:

" مفيش حاجة كده ولا كده ؟! "

" لا مفيش! "

ردت عليه بحزم وأوقفته.. لكن السؤال ما لبث أن سؤل ثانية وثالثة ورابعة وخامسة وبدأ لسان الحماة يستطيل:

" عارفة فلانة .. بنت فلان .. اللي دخلت معاكي في ليلة واحدة ؟! "

طبعا كانت تعرف " فلانة " وتعرف أباها " فلان " وأمها " فلانة " جيدا .. فماذا تبغين إذن أيتها الحيزبون ؟!

"آه .. عارفاها !"

" حامل وعلى وش ولادة .. عقبالك يا بتي يا رب ! "

ولحسن الحظ فإن العقبى لها أستجيب لها قريبا، ولعل تلك الحماة الخبيثة مستجابة الدعاء رغم كل شيء.. وأحست العروس ببشائر الحمل! "

" مبروك مبروك يا أمي .. إن شاء الله يجي واد ! "

آه .. لقد جفت الأقلام والصحف إذن بضربة واحدة.. الولد وما أدراك ما الولد !

*****

ولكن الولد لم يأت في المرة الأولى.. لوت الحماة شفتيها، وإن لم تفه بكلمة تحرق الدم، وتظاهر الزوج، الذي صار أبا الآن للمرة الأولى، بالسعادة والرضا بما أعطاه الله.. ربما كان راضيا، محتسبا، في المرة الأولى.. ولذلك حظيت " شيماء "،البنت الأولي، بسبوع* جميل وبكثير من الحلوى ومن الرقص والتصفيق.. وحُملت الطفلة على أيدي أباها وأمها وجدتيها ، وجدها من هنا وجدها من هناك وأعمامها وأخوالها، والُتقطت لها الصور في أحضان الجميع.. ابتسم الجميع سعداء، أو تظاهروا بهذا على الأقل، ومر اليوم على خير..

ولكن لم تنقضي أشهر حتى بدأت الحماة تنق كالدجاجة.. كانت "شيماء" في حجر أمها تبكي وتتلوي من المغص حينما فتحت الجدة الموضوع:

"مش تشدي حيلك بقي يا ست الناس.. عشان ربنا يعوض عليكي وتخاويها ! "

يعوض عليك وتعني أن يعوضك الله عن الخسارة التي ابتليت بها حينما رزقت بالبنت.. وكيف تعوض تلك الخسارة الفادحة إلا بالإتيان بالولد!

لكن الزوجة والأم الشابة التي لم تكد تلتقط أنفاسها من بعد أول حمل وولادة لها.. والطفلة التي لم يتعدي عمرها أشهرا معدودة، التي تحرمها النوم والراحة طيلة الليل كثيرا، ردت على حماتها بجملة واحدة نهائية:

" إن شاء الله يا ماما.. بس "شيماء" تكبر بس وتشد حيلها ونفطمها!"

الفطام هو المرحلة التي كانت الزوجة الشابة تصر على ألا تحمل ثانية قبل أن يصلوا إليها.. لكن الزوج وأمه المتلهفان للحصول على الولد المنتظر هل يصبران؟!

لا لن يصبرا مهما حدث.. ورغم أنفها، وبالذوق أو بالعافية، يتحتم على الزوجة أن تحمل وتضع من جديد لتأتي بالولد..

لكن، فيما يبدو، فإنه لا أولاد فوق رأس " شيماء ".. لأن الحمل الثاني ، الذي كان شاقا وثقيلا على الأم المرضعة، جاء بطفلة ثانية.. بنت أخرى فيالشقاء الوالدة والمولودة والمولود له!

أتت "مروة" لتحيل العالم، الذي كان سيئا بالفعل، إلي ما هو أسوأ.. حزن الزوج حزنا حقيقيا هذه المرة وأظهر ذلك بجلاء.. الحماة تلون وجهها بلون الحزن والحنق على الزوجة التي ليس لها من الأمر شيء.. ووالدة الأم امتقع وجهها وأخذت تدعو لابنتها من قلبها:

" يا رب.. يا رب أكرمها وأرزقها الولد يا رب يا كريم يا رحيم!"

كانت حربا تلك وليست عملية إنجاب وإعمار للأرض!

*****

وتلك المرة ومن نفسها هي، وبدون حاجة إلي زق ودفع وإجبار، بادرت "نعمة" إلي البحث عن حمل جديد، مع أن "مروة" لم تكد تكمل شهرها الرابع بعد.. لكن الزوجة كانت قد سئمت، سئمت النظرات التي يحدجها بها الجميع.. نظرات الزوج وأمه وأبوه وأخوته وأخواته، حتى أمها كانت ترمقها بنظرات خاصة متحسرة وكأنها تراها راقدة تنازع الموت أمامها.. أهي مريضة، أهي سقيمة عليلة تستحق الشفقة؟!

إنها لا تعرف ما إذا كانت قد أقبلت على خوض تجربة الحمل من جديد ، الحمل الثالث ، فعلا لتتلافى ما يحيط بها من نكد وهم .. أم أنها هي نفسها صارت تشتهي الحصول على الولد مثلما يشتهون !

ذلك لغز سيبقي كامنا في أعماقها مدي طويلا ولن تعرف له حلا ولا تريد ذلك .. فكل ما تريده أن ترقد بين يدي الطبيب في العيادة المجهزة، ويسلط أشعة السونار على بطنها ويقول لها مرحا سعيدا، فهو معها منذ أول حمل ويعرف كم معاناتها:

" مبروك يا ست الكل.. ولد ! "

آه .. لكنه لن يقلها فيما يبدو ولزمن طويل قادم، وربما للأبد.. فالطبيب لم يبتسم حينما زارته تلك المرة ولم يمرح أو يبدي السعادة.. تلعثم محاولا تبرير موقفه:

" آه .. ده مش باين للأسف ! "

كانت الحماة واقفة كالصقر بجوار فراش زوجة ابنها.. فهتفت مستنكرة وهي تري تفاصيل الجنين واضحة أمامها على الشاشة:

" مش باين إزاي يا دكتور.. ما هو معدول وكويس أهوه ! "

حك الطبيب ما تبقي من شعره وقال رادا بلطف :

" مش كل العيال بتبان بدري يا ستي .. أسبوعين كده ولا حاجة وإن شاء الله نعرف! "

زمت الحماة شفتيها وتلونتا بالسواد وقالت مستنكرة قاطعة:

" ولا أسبوعين ولا حاجة .. على أية ما كل حاجة باينة أهي .. مدور ومكعور .. تبقي بنية ! آه يا غلبك يا ولدي .. يلا يا بت !"

قالتها بقسوة ورائحة الازدراء والكراهية تفوح منها كرائحة النشادر!

*****

عادتا إلي البيت.. كان الزوج غائبا في عمله والطفلتين تلعبان على الأرض التي لوثتاها كلها ببقايا البيض المسلوق، الذي أطعمتهما جدتهما الأخرى إياه.. كانت أم الزوجة هناك ترعي حفيدتيها لحين عودة أمهما المنكوبة.. ولم تكد تراهم يهلون حتى هرعت إليها منتظرة البشارة:

" ها يا أمي.. طمنيني ! "

مصمصت الحماة شفتيها وقالت محتقرة :

" ولا نطمنك ولا تطمنينا.. اللي مكتوب عليه الشقا مكتوب! "

ثم دخلت إلي غرفتها ورزعت الباب خلفها بغل.. ذعرت الأم ونظرت إلي ابنتها مستفسرة.. هزت " نعمة " رأسها ثم أسندت رأسها إلي صدر أمها .. وانفتحت في البكاء والعويل !

*****

كانت تلك أول مرة تبكي منذ أن أرغموها على ترك المدرسة لتتزوج.. لم تبكي حين زفوها بالقسر الجميل إلي ابن عمتها، ولم تبكي حين كانت تعاني متاعب المخاض مرة واثنتين .. ولم تبكي حين كان زوجها، وحماتها وأخوات زوجها ، يعايرونها جهرا أو تلميحا بإنجاب البنات .. لكنها بكت الساعة !

لا ليس لأنها عرفت أنها تحمل بنتا ثالثة .. بل لأنها أحست أنها لا قيمة لها في هذه الدنيا .. ليست لحما ودما ، ولا عقلا ، ولا قلبا ، ولا إنسانا له مشاعر وجب احترامها ، ولا أما تحمل في داخلها قدسية الأمومة وجمالها وروعتها الفريدة .. بل هي مجرد وعاء !

معون٢ ، مثل الحلة أو الطبق ، ما عليها سوي أن تحمل وتضع ، وليس أي حمل أو أي وضع .. بل يجب أن تحمل وتضع الولد ، وإلا فلا قيمة لها ولا شأن .. ليست أغلي عندهم من طبق من الصفيح أو حلة من الألمونيوم .. ولا حتى عند زوجها المتظاهر بحبه لها .. هل يحبها فعلا ؟!

تشك الآن في كون أي أحد يحبها على الإطلاق .. فهل سمعتم بأحد يحب حلة أو طبق ؟!

وكأنها قد بشرت على نفسها كما يقولون .. فما إن استسلمت للبكاء أول مرة حتى لازمها البكاء دوما بعد ذلك .. صارت تبكي ليلا ونهارا ، وتبكي وهي نائمة ، حتى أحلامها كانت تري نفسها فيها جالسة تبكي .. فقد صارت حياتها كلها آلام !

لم يرضي الزوج عما سمعه ولم يفتح فمه بكلمة معترضا أو محتجا أو مسلما قدره لربه ، أو حتى معزيا لزوجته الحزينة الصموت .. بل سمع الخبر ببساطة ثم ذهب ليغلق بابه على نفسه .. ويظل هناك بقية اليوم يدخن سجائره بلا انقطاع وينفخ من صدره غيوما سوداء حارقة !

لكن ماذا بوسع العناد أن يجدي .. وهل الله عزوجل يُعاند معه ؟!

استسلمت " نعمة " لما هو مقدور ومكتوب عليها منذ أن كانت جنينا في بطن أمها .. ولعل أباها هو الآخر ، أستقبل مولدها الحزين بالجلوس أمام البيت وتدخين السجائر ليفرغ فيها غليله ..

غريب أمر هؤلاء القوم .. هم أكثر من يطنطنون بالإيمان بالله وبقضائه وقدره .. وهم أيضا أكثر من يضجون بقضائه وقدره هذا ولا يتقبلونه إلا مرغمين ساخطين !

مرت شهور الحمل سريعا وأصرت الطفلة الثالثة على أن تأتي إلي العالم في أسرع وقت فجاءت مبكرة عن موعدها الطبيعي شهرين كاملين .. ولأن (عيال الفقري تيجي بدري)٣ فقد هرولت " أسماء" إلي العالم غير عالمة بما ينتظرها هناك ..

أرتدي الزوج جلبابه البلدي الأبيض ، وذهب إلي السوق ليجلس مع رفاقه من البائعين والمتسببين٤ هناك .. كانت تلك مجرد حجة فالحقيقة أنه خرج لأنه لا يريد أن يشهد مولد البنت الثالثة له .. كان راغبا في خنق زوجته ، أو خنق الطفلة الجديدة فور مولدها ، أو حتى خنق الثلاث بنات دفعة واحدة..

وتجبنا للمشاكل وليمر اليوم الأسود على خير قضي بقية ساعات النهار خارجا .. وعاد في المغرب شاحبا واهنا مصفر الوجه بسبب تدخينه كومة من السجائر على الريق بدون قضمة خبز أو شربة لبن ..

أشفقت عليه أمه حين رأته ، ولمعت عيناها بالإصرار الذي يلمع في عيون المرأة العربية القوية حين تقرر أنها هي وحدها المخول لها حل المشكلة المستعصية والإجهاز عليها .. وقد كانت الحماة بالفعل قد قررت أن وقت الحل والإجهاز قد جاء ..

بدون مقدمات قالت لولدها : " أتجوز عليها يا أمي٥ ! "

رمقها ولدها المرتعش ، من فرط الجوع والحزن والتدخين الثقيل ، بعينان متفاجئتان من قولها ولم يجد ردا يقوله :

" مالك بتبحلقلي٦ كده ليه ؟ مش عايز يجيلك واد يشيل أسمك ويكون في ضهرك ؟! "

لم تكن الأم في الحقيقة تسأل بل كانت تقرر حقيقة تعرفها جيدا .. نعم يا أمي إنني أريد الولد الذي يحمل اسمي ويكون سندا لي في ظهري .. لكن كيف يمكنني الحصول عليه ؟!

تبادلا نظرات متواطئة وردت الأم على نفسها :

" الفقرية النقرية٧ دي مفيش في عنقودها غير البنتة٨ ولا عمرها هتجيبلك واد .. لا دلوقتي ولا بعدين ! يبقي أيه يا أمي .. "

قطعت الأم كلامها بذكاء راجع إلي المكر والدهاء ، وليس إلي العقل والمعرفة والعلم ، منتظرة أن يلتقط ولدها طرف الخيط ليشده بنفسه :

" طاب هي هترضي ؟!

كان يتحدث عن " نعمة " لكن الحماة مصمصت بشفتيها معلنة استهانتها وقلة اكتراثها بتلك الكنه الخائبة :

" ما ترضي ولا مترضاش .. عنها ما أتزفتت رضيت هي هيبقي ليها عين تفتح بوقها بعد ما بلتك وبلتنا بتلات بنات .. قال ترضي قال .. مستنيين رضاها أصلك إحنا ! "

كانت كلمات الحماة قاسية كحد سيف مسنون وخالية تماما من الرحمة ، لكنها نزلت على قلب ولدها المكلوم بردا وسلاما .. وفتحت عيناه على شيء جديد لم يفكر فيه من قبل .. إنه يستطيع الحصول على الولد الذي

يريده من زوجة أخري ، ما دامت الأولي (الفقرية النقرية) لا تعرف كيف تأتي به !

فكر " عبد الرحيم " قليلا وأدار الأمر في رأسه ، بدأ يفعل على الأقل ، ثم قال معلنا تردده :

" طيب ما يمكن ربنا يكرمها ويكرمنا وتجيبه (يقصد الولد) المرة الجاية ولا اللي بعدها !"

لطمت الحماة خدها الأيمن وقال بصوت مرتفع متحسر:

" والله ما هتجيبه ولا هتشوف منها ولاد .. دي فقرية وعنقودها مفيهوش غير البنات .. خليك وراها لما تبليك بست سبع بنات يتعلقوا في رقبتك متلاقيش حتى واحدة تانية ترضي بيك ! "

كانت تهدده بلباقة في صورة تحذير من المستقبل .. نخ قليلا وبدا أن الكلام مناسب لهواه تماما :

" طاب ودي مين اللي هترضي بواحد متجوز وعنده تلات بنات ومرة٩ في رقبته ؟! "

" يا أمي الدنيا مليانة .. النسوان مفيش أكتر منها ! "

داعبته صورة عروس أخري تزف إليه وقال مستمتعا :

" بس أنا ماخدش إلا واحدة بيضا١٠ متروحيش تجيبلي واحدة عازبة١١ ولا أرملة !"

لقد راقه الأمر وبدأ يفرض شروطه :

" يا ولدي قول بس ربنا يسهل .. وبعدين البيضا دي عايزالها واحد ولد زيها .. وأنت لسه قايلها بلسانك أنت راجل متجوز ومعاك تلات بنات ومرة يعني لازم توطيها ١٢ شوية عشان ربنا يكرمك بالواد اللي نفسنا فيه يا ولدي ! "

كان ثمة اتفاق قد اختمر إذن ونتائجه ستظهر حالا في الطريق .. نتائج قاسية وليس بها ذرة واحدة من الرحمة !

*****

لم يري زوجته تلك الليلة ، ولا الطفلة الوليدة بالطبع .. ذهب إلي المندرة ورقد على كنبة بلدي من الموجودة هناك ، ونام حتى الصباح .. لم ينم جيدا بل قضي ليله الطويل متقلبا على جمر الغضا وفي رأسه تدور معركة مهولة ، تقعقع فيها الأسلحة وتنطلق القذائف المتبادلة وترتفع التهديدات ولا بوادر أمل عن هدنة قريبة ، وربما صلح ، في الأفق !

كان الزوج يعاني صراعا كبيرا بين ما يريده وما هو متاح له .. إنه في الحقيقة لا زال يحب " نعمة " ، وحتى وإن فترت مشاعره نحوها كثيرا بسبب الإنجاب وخلفة البنات وخيبة أمله في أن تنجب له الولد المنتظر. لكنه لا زال يحبها رغم كل شيء .. فهل سترضي هي بامرأة أخري تشاركه فيها ؟!

لو رضيت لكان معني هذا أنها لا تحبه ، وقد تكون سعيدة حينما تزحلقه وترحل حمولته السخيفة على امرأة أخري ، حتى وإن كانت ضرة لها .. وإن هي أبت ورفضت وعاندت ، نعم يمكنه أن يتجاهلها تماما ويتزوج مرة ثانية رغم أنفها ، وهي لا تملك له شيئا ، لكنه من ناحية أخري غير راغب في الدخول بقدميه إلي الجحيم الذي سينقلب إليه البيت بسبب وجود ضرتين فيه .. طلاقه لها غير وارد بالمرة ، وهو لن يفرط فيها أبدا ولا في بناته .. فهن في النهاية لحمه ودمه ويحملن اسمه !

لكن هل ترضي " نعمة " بوجود ضرة لها ؟!

هل ترضي وتقبل مرغمة بوصفها (أم البنات) الخائبة الفاشلة التي لا تعرف كيف تأتي بالولد .. أم تعاند وترفض وربما تذهب إلي بيت أبيها غاضبة وتطلب الطلاق ؟!

كلاهما مر .. وكلاهما علقم في حلقه .. لكنه للأسف مجبر على الاختيار ما بين هذين الحلين !

ليس لأن أحدا سيجبره على شيء بل لأنه يريد (الولد) .. يريده بكل جوانحه ومستعد لدفع نصف عمره الباقي من أجل الحصول عليه !

يريد (الولد) الذي سيحمل اسمه ويحافظ عليه .. يريد (ولدا) يكتب اسمه بجواره على لافتة الدكان باسم (عبد الرحيم أبو العلا وولده فلان)..

إنه يعرف أن كثير من الأولاد هذه الأيام لا قيمة لهم ، ولا محل لهم من الإعراب .. ذكور بلا رجولة ، تكبر فارغ وعنجهية وتنصل من مسئولياتهم نحو آبائهم .. رأي ذلك بعينيه وليس بحاجة لمن يقوله له .. ذلك السائق المسكين عم " عرفة "، الذي بلغ من الكبر عتيا ، ومع ذلك فهو ينزل فجر كل يوم ليحشو عربته المتهالكة ، التي نخر الزمن عظامها وأبلي الغلب جدتها ، بالزبائن ويقودها بيدين جافتين معروقتين لم يبقي فوق أديمهما جرام لحم جيئة وذهابا ، مرارا وتكرارا ، فوق طريق طويل متعب ، لمجرد أن يكسب جنيهات قليلة تقيه من الجوع وهو زوجة مسكينة لا تقل عنه شقاء ولا نحولا .. أليس له أولاد (ذكور) ؟!

ثلاثة يا محترم ، في عين العدو ، لكنهم كقلتهم ، بل ربما قلتهم خير وأبقي .. فأكبر الأولاد هجر الأسرة وأخذ زوجته وسافر إلي الكويت ، يعيش ويعمل هناك ، وكما يقولون يعيش في بحبوحة ولا يتذكر أبيه وأمه بمليم ، ولا حتى بطرحة تلفها أمه على رأسها بدلا من طرحتها التي بليت وامتلأت بالثقوب ..

الولد الثاني سافر إلي مصر (القاهرة) وتزوج واحدة لا يعلم أحد أصلها وفصلها ثم فص ملح وذاب .. ولا يعرف أبواه إذا ما كان حيا أو ميتا حتى !

أما الثالث (ننوس عين أمه) فهو طالب فاشل ولا يصح تسميته إلا ب (صايع) .. ليس له عمل إلا النوم حتى العصر ، ثم يصحو ليبتز ما يمكنه من أمه المسكينة ، جنيها أو جنيهين ، ربما كانت هي كل ما لديها لتنفقه على البيت يومها .. ويختفي ليذهب (في ستين داهية) حتى تباشير الفجر!

نعم يعرف ذلك ويعرف أكثر من ذلك .. لكنه يريد الولد رغم ذلك!

لماذا .. إنه يعرف ولا يعرف في نفس الوقت .. إنه حتى لا يفكر لماذا يريد الولد بل هو يريده والسلام !

ومرة أخري كر عقله راجعا إلي مشكلة زوجته .. هل ترضي بوجود ضرة لها أم ترفض ؟!

على تلك الحال المضطربة القلقة نام .. وأستيقظ مبكرا بعينين مثقلتين شاعرا بأنه لم ينم دقيقة واحدة .. وربما كان هذا صحيحا !

*****

غمرت الشمس الغرفة بمجرد أن فتحت الجدة الستائر .. كانت والدة " نعمة " قد باتت ليلتها في بيت ابنتها النفساء ، وقررت أن تبقي معها بضع أيام حتى تسترد عافيتها لتقدم لها الرعاية التي تعرف أن حماتها ، والدة زوج " نعمة " ، لن تقدمها لها .. خاصة في تلك الظروف :

" صباح الخير يا ضنايا ! "

همست الأم برقة وأنحنت على فراش ابنتها لتجس جبينها :

" لا الحمد لله .. بقيتي زي الفل يا حبيبتي السخونية راحت خالص ! "

كانت الزوجة الشابة قد ارتفعت درجة حرارتها بعد الوضع بقليل .. وخشيت أمها أن تكون قد أصيبت بحمي النفاس أو أي مرض آخر من التي تصيب النساء الوالدات :

" البت نايمة ! "

قالت الجدة مبتسمة فردت عليها " نعمة " وهي تتأوه :

" خليها تنام .. مخلتنيش نمت طول الليل كل شوية واء واء ! "

ابتسمت لها أمها وقالت بحنان جارف وهي تنحني عليها للمرة الثانية :

" سلامتك يا ضنايا .. أجيبلك حاجة بقي تتقوتي بها كده ! "

هزت " نعمة " رأسها بوهن وقالت :

" لا لا .. مليش نفس خالص ! "

وضعت الأم يدها على صدرها وقالت راجية ابنتها :

" عشان خاطري يا بتي .. ده أنت تعبانة وضعفانة يا نن عيني ومفضلش فيكي رطل لحم يوحد ربنا .. كلي يا أمي عشان تشدي حيلك وتقدري على رضاعة البت ! "

لم يكونوا قد اختاروا اسما للمولودة بعد ، فقد فاجأتهم بقدومها المبكر، قبل أن يجدوا فرصة للتفكير في اسم مناسب لها :

" صح أنتوا هتسموها أيه يا " نعمة " ؟! "

تذكرت الجدة هذا الأمر الهام فبدأت تناقش ابنتها فيه .. ردت عليها " نعمة " بنبرة كمد : " لما نشوف أبوها الأول ! "

ردت الجدة مبتسمة بمرارة : " أبوها ؟! "

هنا تذكرت " نعمة " أمرا مهما للغاية بالنسبة لها :

" هو " عبد الرحيم " مجاش طل علينا بالليل بعد ما جه من بره ؟! "

لم تكن قد رأت زوجها منذ أن داهمتها آلام الوضع ظهرا ، ولم تكن تعرف أين قضي بقية يومه : " أيه .. آه طبعا طبعا يا أمي .. جاه وطل عليكي وباس البت الصغيرة آمال أيه ما هي بته برضه ! "

كانت الأم ، الجدة ، تكذب وكانت ابنتها تعرف جيدا ذلك .. لكنها لم تراجعها ولم تقررها فقد كانت تعرف أن اهتمام زوجها بها ، وبابنته الوليدة ، بالكذب خير من إهماله لهما بالصدق والحق !

" هنسميها " أسماء" إن شاء الله ! "

كان هذا جواب السؤال الذي طُرح منذ قليل :

" على خيرة الله يا أمي .. وعقبال يا رب ما تخاويهم وتحليهم بالواد ! "

قالتها الأم بعفوية ، ولعلها لم تشعر بنفسها وهي تقولها ، لكن عبارتها جعلت مصارين " نعمة " تتقلص ووجهها يغمق لونه .. ألا زالت مطالبة بأن تلد الصبي بعد كل هذا التعب والمشقة ؟!

ما أطول حبل أمانيها وما أتعس أيامها .. ندمت الأم كثيرا على ما فاهت به فحاولت إصلاحه بسرعة : " مع إن البنات والله حلوين ورزقهم كتير.. يعني اللي جابوا الواد عملوا بيه أيه يا حسرة .. ما هما أخواتك العطولة١٣ أهم خدنا منهم أيه غير تعب القلب ! "

كان كلام الجدة صحيحا .. لكن مهما كان المنطق هنا ، ومهما كانت مقتضيات الحكمة وإملاءات الواقع .. فلابد من الولد .. لابد من الولد ولو أريق في سبيله الحب والأمان وحتى الكرامة نفسها !

ظهر الزوج على عتبة الباب بنفس جلبابه الذي غادر به المنزل بالأمس ، ويبدو أنه نام به كذلك ، رغم أن هذه لم تكن من عاداته :

تنحنح بقوة ثم قال ببرود :

" صباح الخير يا " نعمة " .. حمدا لله على السلامة ! "

أقترب من زوجته الراقدة على الفراش ، وأنحني ينظر إلي طفلته التي مر على وجودها في العالم أكثر من ستة عشرة ساعة دون أن يري وجهها الصغير مرة واحدة : " حلوة حلوة .. زينة .. هتسميها أيه ؟! "

وكانت الطفلة بالفعل حلوة وزينة، بل جميلة بوجه مستدير كالبدر وبشرة بيضاء محمرة وشعر خفيف أشقر لا مثيل له في العائلة كلها .. لكن لما يسألها عن الاسم الذي سيطلقونه عليها ؟!

أليست ابنته أيضا .. وله حق تسميتها ؟!

" ما تسميها أنت المرة دي ! "

أجابت الحماة بلهفة محاولة إزالة الحاجز البارد بين ابنتها وزوجها الذي أحست بوجوده منذ لحظة دخوله الحجرة المشمسة :

" لا خلي أمها تسميها .. أهو تنقيلها اسم حلو مجلع ١٤ من بتوع اليومين دول .. أنا بقي دقة قديمة ومخي متربس ومعرفش غير الأسماء القديمة العفشة١٥ ! "

لم تعرف إن كان يبرر موقفا غير مقبول ، أم أنه تحدث بالصدق .. لكن لهجته الودودة سرت عنها وجعلت قلبها يخفق والابتسامة تكاد تقفز إلي شفتيها .. لكن الحماة ما لبثت أن قفزت كغراب البين داخل الغرفة ويبدو أنها سمعت طرفا من الحوار:

" أصباح الخير يا أمي .. أزيك يا حبيبي .. أياكش تكون نمت كده وروقت! "

وكأنها لا تري حماة ابنها ولا زوجته من الأساس وجهت كل حديثها واهتمامها نحو ابنها فقط :

" أحضر لك لقمة تشق بيها ريقك ١٦ يا كبدي على لحم بطنك من إمبارح يا ضنايا .. هييه .. نقول أيه بقي نصيبنا كده ! "

محاولة تخفيف حدة التوتر قالت والدة " نعمة " وهي تتصنع الضحك والسعادة :

" نصيبكم حلو وعال .. دي حتى البنات حلوة ورزقها كتير .. ربنا يرزقك برزقهم يا ولدي ويوسع عليك ! "

هم " عبد الرحيم " بأن يؤمن على دعاء حماته .. لكن أمه لم تمهله أشعلت الفتيل وألقت القنبلة على الجميع :

" قولتلها ولا لسه ؟! "

نظر " عبد الرحيم " إلي أمه شذرا نظرة تحذير لكنها تجاهلته تماما :

" يا واد ما تقولها .. أنت خايف من أيه .. ده حقك هو أنت هتسرق ؟! "

للمرة الثانية ينظر لها ابنها محذرا لكن " نعمة " سألتها بصوتها المتعب المتألم

" يقولي أيه يا ماما خير؟! في أيه يا عبد الرحيم .. حصلت حاجة ؟! "

ويبدو أن أم " نعمة " بفطرتها قد فهمت جزء مما يحدث هنا فحاولت تغيير الموضوع :

" ها .. مش هتنقوا اسم بقي للبت البيضا العسل دي ؟! "

هنا ردت عليها حماة ابنتها بعنف :

" عسل خليهالك يا أختي .. كليها ، ألحسيها وأشبعي بيها وبأمها .. إحنا هنشوف مصلحتنا من تلانا ١٧ وولدنا هنجوزوه التي تعمرله وتجيبله الواد !"

جحظت عينا " نعمة " ودق الدم عاليا في أذنيها .. جف حلقها تماما ونظرت بذعر إلي زوجها :

" وده برضه اسمه كلام يا بت الأصول .. حد يقول كلام ذي ده قدام واحدة نفسة ولسه تعبانة ! "

كان الكلام موجها من الحماة الأولي للحماة الثانية .. لكن ثمة زوجين شابين سيتمزقان أشلاء في تلك المناورة بين امرأتين من العتاقي ..

" مش وقته يا أما .. لسه بدري على الكلام ده وبعدين .. "

أجاب " عبد الرحيم " محاولا تلطيف الجو الذي تكهرب وتطاير فيه الشرر .. لكن أمه لم يكن لديها أدني استعداد للتراجع ولا للنكوص خطوة واحدة إلي الخلف :

" بدري من عمرك يا ضناي ! ده أنت الشيب خط في راسك يا ولدي من الهم والحزن .. اللي زيك على حجرهم وادين وتلاتة .. شوف أخوك " عبد العزيز " ما شاء الله معاه واد والتاني جايله في السكة .. وولد عمك مرته جابت تلات ولاد في بطن .. وأنت هتطلع من وسطيهم عريان وضهرك مكشوف .. والله ما أسيبك غير لما أجوزك وأحط ولدك على حجري .. "

انفتحت الأم تكيل مرارات قلبها في جمل معبقة بالكراهية والمقت والنفور بينما يحاول ولدها إسكاتها بدون فائدة :

" خلاص يا أمايا ١٨ خلاص .. مش وقته بعدين .. "

لكنها لم تعطه ، لا هو ولا غيره ، فرصة لإكمال أي كلام ، بل اندفعت موجهة كلامها في الأساس ل" نعمة " وأمها الواقفة كفرخ مبلول :

" لأ دلوقتي .. بلا بعدين بلا قبلين .. لازم الشملولة١٩ تعرف أنك هتتجوز عليها وتجبلها كل حاجة على بلاطة كده .. عشان لو مكانش لادد ٢٠ عليها الكلام تاخدها أمها في أيدها وهي ماشية .. بلاش نحنحة بقي وطبطبة فارغة .. بلا هم ! "

ألقت الحماة آخر أصبع ديناميت في حوزتها وهرولت خارجة تاركة الغرفة تحترق بصمت .. و" نعمة " التي تدور الدنيا من حولها .. تشعر بالمزيد من الضعف والوهن ، وتدور رأسها وتخفت مشاهد الدنيا من حولها .. حتى تفقد الوعي تماما !

(٢)

جلست " مروة " في الحصة تخطط في كشكولها بصمت وبشرود .. كان من يراها يعتقد أنها مشغولة بكتابة ملاحظات حول ما يقوله الأستاذ .. لكن المتأمل الدقيق كان يفطن على الفور إلي أنها لم تكن أصلا تسمع حرفا مما يقال في الحصة .. ولها العذر في ذلك .. فالإلهام لا يتنزل عليها إلا في حصص هذا الأستاذ المملة تحديدا !

كانت تكتب خواطر وأشعار وخلافه في دفترها الضخم ، وعيناها تجول بين الصفحات وهي لا تكاد تدرك أن الجميع حولها يفعلون مثلها ، ويتشاغلون بأي شيء ريثما تنتهي تلك الحصة المملة السخيفة .. لم يكن العيب في السيد المحاضر بل المادة نفسها كانت سمجة وثقيلة وجامدة ، وكانت أغلبية طلبة الفصل ، إن لم تكن المدرسة بأكملها ، يكرهونها كراهيتهم للموت ..

لم تكن " مروة " طالبة مهملة أو كارهة لدراستها ، لكن بزوغ بوادر النبوغ الأدبي والشعري عندها كانت تعرقل سير تفكيرها العادي في أغلب الأوقات ..

اكتشفت نفسها حين دخلت المدرسة الثانوية.. قبل ذلك كانت تخطط لدخول القسم العلمي ، لتحقق حلم أبويها بأن تدرس الطب وتصير دكتورة قد الدنيا .. لم يكن هذا الحلم حلمها الخاص ، لكنها كانت تتقبله بشكل ما ، وربما تتعلق به أيضا .. لكن الصخرة كانت تقف في الطريق تعترضها وتنتظرها لتصطدم بها مباشرة .. اصطدمت بصخور الفيزياء والكيمياء والعلوم الثقيلة في الصف الأول الثانوي ، حتى الرياضيات التي كانت تحبها في المرحلة الإعدادية وتحوز فيها أعلى الدرجات ، تغيرت نظرتها لها بعد أن

وجدت نفسها في مواجهة وحوش الرياضيات والهندسة الجافة في المرحلة الثانوية .. تخطت اللغة العربية والإنجليزية والفرنسية والتاريخ والجغرافيا بدرجات جيدة جدا ، بينما عبرت من نفق العلوم والرياضيات بصعوبة بالغة ، وبدرجات على (الحركرك) ..

دهشت الأم لهذه النتيجة غير المنتظرة إطلاقا من ابنتها طبيبة المستقبل .. بينما أنفجر الأب غاضبا لما أعتبره فشلا وخيبة وتقصيرا من ابنته الكبرى .. لكن الجيد في الأمر أن " مروة " اكتشفت نفسها مبكرا قبل أن تتورط في دراسة ، وربما عملا ، لا تحبهما ولا يناسبان مزاجها الشخصي وميولها الطبيعية .. اكتشفت السر إذن ، لكنها احتفظت به لنفسها ، درجت على كتابة خواطر وأشعار قصيرة ، لا يتعدي كل منها بضعة أسطر ، لكنها كانت ترفعها إلي عالم آخر ترفرف فيه بأجنحة من نور وهي تخطها بيمينها .. لكنها حرصت على إخفاء تلك الكنوز المغبونة عن عيون كل من في البيت ، الأب والأم وحتى إخوتها لم يعلموا حرفا عما تكتبه .. بل حتى رفيقات الدراسة المقربات لم تخبرهن بشيء .. أحيانا كانت تشعر بالخجل مما تفعله ، وكأنها تأتي منكرا أو ترتكب جريمة ، لكنها في دخيلة نفسها ،. كانت تعرف السر في هذا التمنع عن إظهار حقيقة الموهبة التي من الله عليها بها أمام الآخرين .. فلو علم أحد الأبوين بأمر الكتابة والخواطر والأشعار ، فسيرجعان كل فشل تحققه في العلوم إلي هذا الأمر ، وليس إلي أنها غير موهوبة علميا .. ولن يصدقا أبدا أنه لا علاقة بين ما تخطه من قصص قصيرة وأشعار وخواطر ، وبين إحجامها عن تحقيق رغبتهما المتقدة في الالتحاق بالكلية العلمية المرموقة ..

في إجازة نهاية العام الدراسي ، وبعد أن خرجت منهكة القوي من امتحانات الصف الأول الثانوي ، بدأت المعركة مبكرا .. كانت قد عانت الأمرين جراء معاركها الضارية مع الفيزياء والكيمياء والرياضيات المعقدة ، والتي خسرتها كلها لكن بأقل الخسائر الممكنة ، وتحتاج لهدنة طويلة تستريح فيها وتضع الحرب أوزارها.. لكن الأبوين ، خاصة الأب ، كانا مصرين على أن يبدآ المعركة مبكرا ، بدأ النقار والشجار والخلافات الهادئة الباردة ، فالأب أسرع وحجز لها مكانا في مجموعات خاصة للفيزياء والكيمياء والرياضيات والأحياء عند أهم المدرسين في المدينة الصغيرة ، ليضمن أن تجد ابنته مكانا في وسط مئات التلاميذ الذين يتهافتون على أولئك المدرسين الكبار، أساطين هذه المواد المرعبة وسدنتها .. تصرف الأب على مسئوليته الخاصة ، وباعتبار أن ابنته قد خضعت لرغبته ، ورغبة أمها ، والتحقت بالقسم العلمي في الثانوية العامة .. أما الأم ، التي كانت تري في هذه الحجوزات تبكيرا شديدا قبل الأوان ، فقد أخذت تقنع ابنتها بأنهما ، هي وأبيها ، يريدان مصلحتها ويعملان على أن تحقق أملهما في أن تصير طبيبة قد الدنيا تملأ العين .. وراحت الأم ، عندما أحست من ابنتها بوادر تمرد واحتجاج ، تدعو الله مخلصة أن يهدي ابنتها ويلهمها الصواب ، وكأنها تعصي الله عندما تقرر لنفسها ما تريده .. لكن ماذا عما تريده هي وما تحبه ؟!

لم يهتم أحد بذلك ، فليس لرغباتها ولا لاهتماماتها أدني احترام أو أهمية ..

تحزب الأبوان إذن ، كل بطريقته ، ضد الابنة التي وقفت في الجبهة تقاتل بمفردها ولا سلاح لديها تزود به عن نفسها ، سوي سلاح محاولة شرح الأمر لولي الأمر وإفهامهما أنه لا تريد مخالفتهما ولا عصيانهما .. بل كل ما هناك ، أنه من حقها أن تختار الدراسة التي تحبها ، والتي هي قادرة على استيعابها ..

لكن كافة جهودها ذهبت أدراج الرياح .. فلم تكد نتيجتها تظهر ، ويتأكد نجاحها في الصف الأول الثانوي ، وبلا مواد رسوب أو ملاحق ، حتى أعتبر الأبوين ذلك دليلا كافيا على أن بإمكانها اجتياز المواد العلمية والنجاح فيها ..

أحتفل الأبوان بنجاح ابنتها الكبرى .. وبدأ الأب في عرض الرشاوى المادية والعينية على ابنته اليافعة ، واعدا إياها بأنهار اللبن والعسل إن هي استجابت لإرادته وفعلت مثلما يريدها أن تفعل .. وجدت الابنة نفسها محاصرة في الركن .. ومع بداية العام الدراسي الجديد وجدت نفسها ، وكأنها مسحوبة من أذنها وعقلها مغيب ، توافق على الالتحاق بالقسم العلمي إرضاء للأبوين .. وقد كان هذا خطأ فادحا ارتكبته وظلت تندم عليه طويلا بعد ذلك !

*****

كان أول أسبوع من الدراسة كافيا جدا لتعرف " مروة " حقيقة ما يحدث معها .. إنها ببساطة غير قادرة على فهم حرف واحد من المواد العلمية .. وقفت الكيمياء والرياضيات في حلقها كشوكة هائلة ، أما الفيزياء فقد أصابتها بالرعب والجفاف .. ورغم أنها حضرت حصصها المقررة مع الأساتذة الفطاحل المشاهير ، إلا إنها خرجت من تلك الدروس القليلة يا مولاي كما خلقتني .. ولم تفهم حرفا واحدا مما قيل أو تم شرحه من قبل هؤلاء المدرسين !

ماذا تفعل إذن ؟! أتستمر وتبقي سادرة في هذا الأمر حتى تجد نفسها وجها لوجه أمام الامتحانات ؟!

كان من الخطأ أصلا أن تستجيب لضغوط الأبوين وإلحاحهما وتخضع لرغباتهما ، لكن هل من الصواب معالجة الخطأ بخطأ أكبر وأشد جرما .. أتبقي مكانها ساكنة حتى يجرفها الطوفان ؟!

في بداية الأسبوع التالي استيقظت صباحا مبكرة عن موعدها ونزلت مصرة على أمر ما .. كانت قد اتخذت قرارها وأنتهي الأمر ولم يتبقي سوي المرحلة الأصعب ، أن تقاتل من أجل تحقيق ما تريد ، لقد قضت يوم جمعة مؤلم وشاق للغاية بالأمس .. ذهبت إلي المسجد برفقة أمها ، كعادتهما كل ظهر يوم جمعة ، وأدت الصلاة وسط النساء والفتيات ، في المصلي المخصص لهن بالدور السفلي .. لم تكن تركز في كلمات الإمام أثناء الخطبة ، ولا حتى أثناء تلاوته للآيات الحكيمة وقت الصلاة ، كان كل عقلها متركز هناك في مؤخرة وعيها حيث يقبع القرار الخطير منتظرا التنفيذ ، وجدت نفسها تبكي عندما وضعت رأسها على الأرض وسجدت لربها .. انهمرت الدموع من عينيها دون أن تعرف سببا لذلك ، أو لعلها كانت تعرف وتتعامي عنه ، وصاحب الدموع المنهمرة كالمطر إحساس بتثاقل رأسها وألم في زاويتي عينيها وتنميل في أطرافها .. لم تعرف لماذا كانت تبكي بالضبط ؟!

كان هناك ألف سبب وسبب تجعلها تبكي .. لكن أيهم الذي داهمها الآن وجعلها تجهش بالبكاء ؟!

ليس من المهم أن تعرف .. فليس مهما أن تعرف سبب بكائك خاصة إذا كنت ستبكي كثيرا بعد ذلك !

قُضيت الصلاة وأنتشر الناس في أرض الله الواسعة ، التي كانت يومها في ضيق ثقب إبرة في نظر " مروة " ، وعادت الفتاة مع أمها إلي المنزل .. صعدت فورا إلي غرفتها ورفضت أن تتناول الغداء بحجة أن نفسها مسدودة!

لكنها كانت تكذب والأم كانت تعرف ذلك ، لقد أحست بما يحدث مع ابنتها وشعرت ببوادر شيء سيء قادم في الطريق .. لكنها غضت بصرها

وتعامت عن كل ما تراه ، متمنية من ربها أن يكون الأمر مجرد عارض يزول قريبا !

لكن في صبيحة السبت ، وبعد ليلة سيئة للغاية ، كانت " مروة " قد حسمت أمرها تماما وقررت أن تقف للحظة وتقاتل في سبيل حريتها وسعادتها .. كانت الأم تقف في المطبخ تحاول إشعال البوتاجاز عندما دلفت البنت وألقت تحية الصباح على والدتها بصوت مضعضع من فرط الأرق والقلق :

" صباح الخير يا ماما "

" صباح الفل يا أمي "

ردت الأم وعلى وجهها ابتسامة واسعة مرحبة .. لاحظت " مروة " ما يحدث فراحت ناحية أمها وأخذت منها الثقاب وقامت بإشعال الموقد :

" صاحية ليه بدري كده يا بتي .. لسه بدري على معاد مدرستك ! "

وضعت الأم طاسة على النار وهي تتحدث ، بعد أن شطفتها بالماء من الصنبور ، وأخذت تجففها خفيفا قبل أن تضع فيها السمن وتبدأ في كسر البيض لقليه :

" عنك أنت يا ماما "

قالت " مروة " وهي تحاول أن تأخذ مكان أمها أمام الموقد المشتعل :

" لا لا خليكي أنت .. روحي أنت أغسلي وشك وصحي أخواتك على بال ما أطقش٢١ لكم البيض وأعملكم شوية شاي ! "

أحست " مروة " بالتردد الشديد ، ولم تعرف ما الأصوب ، أن تقف مكانها وتصر على أن تفتح الموضوع للحديث مع أمها الآن وفورا ، أم تذهب لتفعل مثلما طلبت منها وتنتظر حتى تسنح لحظة أكثر مناسبة :

" روحي يا بت .. واقفة كده ليه ؟! "

" ماما .. عاوزة أقولك حاجة ! "

وجدت البنت نفسها تقول ذلك قبل أن تخطط جيدا لما ستقوله بالضبط : " في أيه ؟! "

كانت الأم تقلب البيض بالمعلقة ليحمر وجهه الآخر وهي تنصت لأبنتها بانتباه .. ترددت كثيرا وجف حلقها قبل أن تجد الشجاعة الكافية لقول تلك الجملة :

" ماما .. أنا هحول النهاردة .. هحول لأدبي ! "

تركت الأم المعلقة من يدها ووضعتها داخل طاسة البيض ثم تحولت لتنظر لابنتها بدهشة وذهول :

" أيه ؟ هتحولي إزاي يعني ؟! "

دعكت " مروة " جبهتها بتوتر وقالت مستجدية العطف :

" ماما .. أنا مش بحب العلمي ومش فاهمة حاجة في المواد ومش هعرف أكمل فيه ! "

هزت الأم رأسها وانتبهت للبيض الذي أوشك على الاحتراق خلفها ، فالتفتت إليه بسرعة وذعر .. مدت يدها لتمسك بالمعلقة فوجدتها قد سخنت بشدة وعندما لمستها أصابتها السخونة المرتفعة بصدمة جعلتها تفلت المعلقة من يدها لتسقط على الأرض ، وكادت الطاسة أيضا تنزلق من فوق الموقد وتسقط هي الأخرى .. أمسكت الأم بيد الطاسة البلاستيكية ونفخت من لسعة الحرارة في يدها وقالت لابنتها بغضب :

" طيب روحي بس حضري الصينية وبلاش كلام فارغ على الصبح ! "

كان رد فعل الأم صادما ل" مروة " التي أحست أن أمها ليس لديها حتى استعدادا لمجرد الاستماع إليها :

" أنا هحول النهاردة وأديني قولتلكم ! "

رفعت الأم البيض من فوق الموقد .. ووضعت بدلا منه براد الشاي وقالت متظاهرة بالهدوء بينما هي تفعل ذلك :

" بلاش هلفطة ٢٢ فاضية على الصبح .. يلا روحي صحي أخواتك ربنا يهديكي يا دكتورة ! "

نفخت " مروة " بضيق وقد أدركت أن محادثة أمها وإقناعها لن تكون بالسهولة التي توقعتها .. كانت تعتقد أن الأب وحده هو العائق وهو المشكلة التي يجب عليها التغلب عليها ، فاكتشفت أن أمها كذلك قد حجرت رأسها وبدا أنها لن تقبل بسهولة الرضوخ لرغبات ابنتها .. وها هي تنادي ابنتها مدللة بلقب (دكتورة) وكأنها تذكرها بواجباتها نحو الأسرة .. تلك التي يبدو أنها تتلخص في أن تدرس لتصبح (دكتورة) حتى ولو كان ذلك رغم أنفها !

ذهبت البنت إلي الخارج وأيقظت أخواتها بمزيج من الغضب والخوف والعصبية .. ثم عادت إلي غرفتها لترتدي ثياب المدرسة ، وخرجت بعد دقائق على صوت أمها وهي تناديها :

" تعالي يا " مروة " كلي لك لقمة قبل ما تطلعي ٢٣ "

خرجت " مروة " حاملة حقيبتها المدرسية على عاتقها وذهبت إلي حيث تجلس الأسرة لتتناول إفطارها :

" تعالي .. تعالي يا أمي .. شقي ريقك بلقمة ! "

بجفاء ردت :

" مليش نفس .. أنا رايحة المدرسة ! "

" ما لسه بدري .. لسه الجرس تلاقيه مضربش ! "

متعمدة تحديها أجابت " مروة " :

" لا ما أنا هروح للمدير الأول عشان أقوله إني عايزة أحول أدبي ! "

ابتلعت الأم اللقمة التي في فمها بصعوبة ، وكادت تقف في حلقها وتسده ، ثم شربت جرعة ماء قبل أن تقول لابنتها ببدايات غضب :

" يا بت ما قولنا بلاش كلام فاضي ع الصبح .. ناقصك أيه عشان تسيبي العلمي وتخيبي أملك .. ده أنت أبوكي حاجزلك الدروس من الأجازة وبيدفعلك الشيء الفلاني .. حرام عليكي يا بتي تنكدي علينا من غير داعي ! "

غضبت " مروة " وقالت وهي تشد حقيبتها وتزيحها خلف كتفها بعنف :

" أنا مش حابة العلمي يا ماما .. مش فاهمة حاجة فيه ومش هنجح فيه أبدا ! "

ابتسمت الأم بملق وأخذت تمنيها بمعسول الكلام الذي تجيده الأمهات :

" لا متخافيش .. أنت بس ركزي وأقعدي على كتبك وأنت إن شاء الله هتنجحي وترفعي راسنا .. ده أنت مفيش حد زيك يا أمي .. ولا في بت أبوها عملها كل اللي عملهولك أبوكي ربنا يباركلنا فيه يا رب .. إن شاء الله منصورة يا أمي ! "

كانت " مروة " قد وصلت لنقطة النهاية في حبل صبرها .. فخرجت من البيت وهي تقول مهددة بجد :

" أنت عملت اللي على وقولتلكم .. أنتوا حرين بقي ! "

غادرت الفتاة البيت عازمة على تنفيذ ما هددت وتوعدت بفعله .. لكنها كانت تعرف أن هذه المجادلة القصيرة مع أمها ليست هي نهاية المطاف .. وأن الوضع سيكون مختلفا تماما حينما يحين أوان الاصطدام بأبيها !

*****

وبالفعل نفذت رغبتها .. كان مدير المدرسة الثانوية على معرفة شخصية بوالدها ، لم يكونا صديقين ، لكنه كان يعرفه جيدا لذلك فقد سألها متوجسا :

" وأبوكي موافق على كده يا " مروة " ؟! "

فردت محاولة الخروج من هذا الموقف دون أن تتورط في الكذب :

" أنا مدياهم فكرة في البيت ومحدش هيمانع طالما ده فيه مصلحتي ! "

" طيب .. ماشي "

ومشي الموضوع بالفعل وأنتهي .. وقبل عودة والد " مروة " من رحلة عمل له في القاهرة كانت ابنته الكبرى قد صارت طالبة في القسم الأدبي ، خلافا لرغبته ، وتسلمت كتبها الجديدة وانتظمت في دروسها ..

وجدت " مروة " نفسها أخيرا بين كتب التاريخ والجغرافيا ، وأحبت الفلسفة وعلم النفس .. وفي ذلك اليوم ، حينما حضرت أول حصة لها في الفلسفة ، وجدت نفسها تلقائيا منجذبة إلي كل كلمة تسمعها .. وفي نهاية اليوم وعندما عادت إلي البيت كانت هناك بوادر شيء ما تولد في عقلها .. سطور وأحرف وكلمات وخواطر تريد أن تخرج على الورق !

بالطبع كانت والدة " مروة " على علم بما حدث .. ورغم رفض الأم لما فعلته ابنتها بشكل شخصي ، إذ كانت هي نفسها تتمني التحاق ابنتها بكلية الطب لتتخرج دكتورة قد الدنيا .. إلا أن الأم لم تكن تمانع في ترك الفتاة تفعل ما تشاء طالما كانت تلك رغبتها ، لكن المشكلة الحقيقية كانت في الأب !

الأب ، وكما يعرفون كلهم ، عنيد صلب متشبث برأيه .. ويعتبر معارضة أي فرد له فيما يريده ، ليست نوعا من الحرية والاختلاف ، قدر ما هو انتقاص له وإهدار لكرامته !

لذلك كانت الزوجة تعتقد أن زوجها لن يترك الأمر يمر على خير ، وسيعتبر ما فعلته " مروة " وتغييرها لمسار دراستها ونوعها دون إذنه وموافقته تحدي له وعصيانا ، وكسرا لسلطته الأبوية والرجولية .. وللأسف فقد تحقق ما كانت تخشاه الأم !

ولأن فعلة الخير ما أكثرهم في الدنيا ، وفي تلك المدن الصغيرة حيث يكثر الناس ويتلاصقون ، يتزايد فعلة الخير ومحبي تهدئة النفوس بصورة غير طبيعية كورم سرطاني خبيث ، فقد كان ل" مروة " صديقة هي ابنة ابن عم أبيها ، ولم تكن العلاقة بين الأب وابن عمه وثيقة .. إلا أنه وجد في نفسه ما يكفي من الصفاقة لكي يتصل خصيصا بقريبه مدعيا رغبته في الاطمئنان على صحته وتفقد أحواله في مصر ٢٤ . وسرب إليه نبأ تغيير ابنته لدراستها وتحويلها من القسم العلمي للقسم الأدبي ممصمصا بشفتيه معلنا عدم تفهمه لتلك الخطوة الغريبة !

طبعا كان واضحا أن الرجل يصطاد في الماء العكر ، وأنه وجد نفسه فارغا بلا عمل ولا شغل يشغله فقرر أن يتسلي ب(الخبص) وإثارة الأب على ابنته .. لكن الحقيقة أن رد فعل الأب أصابه بالإحباط مؤقتا !

كان والد " مروة " يعلم جيدا أخلاق قريبه وأنه لم يتصل به إلا ليشمت ويشنف آذانه ، التي كآذان الفيل ، بسماع تنهداته وحرقة قلبه على ما فعلته ابنته من وراء ظهره فقرر ألا يدعه يهنأ بما يريد سماعه :

" معلش يا حاج .. كله نصيب ! وبعدين البت معملتش حاجة من ورايا .. كله بعلمي ومشورتي ! "

أنخرس الآخر ولملم ذيول الكلام ، وأغلق الهاتف .. لكن النار اشتعلت في قلب الأب واندلع لهيب النار في عقله !

أتصل فورا بزوجته وأستجوبها بضراوة حول حقيقة الأمر ، وعندما أستوثق أن الخبر صادق ولا كذب ولا شبهة دس حقير فيه ثارت ثائرته :

" أنتوا بتتصرفوا من دماغكم من ورايا ؟ هو أنا موت وأتدفنت خلاص .. دفنتوني بالحيا يا " محاسن " أنت وبنتك ؟! "

كادت الأم تصاب بانهيار لسابق علمها بأن تلك الهبة العصبية في التليفون لن تكون هي نهاية المطاف .. بل مجرد بداية لأيام سوداء قادمة وستراها بأم عينيها رغما عنها ولا شك !

" لا يا أخويا .. بعد الشر عليك إحنا لينا لازمة من غيرك ده أنت الكبير وراجل البيت والكلمة كلمتك والشورة شورتك .. "

قاطعها صارخا بشراسة :

" ولما هو كده بتك بتتصرف من ورايا ليه يا ولية .. سبتيها تمشي اللي في دماغها ليه من غير ما تاخد إذني ؟ "

" والنعمة يا أخويا ما عرفت إلا بعد ما عملت عملتها ! "

صرخ في وجهها وكاد الرذاذ المتطاير من شدقيه يعبر المسافة الفاصلة بينهما ويتناثر عبر سماعة الهاتف في وجهها :

" يعني عملت كده من وراكي ؟! "

" لا لا يا أخويا قالتلي .. بس افتكرتها بتهزر والنبي ومفتكرتش إنها هتروح تعمل اللي عايزاه ! "

كانت الأم في محاولتها لتبرير موقفها ، الذي هو كالزفت في نظر زوجها ، قد تناست أنها تغرف من بحر الطين وتضع فوق رأس ابنتها التي ستتلقى غضبة أبيها بمفردها فيما يبدو .. لكن (إن جالك الطوفان حط ولدك تحت رجليك) وقد كانت غضبة الزوج ، كما تعرفها هي ، أقسي من أي طوفان .. أفرغ الأب غضبه على رأس زوجته في الهاتف ، مؤقتا ، ولحين تسنح له

الفرصة لمواجهة ابنته المارقة وعقابها العقاب اللائق بفعلتها .. سيعاقبها وسيجبرها على العودة إلي القسم العلمي وإلا فلن ينفق مليما على دراستها ثانية ما دامت تخالف أوامره وتتحدي إرادته !

*****

كانت " مروة " نائمة حينما عاد أبيها من رحلة عمله في القاهرة .. وكان نومها العميق له ما يبرره ، فهي لم تكن تعلم بأن أبوها الساخط سيرجع الليلة وإلا لطار النوم من عينيها وجافاها فراشها .. لكن الأب ، وفي تصرف غير معتاد منه على الإطلاق ، فاجأ الجميع برجوعه في منتصف الليل ، دون أن يخبرهم في البيت بعزمه على العودة مساء اليوم ، وهو ما لم يقدم عليه من قبل أبدا .. وعلى غير عادته أيضا جاء الأب بيده فارغة ، سوي من حقيبته الشخصية ، بدون هدايا لأحد .. خاصة لمروة التي لم يكن يعود من أي سفر له إلا وهو محمل بالهدايا لها !

كان غاضبا مستاء ووجهه مسود من الغيظ لكنه حاول في البداية إنهاء الموضوع بطريقة سلمية ودون خسائر فادحة ..

وبناء على أوامره المشددة أسرعت الأم إلي غرفة ابنتها لتوقظها لمقابلة أبيها :

" مروة .. مروة .. بت يا مروة ! "

كررت الأم مضطربة خائفة وهي تحاول إيقاظ ابنتها ، التي سهرت طويلا تذاكر في الظاهر، وتكتب قصة في الباطن :

" أيه .. أييه يا ماما .. بتصحيني ليه ؟! "

سألت مروة والنوم لا يزال يغلق عينيها تماما :

" أصحي .. قومي يا أختي .. أستلقي وعدك .. أبوكي جه ! "

" أيه ؟! "

هبت " مروة " من رقدتها وكأنما لدغتها عقرب ، وفارقتها رغبة النوم تماما وشعرت بخفق مؤلم في قلبها وبرودة في معدتها :

" أيه ده .. جه دلوقتي ؟ مقلناش يعني أنه جاي الليلة ؟! "

كانت تبدي دهشتها أكثر مما كانت تتساءل وتستفسر ، لكن الأم كانت أشد اضطرابا وجزعا منها :

" أهوه ده اللي حصل بقي ! طب فجأة زي القضا المستعجل .. وشكله ناويلك الليلة .. خديه بالمسايسة ٢٥ بقي وقوليله حاضر ونعم .. خلي ليلتك وليلتنا دي تعدي على خير! "

هرشت " مروة " رأسها وجمعت شعرها الطويل الهائش في إيشارب ملون صغير وهتفت :

" أيوه بس .. "

لم تعطها الأم فرصة لإكمال ما تود أن تقوله ، بل جذبتها من ذراعها المتراخي وقالت لها محذرة :

" أوعي تعاندي معاه بقي ليفش غله فيكي .. أنت عارفة أبوكي وعارفة طبعه والنبي يا بتي تعديها على خير.. يا رب يا رب ! "

لم تكن " مروة " قد رأت أمها خائفة ومضطربة مثلما رأتها الليلة .. وأحست وهي تترك أمها تقودها إلي حيث يجلس أبيها مستسلمة أنها تُقاد لتحاكم وتعاقب ، وكأنهم وجدوها في وضع خليع برفقة رجل ، وليس لمجرد أنها قررت لنفسها نوع الدراسة التي تحبها والتي تلائمها .. ناس غرباء تفكيرهم غريب ، والتعامل معهم يحتاج لحنكة وصبر وطول بال .. وجلد طويل لا ينتهي!

كان الأب قابعا في غرفة الجلوس ، التي أشعلت الأم أضواءها الكهربية كلها ، جالسا على كنبة بلدي ممددا قدميه أمامه ، وبينهما وضعت حقيبة سفر صغيرة سوداء اللون ، لها حزام جلدي عريض تتوسطه توكة معدنية ، ويتدلي على جانبها الأيسر قفل صغير يغلق طرفي سحاب معدني طويل ذو لون نحاسي ..

كان وجهه مكفهرا وبين يديه سيجارة مشتعلة يلوكها باضطراب ويمصها بلا تركيز ، وهو لم يكن مدخنا شرها أصلا .. وعلى منضدة قصيرة الأرجل أمامه وضعت له الأم كوبا من الماء الصافي وطبق فاكهة متوسط الحجم ممتلئ بعينات من كافة فواكه الموسم ، وبجانب الطبق مطفأة زجاجية سميكة وأخري صدفية متماثلتان في الحجم تقريبا ..

دخلت الأم وهي تداري اضطرابها وتحاول تصليح وضع شالها الذي أنزلق من فوق كتفيها وتهدلت أطرافه حتى وصلت إلي ما فوق ركبتيها بقليل .. وخلفها ظهرت " مروة " .. مضطربة خائفة ناعسة ومتهيئة للعدوان اللفظي القاسي الذي تعرف أن أبيها سيمارسه عليها الآن فور أن تقع بين يديه !

ومن ناحيته كان الأب مستعدا لهذا العدوان التي تتخيله ابنته ، بل وربما لأكثر منه ، إن زين لها شيطانها تحديه أو رفض الرضوخ لأوامره التي سيفصح عنها حالا .. لكنه قرر أن يبدأ بالحسنى ويعالجها باللين والترغيب قبل أن يلجأ للأساليب العنيفة التي لا يريد ، خاصة مع فتاة ناضجة ، أن يستخدمها أبدا !

" تعالي يا مروة ! "

قال الأب بطراوة وملاينة عندما وقعت عيناه على ابنته الخائفة اللائذة بحمي ظهر أمها المنحني برعب .. تقدمت الفتاة داخل الغرفة حتى حاذت أبيها الجالس ونظرت لعينيه بخوف !

(٣)

كثيرا ما سمعتهم يقولونها بلا حياء من خلف ظهرها :

" البت القردة ! "

بعضهم كان يقولها مزاحا أو استظرافا .. وبعضهم الآخر كان يقولها صادقا من قلبه ، والبعض الثالث لم يكن يقصد معناها الحرفي ، لكن الكلمة كانت تخرج من فمه معطرة بالحقد والغضب .. والسبب إن " إسراء " كانت مختلفة !

لقد ولدت لتجد نفسها مختلفة .. ليست كأي بنت عادية .. فلقد خرجت إلي الحياة قزمة !

كان جذعها وأربعة أطرافها متناسقة متماشية معا ، لكنها كانت أقصر كثيرا من الحجم الطبيعي للطفل العادي الوليد في مثل عمرها .. فزعت الأم حين تلقتها على يديها عقب ولادتها وقالت لها احدي النسوة المحيطات بها وهي تمصمص بشفتيها بطريقة سخيفة :

" كله بأمره يا بت الناس .. ما تقهريش نفسك يا أختي ! "

وكأنها دعوة مستترة لها لكي تقهر نفسها حتى تصاب بالمرض وتموت .. لماذا هي دونا عن كل خلق الله ؟!

ولماذا ليست هي دونا عن كل خلق الله أيضا .. سؤالان متعادلان والجهبذ الذي يملك إجابة السؤال الأول يمكنه ببساطة أن يجيب عن الثاني .. هذا إن كان يعرف الجواب أصلا !

لكنها طفلتها في كل الأحوال .. فهل ستتخلي عنها وتلقيها في الشارع مثلا ؟!

محال طبعا .. أخذتها في حضنها وقبلت جبينها المحمر .. ألقمتها الثدي فتناولته بلهفة وسرعان ما كانت ترضع وتروي ظمأها الوجودي الذي لن ينطفئ أبدا ..

الأم " أحلام " التي كانت مبللة بالعرق الناتج عن حزق الولادة وآلامها ومتاعبها نظرت لطفلتها ، التي لا تدري شيئا عما يدور حولها ، وابتسمت لها برقة : " متخافيش يا ضنايا ! "

لماذا اختارت أن تحادثها وهي تعرف أنها وليدة في ساعاتها الأولي ولن تفهم أبدا ما يقال لها .. ليست ابنة مريم لتحادثها في المهد لتعي كما وعي ابن مريم وتكلم في مهده !

لكنها ليست بحاجة إلي أن تكون نبيا لتفهم .. تلك الطفلة التي كُتب لها أن تأتي بهذا الشكل فهمت ما يدور حولها ، فهمته مبكرا جدا ووعت أنها مختلفة .. وأنها تعتبر ناقصة ، وأنهم ينتظرون منها أن تكون قليلة الحيلة ناقصة عاجزة ولا يتوقعون منها غير ذلك .. اعتبرتها الأسرة (بلوى) رسميا ولم يتحدثوا عنها أبدا .. حتى فرحة السبوع حُرمت منها ، هي وأمها ، فقد أبت الجدة أن تقيم حفل سبوع لابنة ابنها الأولي وقالت مقطبة لزوجة ابنها :

" سبوع أيه يا أمي ؟! أنت عايزة الناس تيجي تتفرج على القردة اللي أنت والداها لنا دي ! "

كانت تلك أول مرة يطلق عليها هذا اللقب الذي سيلازمها طويلا ، وربما لنهاية عمرها ، (القردة) .. مع أنهم اختاروا لها اسم " إسراء " لكن الأطفال لم يكونوا ينعتونها أو يتحدثون عنها إلا باسم (القردة) !

لكن (القردة) كبرت .. نعم ظلت أقل كثيرا من متوسط الطول عند لداتها من الأطفال في كل مراحلها ، لكنها بدأت تكبر .. كان هناك أمل ضعيف يراود الأم أن تزيد قامتها طولا مع تقدمها في العمر ، وأن تصبح على الأقل

(قصيرة) .. لكن هذا الأمل البارق سرعان ما خاب .. فعندما وصلت " إسراء " إلي سن الخامسة كان طولها يوازي ثلثي طول الأطفال الذين في نفس عمرها وربما أقل !

ورغم سخرية المحيطين بها فإن " أحلام " الطموحة أصرت على إدخال الطفلة القزمة إلي الحضانة ، رغم أن فكرة إلحاق الأطفال بمرحلة الحضانة لم تكن شائعة أو منتشرة في تلك الطبقات الإجتماعية .. والغريب أن الطفلة الموصومة بالقصر والقزمية كانت هي الوحيدة التي درست في الحضانة من بين كل أطفال أسرتها رغم أن الكثيرين قلن للأم :

" يا خيتي٢٦ دي لو راحت وسط العيال في المدرسة هيدوسوا عليها برجليهم من غير ما ياخدوا بالهم .. بلا وكسة .. أرزعيها جنبك وعلميها شغل البيت خليها تقضيكي ٢٧ وتقضي أخواتها ! "

كان هذا المصير المنتظر ل" إسراء " أن تكون خادمة لأسرتها ولأخوتها .. وكأنهم أردوا معاقبتها على أنها خُلقت مختلفة .. لكن الأم وحدها ، هي فقط ، كانت ملاذها وملجأها الآمن .. فلقد وقفت تجابه عن طفلتها وقالت بصوت عالي : " لا ! "

لا لمن أراد أن يعاقب طفلتها على ذنب ، وليس هو بذنب ، لم ترتكبه أصلا ..

لا لمن أراد أن يقصي البنت ويحرمها نور الشمس لمجرد أنها جاءت إلي الدنيا أقصر مما يجب !

ومن تلك اللحظة صارت " أحلام " هي القلعة .. القلعة الآمنة المحصنة المبنية بالحجارة الصلدة لتصد عدوان العالم كله على ابنتها .. حمتها وأصرت على رأيها .. أدخلتها الحضانة ومن بعدها المدرسة الابتدائية ليدرك الجميع أنهم أمام طفلة غير عادية فعلا !

ذكية !

نعم .. شديدة الذكاء .. تجلس هناك في آخر صف ، فقد ضربها الأطفال الكبار ذوي الأجساد الصحيحة وأمروها بأن تجلس في آخر تختة وإلا ضربوها حتى يعموا عينيها ، فانصاعت مضطرة .. وفيم يفرق معها المكان الذي تجلس فيه وهي تتمتع بذهن لامع متقد أينما جلست أو أينما حلت !

وللأسف لم يكن أحد يعرف حقيقة قدرات الطفلة القزمة ، سوي أمها ، حتى دخلت الصف الثالث الابتدائي .. حينها أرسل الله لها من سيكون له أعظم الأثر في حياتها !

مدرسة !

مدرسة غير عادية كانت تجرب التدريس لأول مرة في حياتها المهنية البادئة لتوها .. خريجة جامعة شابة ، لكنها طموحة ولامعة العقل .. كانت هي الأخرى تعاني من لعنة شبيهة بلعنة " إسراء " فقد ولدت بحالة عرج خفيف ..

كان بالإمكان التغاضي عن عرجها ، لكنها قررت أن تتناساه تماما .. تعلمت حتى وصلت إلي الجامعة وحصلت على مؤهلها الدراسي بتقدير كان جدير بضمان مستقبل مشرق لها في سلك التدريس الجامعي ، لولا الواسطة والمحسوبية والكوسة المصرية التي تعفنت على مدار آلاف الأعوام .. لكنها لم تيأس ، تلك الشابة الحلوة التي تنكز في مشيها لم تيأس .. عُرضت عليها فرصة التدريس فلم ترفضها ، وبين عشية وضحاها وجدت نفسها تنتقل من مقعد الدارسين إلي مقعد المدرسين .. ومن دور المسئول عنه إلي دور المسئول عن الآخرين .. أُعطيت فرصة لتكون هي كما أرادت دائما أن تكون وألقي بها ، بقليل من الشفقة ، إلي فصل مكدس بست وثلاثين طفل وطفلة .. في مدينة صغيرة وبلد كبيرة لا قيمة للإنسان فيها ، إلا كرقم على ورقة فإن مُحي الرقم

وبليت الورقة فلا هو موجود ولا أحد يبالي به .. وكهذا المبدأ بالضبط لم يكن أولئك الحفنة من الأطفال يهمون أحدا .. كومة من اللحم الصغير تنتظر من ينضجها على مهل ، لا من يسويها على الجانبين ويحرقها .. وعندما أتت " سناء " إلي الفصل كان الأطفال قد احترقوا أو كادوا بين حر الإهمال وحرارة انعدام الضمير.. المدرسة مليئة بالمدرسين لكنهم كقلتهم كانوا .. أغلبهم يأتي إلي المدرسة فقط ليوقع في دفتر الحضور والانصراف ، ويختلق أي عذر بعدها للزوغان والانصراف مبكرا .. أو يقضي بقية اليوم الدراسي جالسا أمام الفصل ، الذي يهيص فيه الأولاد الصغار ويتسلون بضرب بعضهم بعضا ، ممسكا عصاه ولا عمل له إلا أن يصرخ فيهم بين الفينة والفينة :

" بس يا واد .. بس يا بت ! "

أما أن يعتبر هذا (الواد) وتلك (البت) مسئولية ملقاة على عاتقه سُيحاسب عليها عاجلا أو آجلا ، أمام سلطان الأرض أو سلطان السماء ، فشيء لا يدخل في حسابات أغلب أولئك المدرسين الأفاضل .. وماذا تفعل قردة صغيرة منبوذة ك" إسراء " في هذا الوسط ؟!

ليس عليها إلا أن تتحمل وتتلقي الضربات من هنا وهناك ، وتظل صامتة وإلا نالها المزيد من العدوان .. وتنتظر حتى تنصرم أيامها لتصعد عام دراسي جديد وتنتقل إلي فصل آخر ربما وجدت فيه خيرا بانتظارها .. لكن وعندما جاءت " سناء " تبدل كل شيء في فصل ٢/٣ الابتدائي ..

ومن حسن الحظ إنها تسلمت العمل في بدايات الفصل الدراسي الأول لتجد فرصة كافية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .. ولكن ما الذي يمكن إنقاذه وسط هذا الحطام المحترق !

إن أغلب تلاميذ الفصل ، الذين درسوا عامين في نفس المدرسة والمفروض أنهم اجتازوا مقررات صفين دراسيين كاملين ، لم يكونوا يحفظون الحروف الأبجدية حتى !

ثلاثة أو أربعة أطفال فقط وسط كل هذه الجحافل من التلاميذ يحفظون الألف باء .. ولم تكن تلك هي المصيبة فقط .. الكارثة كانت في المستوي الخلقي المنخفض ، بل المنعدم ، لأغلب أولئك التلاميذ .. لم يكن هذا ذنبهم وحدهم فقد جاءوا من بيوت تطعمهم وتسقيهم وتكسوهم ، وتشتري لهم الكتب والكراريس والأقلام والمساطر ، ثم تدفعهم إلي المدرسة لتتولي تربيتهم وتعليمهم .. أغلبهم كانوا صبيانا شرسين ذوو مناظر وأخلاق شكسة ، وزاد الطين بلة أن المدرسة كانت مشتركة مما دفع أولئك الغلامان ، الذين لا يكادون يفقهون حديثا ، إلي المبالغة في إظهار العنف والجسارة رغبة في الحصول على إعجاب البنات ، النسوة الصغيرات ، رغم أن معظم أولئك الأولاد كانوا يفعلون ذلك بطريقة غريزية ودون أن يفقهوا معني أولاد وبنات وجنس آخر وخلافه .. وفي تلك الظروف وجدت " سناء " نفسها !

وجدت نفسها شابة طموحة محبة لعملها ولها آمال عريضة في مدرسة متخصصة في وأد آمال الناس صغارا وكبارا ، وتحطيم أحلامهم وهدم قصور المني فوق رؤوسهم ..

قيل لها : لا تصدعي رأسك .. لا تتعبي نفسك معهم .. هم صبية فاشلين ولا فائدة ترجي من ورائهم .. أسحبي كرسيا وأجلسي وأقرئي ودعيهم يرددون ورائك .. ومن فهم فليفهم ومن لم يفعل فليذهب إلي .. أمه !

هكذا ؟!

طيب !

لكن من قال أن هكذا يرضيها أو يحقق طموحاتها .. إنها تفهم ما يدور حولها جيدا وتعيه .. إنهم ثلة من الساخطين الناقمين !

مدرسات جاهلات بلا ملعقة ثقافة واحدة تملأ رؤوسهن الفارغة ، ولا هم لديهن سوي التحدث عن الأزواج والأولاد ومتاعب الحمل والولادة (الواد اللي مش راضي يتفطم) و(البت اللي داخل عليها دم وتملي عيانة) .. ولا يفكرن سوي في مرتب يقبضنه آخر الشهر ، وهن غير راضيات ولا قانعات ليساهمن مع أزواجهن ، الذين هدتهم مسئوليات البيوت الثقال ، في النفقات وتحمل مطالب المعيشة الصعبة ، والتي لا تفتأ تزيد صعوبة يوما بعد يوم ، وعاما أكثر من الذي قبله .. أما المدرسون الرجال فهم لا يقلون كراهية لكل ما حولهم عن النساء .. وكزميلاتهم من المدرسات كانوا يئنون تحت مطالب بيوتهم ونسائهم وأولادهم .. والمرتب هو منية حياتهم ومدار تفكيرهم ، ولا هم لديهم سوي السؤال عن الحوافز والبدلات والقضية المرفوعة من عشروميت سنة من أجل الحصول على بديل نقدي للوجبة وزيادات شهر ٧ المنتظرة وهكذا وهكذا ..

لكن ماذا عن التلاميذ ؟!

فليذهبوا إلي الجحيم يا أخي .. خاصة وأن من حاولوا تكسير الصنم ودفع الطلاب لكي يحبوا المدرسة والعلم والتعليم ، وحاولوا أن يفعلوا شيئا مختلفا .. من لديهم بقية ضمير ، من لديهم بقية حب لهذا البلد ، من يعرفون معني أن تكون مسلما بحق أو مسيحيا بحق ، هؤلاء أنهار الصنم فوقهم وردمتهم أتربته ، وصاروا يعانون من مشاغبة الطلاب وعنادهم من ناحية ، واستغلال بقية المدرسين لجهدهم من ناحية أخري ومحاولة زحلقة كل عمل عليهم .. فالحصص الاحتياطية الثقيلة لا تكون إلا من نصيب الفئة العاملة

ذات الضمير الحي ، أما البقية فيجلسون في الطرقة العريضة ملوكا يشربون الشاي .. أي بيئة هذه يعمل وينتج فيها الإنسان ؟!

لكن الصحراء الجرداء أحيانا ما تلبث أن تفاجئنا بما يختبئ تحت أديمها الجاف من كنوز .. هناك أمل ؟!

نعم هناك بالطبع .. وقد بدأت بوادره تظهر بمجرد أن وصلت " سناء " إلي تلك الفلاة التعليمية المنقطعة النظير..

فقد قررت أن تعطي ، تعطي ولا تنتظر ، ولذلك سرعان ما أخذت في المقابل وبدأت الثمرة المرة تحلو بين يديها .. أدركت منذ البداية أنهم ليسوا إلا أطفالا .. صغار لم يهتم بهم أحد كما يجب ، ولم يعاملهم كما يجب ، ولم يعطهم حقهم كما يجب .. يُضربون في البيوت ، يُقذفون إلي الشوارع ، يُتركون بلا علم ولا توجيه ، لا أحد يعطيهم كتابا لينظروا فيه ، ولا أحد يعلمهم نشيدا حلوا ليرددوه .. ليسوا وحوشا أبدا ولا مشاريع مجرمين .. إطلاقا !

إنهم ثمرة زُرعت ثم بخل عليها راعيها بالسقي فظمئت .. لكن ما إن تمتد إليهم يد حانية بالماء حتى يرووا ويخضروا وتزهر ثمارهم وتتفتح زهورهم عطرة ندية ..

تركت المناهج العقيمة جانبا ، فماذا تجدي الكتب المكدسة بالمعلومات والتلاميذ لا يعرفون كيف يكتبون أسمائهم أو يتهجوها ؟

ولأننا في بلد تسير على رأسها رافعة قدميها إلي أعلى فقد كانت كتب الصف الثالث الابتدائي تصلح ، تماما ، لطالب في الصف الثالث الإعدادي .. بلا مبالغة ولا فصاحة زائدة .. كيف يدرس أولئك الأولاد الذين لا يعرفون هجاء حروف لغتهم الأم الثمانية والعشرون دروسا كاملة مكونة من عشرة أو خمسة عشر سطرا !

أغباء هذا أم تغابي ؟!

لا يهم أيهما .. المهم أنها قررت أن تعمل على مسئوليتها الخاصة .. طرحت كتب الوزارة جانبا وطلبت من كل طفل كراسة واحدة وقلم رصاص وعلبة ألوان !

أهذا كثير .. ولا حق الله .. لكن أغلبية الطلاب أتوا في اليوم التالي بأيديهم فارغة !

غريب هذا منهم فقد كان لديهم بالطبع عشرات الكراسات والأقلام الملونة في بيوتهم وحقائبهم كانت عامرة بها .. صحيح أن أغلبهم كان يأتي بحقيبة فارغة ، أو بها بضع كراريس قذرة مكرمشة وأقلام متكسرة بروها حتى نحل وبرها وتقصفت سنونها وجأرت إلي الله بالشكوى منهم .. لكنهم كانوا قادرين على تنفذ طلب مدرستهم الجديدة الصغيرفلماذا امتنعوا إذن ؟!

في الحقيقة فإن هذا الموقف الغريب أتخذه أغلب تلاميذ ٢/٣ لكن ليسوا كلهم .. بالتحديد عشرة منهم نفذوا وجاءوا بكراسات جديدة وأقلام ملونة .. أما " إسراء " فقد شعرت بالفرحة لحديث المعلمة المثير للبهجة معهم بالأمس ، وظلت تزن على أذني أمها حتى أعطتها خمسة جنيهات كاملة ، فاشترت كراستين وعلبة ألوان خشب صغيرة بل وبراية خضراء جميلة كذلك .. ووقفت الأبلة " سناء " أمام الفصل وسألت التلاميذ بوجه منشرح :

" ها يا حلوين .. مين فيكم اللي جاب الحاجات اللي قلنا عليها إمبارح ! "

وبغض النظرعن الكلمة نفسها التي لم تكن منطبقة على أغلبية تلاميذ هذا الفصل المشاغب .. فإن أغلب (الحلوين) نظروا إليها بعيون متسعة متحدية ، ولم يرفع سوي أقل من ثلث تعداد الفصل أيديهم قائلين بسعادة الطفل حين يستشعر التميزعلى غيره من الأطفال :

" أنا .. أنا .. أنا ! "

كانت " إسراء " أول من رفع يده في الفصل ، وكانت تجاهد بساعدها القصير ليظهر كفها مرفوعا من خلف رؤوس الأولاد الكبار الطوال القامة الذين احتلوا بالذوق أو بالعافية المقاعد الأمامية كلها .. نظرت " سناء " حولها متأملة وجوه التلاميذ المعرضين وقد بدأت تفهم حقيقة الأمر .. إنها لعبتهم الصغيرة من أجل تطفيشها !

بلهاء !

يظنون إنها ستستسلم بسهولة ومن أول جولة .. لكنها كالت لهم ببراعة الضربة الناعمة القوية :

" خلاص يا حبايبي ولا يهمكم .. أصلا اللي مجابوش الحاجات اللي قلنا عليها مش هيشاركوا معانا في النشاط وهيقعدوا في الفصل لوحدهم ! "

زاط الأطفال المطيعين فرحا بتفوقهم المنتظر وبالنشاط الذي سيشاركون فيه ، والذي لا يعرفون عنه شيئا بعد .. بدأت " سناء " توضح لهم ما سيفعلونه :

" إحنا دلوقتي هننزل الجنينة ونعمل حلقة ونكتب على الأرض ! "

" هييييييييييييييي ! "

زاط الأولاد ثانية بينما بدأت وجوه الممتنعين تضرب إلي اللون القاتم وبدأ بعضهم يصر على أسنانه ..

لم تضيع المدرسة الهمامة وقتا كانت تعرف أن تأجيل تنفيذ الوعد ولو للحظة واحدة قمين بتعكير صفو الأطفال ، وإطفاء نار حماستهم .. لذلك فورا وجهت أمرا محببا :

" يلا .. هاتوا شنطكم وتعالوا ورايا .. الباقيين بقا يقعدوا في الفصل ورئيس الفصل هيوقف عليهم ! "

" هييييييي ! "

صاح الأطفال فرحا وقد استشعروا نوعا من لذة الانتقام من الجبابرة العتاة في الفصل الذين اعتادوا ضرب الصغار الضعفاء وإذلالهم .. حملت " إسراء " حقيبتها ، وهرعت تتسلل بين الأقدام حتى وصلت إلي مقدمة الفصل حيث تقف الأستاذة تجمع حقيبتها وحاجياتها من فوق منضدة المدرسين لتتقدم أطفالها في رحلتهم القصيرة خارج الفصل المعتم ..

وصلت " أسراء " أخيرا إلي حيث تقف معلمتها بعد رحلة شاقة بين الأطفال الذين كادوا يدهسوها ، بقصد أو بدون قصد .. ومدت يدها الصغيرة القصيرة لتمسك بيد معلمتها .. ألتفتت " سناء " التي كانت مشغولة بتنظيم الأولاد في صفين ، احدهما للبنات والآخر للصبيان ، لتجد تلك الصغيرة القزمة تتعلق بيدها بشكل عاطفي غريب .. تمعنت في ملامحها الغريبة فأحست بأضلعها تدر حنانا لها .. تلك الطفلة تحتاج إلي الحماية وقد جاءت تلتمس منها الحماية !

" دي القردة جايه معانا أهي ! "

قال أحد الأولاد مستظرفا فضحك معظم الأولاد بينما ظل القليلون صامتين .. أما " إسراء " فقد تبللت عيناها بالدموع سريعا .. ليس لأن الإهانة والتعيير قد لحقا بها ، فهي تتلقي الإهانات كل دقيقة وفي كل مكان ، لكن تلك المرة كان وقعها مختلفا عن كل مرة .. فقد شعرت أن معلمتها ، التي أحبتها من أول نظرة ومن أول جملة سمعتها من بين شفتيها ، قد تحرمها من جنة قربها إن تبنت نظرة الأطفال والناس الآخرين لها .. قزمة قصيرة ضئيلة لا قيمة لها ! قردة !

هل يمكن أن تناديها " مس سناء " يوما قائلة لها :

" تعالي يا قردة ! "

ذلك الخاطر الذي مر كالبرق في ذهن " إسراء " هو الذي دفعها للبكاء ، وهو الذي بلل عيناها بالدموع :

" تعالي يا حبيبتي ! "

لم تكن " سناء " قد حفظت أسماء تلاميذها بعد بالطبع وسقط اسم " إسراء " من رأسها حينما حاولت استدعائه لتناديها به :

" نعم ! "

قالت الفتاة الصغيرة وهي تقترب من معلمتها التي جثت على ركبتيها ، وفتحت لها ذراعيها .. لم تصدق البنت نفسها فرمت بنفسها كصخرة صغيرة فوق صدر معلمتها وأخفت رأسها الضئيلة في حضنها!

تساقطت دموعها حينما لمست حنان المعلمة عليها .. رفعت " سناء " رأس طفلتها وقبلت شعرها القصير المفلفل الذي جمعته أمها لها بصعوبة بثلاثة توك على جانبي وفي نهاية رأسها ، ثم ابتسمت لها قائلة :

" عايزة تيجي معانا يا حبيبتي ؟! "

هزت الطفلة رأسها فورا بحماس فسألتها المعلمة ثانية :

" أنت جبتي الحاجات اللي قلنا عليها ؟! "

بحماسة أشد رفعت البنت الحقيبة القماشية التي تعلقها بشريط في رقبتها ، وفتحتها بلهفة شديدة .. ونقبت بداخلها حتى أخرجت الكراستين وعلبة الألوان والبراية وعرضتهم على المعلمة وهي تبتسم :

" شاطرة شاطرة يا حبيبتي .. يلا هاتي أيدك ! "

مدت " إسراء " يدها بلهفة وقبضت على كف معلمتها وهي لا تكاد تصدق نفسها .. بينما وقفت المعلمة على قدميها معتدلة وقالت للتلاميذ الواقفين يكملون جمع حاجياتهم :

" شفتوا زميلتكم شاطرة إزاي .. جابت حاجات أكتر من اللي قلنا عليها وكمان جابت ألوان جميييلة قوي .. يلا نسقف لها ! "

بدأ بعض الأطفال الودعاء يصفقون فورا .. أما الصغيرة السعيدة فقد وجدت نفسها ، كفرخ صغير تائه وجد عشه أخيرا ، تلتصق بمعلمتها أكثر وتمد رأسها لتخفيها في ساقها المغطاة بجيبة رمادية أنيقة بسيطة !

*****

يوما بعد يوم بدأ بعض التلاميذ المشاغبين يستجيبون .. كان هذا صعبا في البداية وربما محالا بالنسبة للبعض .. لكن الإصرار دائما ما يكافأ بالنجاح .. نجحت " سناء " ، ولو قليلا ، في إنقاذ بعض الطلاب من براثن وغياهب النظام التعليمي الفاشل الذي كُتب عليهم أن يعيشوا أساري له مدي الحياة .. أحب الأطفال حصص الفناء جدا .. وحتى الطلاب المناوئون الشرسون عادة بدؤوا ينصاعون ويجلبوا معهم صباحا كراساتهم وألوانهم وأدواتهم المختلفة ، معلنين عن رغبتهم في الاشتراك في اللعب والتعلم في حديقة المدرسة .. كانت حديقة المدرسة في الحقيقة مقلب زبالة وليس حديقة أبدا !

فالفراشون، الذين يوجد منهم اثنان في المدرسة، تعودوا أن يجمعوا القمامة، بعد أن يقوموا بكنس المدرسة، هذا إن كنسوها من الأساس، ويكدسوها أكواما فوق أكوام في الحديقة الجدباء المقفرة.. ثم يبدءون في حرقها ! طبعا كان هذا أمرا اعتياديا في المدرسة ، بل في معظم المدارس ، ولا أحد يستهجنه ولا يتحدث عن خطورته على صحة الأطفال والعاملين بالمدرسة ولا شيء من هذا القبيل .. وحتى إن فعلها أحد وتكلم منتقدا فسيكون رد الفعل الطبيعي المكرر :

" آمال يعني نودي الزبالة فين يا حضرت .. ناكلها ؟! "

وبالطبع لم يكن الأمر ذنب أولئك العمال فقط ، فهم ليسوا إلا خيوطا منسلة في قماشة متهرئة بالفعل .. لكن ماذا يمكن أن تفعل مدرسة مجدة ك" سناء " عندما تجد نفسها ، ومعها معظم فصلها ، ذات صباح وهم مندمجون تماما في حصة اللعب والكتابة وشخبطة الحروف الهجائية بالألوان وإذ بسحابة قاتمة من الدخان الخانق الحارق كريه الرائحة تحلق فوقهم ؟!

تسكت طبعا مثلما يفعل الآخرون .. فهي لن تعدل الكون وحدها ، فالكل هنا يؤمنون بأنه لا يمكنهم تعديل الكون لذلك يشاركون بحماسة منقطعة النظير في تخريبه أكثر وأكثر!

لكن حتى ذلك الاستسلام السهل العبيط الذي يستمرئه أغلب الناس ويستسهلونه لم يكن من السهل على المدرسة الجديدة الركون إليه .. تركت أطفالها جالسون فوق العشب القليل المتناثر بعد أن أمرتهم بلهجتها اللطيفة بتلوين حرف الراء جيدا بعد أن قاموا برسمه مزدوجا تمهيدا للانتقال لتلوين كلمة (رمل) التي كتبوها بخطوطهم القلقة غير المتمكنة بعد ، وكل منهم يحاول أن يجعل خطه أجمل من خط غيره ، وكلمته أوضح وأكثر جمالا من كلمات الآخرين .. اتجهت ببطء ناحية الفراش الذي كان يشرف على احتراق كوم القمامة وهو واقف ببرود يدخن سيجارة كريهة الرائحة ككومة القمامة تماما وربما أكثر:

" يا عم " مصطفي " العيال أتخنقوا من الدخانة ! "

أخرج السيجارة من فيه بعظمة ونظر إليها وكأنه لا يراها فعلا :

" معلش يا أبلة .. أصل الزبالة كترت وأتحوشت ولازم نحرقها ! "

سألته بحذر:

" وهو أنتوا لازم تحرقوها ؟! "

" آمال يعني نوديها فين ؟! "

اقترحت بشطارة : " ما تحطوها في أكياس وتدوها لعربية الزبالة لما تيجي أحسن من الخنقة دي ! "

ضحك ووضع سيجارته في فمه مرة أخري ، وأخذ يتكلم وهي تهتز بين شفتيه : " قلبك أبيض يا أبلة ! عربية زبالة أيه .. هو في عربيات زبالة أصلا بتعدي النواحي دي ؟! "

وكان الرجل محقا بالفعل .. فلا توجد وسيلة أخري للتخلص من القمامة هنا سوي حرقها .. وحتى إن كانت توجد واحدة لما فكروا في تجربتها .. لأن الحكمة البليغة التي عليها عاشوا وعليها يموتون تقول لهم بصراحة : عيش عيشة أهلك !

لم تجد " سناء " ، التي لا تعرف كيف تعيش عيشة أهلها ، أمامها إلا حل واحد لإنقاذ تلاميذها ، وإنقاذ نفسها ، من الموت اختناقا .. وهو أن تجمع الأطفال وتعود بهم إلي الفصل !

الغريب في الأمر أنه في الأيام التالية وكلما نزلت المدرسة الجديدة بفصلها إلي الحوش يشتعل كوم القمامة على الفور وتتصاعد منه الأدخنة الخانقة في توقيت مضبوط دقيق مثير للريبة !

بعد بضع أيام بدأت " سناء " تدرك حقيقة الوضع .. ذهبت إلي المدير تشكو إليه العامل فنظر إليها ببرود وقال لائما مؤنبا :

" ما هو الحوش مش ملكك لوحدك يا أبلة .. والأساتذة بيشكوا منك ! "

كانت هذه أول مرة تسمع فيها " سناء " أن أحدا يشكو منها ، فشعرت بالدهشة وأرتفع حاجباها راسمين علامة استفهام واضحة .. نهرها المدير بلطف وخبث قائلا : " الأساتذة بيقولوا أنك محتلة الحوش أنت والعيال

بتوعك ومش عارفين ينزلوا فصولهم حصص ألعاب ولا حاجة .. مينفعش كده يا أبلة الفناء ده للمدرسة كلها ! "

ردت عليه فورا فقد كان دفاعها واضحا وجاهزا :

" بس إحنا مش بناخد الحوش كله .. بنقعد على جنب في حتة صغيرة والحوش كله بيبقي فاضي واللي عايز ينزل ينزل إحنا ما منعناش حد ! "

هز السيد المدير رأسه نفيا فقد مل الحديث في هذا الأمر لمدة دقيقة ونصف ، ووجد هذا أكثر مما ينبغي :

" مينفعش فصلين ينزلوا مع بعض في نفس الوقت عشان العيال بتضرب بعضها وبيشاغبوا مع بعض .. وأنت عيال فصلك صغيرين وفي فصول في الإعدادي بيبقوا عايزين ينزلوهم ومبيعرفوش عشان حضرتك قاعدلهم بعيالك بتوع تالتة ابتدائي تحت وسادة عليهم الطريق .. والعيال الكبار لو نزلوا على عيالك هيطحنوهم طحن ! "

تعجبت " سناء " مما تسمع ، وأخذت تحاول شرح الأمر للمدير لكنه لم يعطيها الفرصة لذلك .. هو ناقص وجع دماغ ؟

" بصي يا حاجة " سناء " إحنا مش ناقصين وجع دماغ .. حصصك تاخديها في فصلك..ولو الموجه بتاعك جه هيقولك إن اللي بتعمليه ده غلط!"

ارتسمت علامة الاستفهام مرة أخري على وجه "سناء" وهمت بالاعتراض لكن المدير نهرها متظاهرا بالمزاح :

" خلاص خلصنا .. على فصلك يا أبلة لو سمحتي .. "

ثم أمسك هاتفه المحمول وطلب رقما من قائمة الأرقام المسجلة عنده وهتف مازحا :

" أيوه يا حاج " ممدوح " أزيك .. والنبي وأنت جاي تجيب لنا معاك شوية سندوتشات .. سلطة وطعمية .. أيه ؟ أيوه من عند الراجل بتاعنا .. "

لم تطق " سناء " الاستمرار في متابعة المحادثة الشيقة فاستأذنت بدون كلام وهرعت خارجة من مكتب المدير!

*****

أصيب أغلب الأطفال بالإحباط بعد انقطاع حصص الكتابة والتلوين في الحوش .. لكن الطفلة الصغيرة " إسراء " قالت لمعلمتها بصوتها الرفيع الغريب :

" معلش يا مس ممكن نرسم ونلون هنا ! "

ضحك أحد الأطفال المشاغبين ثم هتف وهو يحرك حاجبيه مغيظا :

" صح يا قردة ! "

صمتت " إسراء " وتحركت دمعة في زاوية عينها .. كان الأطفال قد توقفوا ، تقريبا ، عن مناداتها بتلك الكنية البغيضة منذ أن نهرت الأستاذة أحد الأطفال وعنفته بشدة لاستخدامه هذه الكلمة القبيحة في وصف زميلته .. وأخذت وعدا من جميع طلاب الفصل بألا ينادوا " إسراء " بتلك الكلمة مرة أخري أبدا .. جذبت " سناء " الطفلة الدامعة بجوارها وقبلت رأسها ثم طلبت من الولد الذي أستخدم كلمة القردة أن يقف :

" مش قولنا بلاش الكلمة دي يا " محمد " قبل كده ؟! "

ضحك قليل من الأولاد بينما أضطرب الولد المسمي " محمد " وأخذ يتلعثم ويعتذر:

" معلش يا أبلة .. أنا .. أنا آسف ! "

كانت ثقافة الاعتذار من الأشياء التي وجدت المعلمة صعوبة حقيقية في زرعها في أذهان طلاب ٢/٣ لكنها تمكنت من غرس البذرة على الأقل في النهاية:

" خلاص يا حبيبي .. بس متقولش الكلمة دي تاني لو سمحت ! "

أحمر وجه الولد وهتف بصوت منخفض وبلهجة معتذرة حقيقية :

" حاضر ! "

أجلسته المدرسة ثم بدأت تخاطب الفصل محاولة طمأنتهم بأن الحصص التي أحبوها وتعلقوا بها في الفناء لن تفوتهم تماما ولن يحرموا منها حرمانا كاملا :

" بصوا يا عيال أنا عارفة إنكم زعلانيين عشان حصص الحوش هتوقف شوية .. بس أنا أحب أطمنكم .. متخافوش دي فترة مؤقتة بس لحد ما ينضفوا الحوش ويزرعوا فيه شجر وورد .. ولغاية ما ده يحصل إحنا هنلون وهنرسم هنا وهنعمل كل الحاجات الحلوة اللي أنتوا بتحبوها ! "

زاط الأولاد وهيصوا وصفقوا وهللوا ، بما فيهم " إسراء " التي رفعت رأسها الصغيرة وهللت ببراءة :

" هيييييييي !"

*****

مرت بضع أيام حاولت فيها " سناء " إقناع المدير بالسماح لها باستئناف حصص الكتابة في الفناء .. لم يقتصر نشاط المدرسة المجدة على تلك النقطة لكنها ، وفي نفس الوقت ، كانت تسير في طريق آخر أكثر تمهيدا وسهولة ، فقامت بتقسيم طلاب فصلها إلي مجموعات جديدة ووضعت الطلاب المجتهدين وسط الطلبة الضعفاء والمشاغبين ليحفزوهم على العمل .. كان لديها في الفصل ست تلاميذ تحديدا تعتبرهم أكثر الطلاب نشاطا واجتهادا .. أولهم كان الولد " أسعد " الذي جعلته على رأس المجموعة (أ) ، ثم البنت الجميلة " هناء " ذات الشعر البني الرائع والوجه المستدير الناعم وهي التي تولت قيادة المجموعة (ب) ، طالبها المحبب " أندرو " كان قائدا

للمجموعة (ج) ، و" هشام " للمجموعة (د) ، " سلمي " للمجموعة (و) وأخيرا المجموعة (ي) التي اختارت المس لقيادتها الفتاة " إسراء " !

" إسراء " الصغيرة التي لا يكاد طولها يبلغ نصف طول زملائها الآخرين صارت قائدة مجموعة .. لم يعلن طلاب المجموعة (ي) عن مشاعرهم وإن كانت علامات التذمر قد بدت على وجوه خمسة منهم .. كيف تقدم المدرسة تلك القزمة عليهم ؟!

كان هذا التقسيم يشبه إلي حد بعيد مجموعات التعلم النشط ، لكن الأستاذة " سناء " كان لديها تصور آخر مختلف تماما عن الأمر .. أعلنت للطلاب أن هذه المراكز القيادية ليست نهائية ولا دائمة :

" كل واحد فيكم ممكن يكون قائد مجموعة .. لو اشتغلت وأنجزت أكتر من كل زملائك اللي معاك في مجموعتك هتبقي أنت قائدهم في الأسبوع الجاي أو اللي بعده ! "

فرح كثير من الأولاد المستبعدين من مراكز قيادات المجموعات .. وبدا أن البعض قد أساء الفهم حقا ، لأن طالب مشاغب من المجموعة (أ) مد يده ولكم قائدهم " أسعد " في وجهه معتقدا أن هذه هي المقومات المطلوبة في القيادة .. أن يكون بلطجي لا يشق له غبار!

أوقفته المس غاضبة ووجهت إليه عبارات لوم وتأنيب دون إسراف .. أفهمته أن العمل والإنجاز الذي تقصده هو الاجتهاد والجد والتقدم الدراسي وليس العدوان والضرب وتبادل اللكمات !

سمع الولد بأذنيه وسكت وبدا عليه أنه إما أنه أقتنع ، وإما أنه لا يجرؤ على مقارعة المدرسة التي صارت لها ، شيئا فشيئا ، هيبة وكلمة مسموعة لدي أغلب التلاميذ .. بدأ العمل خلال خمس دقائق !

أمسكت " سناء " بقطعة طباشير وكتبت عبارة (أنا تلميذ مجتهد) بخط كبير مجرور عبر السبورة .. ثم ألتفتت إلي التلاميذ وأمرتهم بلطف قائلة:

" يلا يا ولاد .. كل واحد يطلع كراسة الحروف بتاعتنا ويكتب الجملة دي زي ما أنا كاتباها .. وبعدين هنلون سوا .. اللي ميعرفش يكتب حاجة يقولي وأنا هجي أساعده ! "

بدأ التلاميذ العمل .. بعضهم يعمل في صمت وهدوء ، والبعض الآخر يتعمد إحداث قدر من الضجة والهرجلة يزيد أو ينقص .. لكن المهم أنهم جميعا يعملون أو يتظاهرون بذلك .. كانت " سناء " كقارئة مثقفة تدرك حقيقة مهمة ، أن تظاهر الطلبة المشاغبين ولو كذبا بأنهم يعملون فيه خير كثير.. فذلك التظاهر معناه أنهم يرغبون في الاندماج في الجو العام الحماسي المحيط بهم ، وأن سورة عنادهم وتحديهم لها قد انكسرت أو كادت .. لذلك أخذت أعداد المصرين على عدم إحضار أدواتهم معهم صباحا تقل وتقل حتى كادت تتلاشي .. صحيح أنه لا زال هناك بعض المشاغبين المعنادين ، لكنهم قلوا حتى كادوا يضمحلوا .. الأهم أن عنادهم صار من النوع الخفي الحميد .. عناد طفولي محض وليس عناد عتاولة يدمنون الظهور بمظهر الكبار البلطجية !

تحسنت الأمور إذن وفي وقت قياسي .. رحمك الله أيتها المخلصة الشريفة وأكثر من أمثالك !

*****

كان اليوم يوم اثنين والمدرسة هادئة تماما .. ليست هادئة بمعني هادئة بل بمعني أن كل الأمور تسير في أعنتها المعتادة .. فوضي في كل ركن في المدرسة الحكومية الممتازة !

أغلب الفصول فارغة من المدرسين ، الذين وجد كل منهم لنفسه ببراعة حجة لغيابه عن فصله وترك التلاميذ بمفردهم في حجرات الدراسة .. أما التلاميذ ، وقد وجدوا أنفسهم كالخيل الجامحة محلولي القيود ، فقد انهالوا على بعضهم ضربا ولطما وفشا الخصام لأقل الأسباب بينهم .. الأقل عدائية منهم انشغلوا في الرغي ورمي قشور اللب أو أكياس الشيبس الفارغة على بعضهم .. بعض المدرسين الذي يتمتعون بموهبة الابتكار تخلصوا من العبء من جذوره ، وأزاحوا طلاب فصولهم على الحوش ، كقطيع من الخراف يطاردها راعي مجنون مهمته تطفيشها وليس رعايتها والحفاظ عليها ..

قليل من الفصول التي بقيت تحت مدرس حازم يرعي ضميره كان الطلاب فيها لا يكادون يسمعون شيئا من عنف الضجة حولهم في الفصول الخاوية من الرعاة .. أفلتت أعصاب بعض المدرسين الذي يعملون في فصولهم ، فخرجوا ممتشقين عصيهم وذهبوا إلي الفصول التي تركها مدرسوها يصرخون في الطلاب ، بل ويسبونهم أحيانا مطالبين إياهم بالإقلاع عن ضجتهم المهولة .. ثم بدأ المدرسون يتدفقون على مكتب المدير شاكين بعضهم وكل منهم يلقي باللائمة على الآخر .. وبينما المدير يجلس في مكتبه كجمل المحمل يكاد كرشه الكبير ينفجر من عظم ما تراكم داخله من شحوم تعالت الضجة وأخذ بعض المدرسين يتبادلون عبارات اللوم والتأنيب :

" مش عارفين نشتغل منكم يا عم ! "

" الدنيا هايصة والعيال مش سامعة حاجة .. ما تلموا عيالكم شوية ! "

" فصل الأستاذ " محمد " فاضي ! "

" راح فين بسلامته ؟! "

" سايبهم البيه وقاعد في الطرقة بيشرب حلبة ! "

" ليه هو والد ولا أيه .. كل يوم حلبة حلبة ! "

" لا ومغات كمان ! "

" ده على كده بيرضع بقي ! "

أنفجر البعض ضاحكين والمدير يتابعهم وهو يدور بكرسيه بسعادة ويرمقهم صامتا :

" يا حضرة المدير مينفعش كده .. لازم يكون لك وقفة مع المدرسين المهملين دول ! "

" والله ما حد خاربها غير النسوان ! "

كانت تلك حجة كثير من المدرسين الرجال .. فكل مصيبة تحدث في المدرسة لابد أن سببها هو المدرسات السيدات ، رغم أنهم لم يكونوا يقلون إهمالا ولا انعدام ضمير عنهن !

غضبت الأستاذة " سعاد " ، التي كانت تقف أمام مكتب المدير تقدم له إجازة اعتيادية لمدة ثلاثة أيام ليوقعها لها ، ونظرت إلي المدرس خفيف الدم الذي يلقي باللائمة على زميلاتها المدرسات في إحداث الفوضى بالمدرسة قائلة :

" لا اسم الله عليكم أنتوا اللي مقطعين السبابير٢٨ من كتر الشغل .. يا راجل ده أنت بالذات مبتدخلش فصلك غير من الموسم للموسم ! "

ضحك البعض لتعليق أبلة " سعاد " ، بينما تدخل آخرون في الحوار اللطيف .. وحدثت مجادلة طويلة أنصبت على نقطة بالغة الخطورة .. من المتسبب في الفوضى داخل المدرسة المدرسات أم المدرسون .. الست (اللي هي مش كمالة العدد) أم الرجل الذي هو سيد البيت ؟!

طبعا كان هذا هو كل ما يعني الطرفين .. من السبب .. أما الحلول فلم تكن تلزمهم بقرش وليس من المتوقع أن يقدموا على وجع أدمغتهم بالتفكير فيها أو البحث عنها !

المدير كرجل شرابة خرج محترم لا يهش ولا ينش لم يكن له في تلك المجادلة سوي شيء واحد .. أن ينهر الجميع مطالبا إياهم بأن يعاملوا ربنا ويحللوا القرش الذي يقبضونه آخر الشهر!

احتدمت المناقشة التي لعب فيها المدير دور ضابط إيقاع ، مهمته توجيه النغمة النشاز ، وحشرها حشرا وسط بقية النشوز لتبدو في النهاية السيمفونية مقبولة شكلا مرفوضة عقلا وضميرا وخلقا .. وعد الجميع بأن يلتزموا بجداولهم وحصصهم ثم خرجوا من لدن صاحب النهي والأمر ليفعل كل منهم ما يحبه .. عاد المتنطعون للوقوف أمام فصولهم يتحدثون أو يدفعون الطلاب للدخول إلي الفصول عنوة ، ودون أن يكلفوا خاطرهم بإعطائهم حقهم من التعليم والتوجيه والتدريس الحق .. القلة القليلة من المدرسين ذوي الضمائر وجدوا أنفسهم في خضم بحر هائج لا يعرفون كيف يمكنهم أن يعملوا فيه كما يفعل الناس .. فلجئوا إلي آخر حل لديهم .. إغلاق أبواب فصولهم محاولين صنع جو من الهدوء المصطنع لعلهم يحظون بوقت نافع مع تلاميذهم !

ورغم ارتفاع درجات الحرارة نسبيا في ذلك اليوم .. إلا أن الأستاذة " سناء " وجدت نفسها مدفوعة إلي إغلاق باب الفصل لتتفادى الأصوات المرتفعة القادمة من كل مكان حول حجرتها الدراسية .. وأيضا لقطع الطريق على الطلاب الذين يجلسون في مقدمة الفصل ، والذين لا عمل لكثير منهم سوي أن يرموا بأبصارهم خارج الفصل متابعين بتركيز كل من يتحرك جيئة وذهابا ، وكأنهم لأول مرة يرون بشرا .. أستعاد الفصل قدرا من هدوئه وعاد الطلاب للتلوين .. لكن لم يمضي سوي أقل من ثلث الساعة قبل أن تُباغت المدرسة النشطة بالباب يُدفع والمدير يبدو على عتبته غاضبا منتفخ الوجه !

" أيه الهرجلة اللي أنتي عاملالنها دي يا أبلة ؟! "

صرخ فيها مقررا حقيقة لا طارحا سؤال ، وبدا أنه عثر أخيرا على الفأر الذي يدعبس ٢٩ في أنحاء المدرسة ويقضم الخبز والجبن المحفوظة في دولاب الخزين ..

كان الطلاب الذين يجلسون على هيئة مجموعات قد هبوا واقفين عند دخول المدير ، لكن المربي الهمام بدا أنه لا يراهم .. فقط يري المقاعد التي تغير نظامها وتحولت لما يشبه الموائد المستديرة :

" أيه الفوضى دي يا أبلة ؟! "

بح صوت " سناء " لفرط اضطرابها من مفاجأة دخول المدير من ناحية ، وللهجته المتهمة الهجومية من ناحية أخري .. شعرت بأنها محاصرة ومطالبة بنفي تهم عن نفسها فقالت بصوت مبحوح :

" دي مجموعات يا حضرة المدير ! "

لم يفهم المدير شيئا ، أو فهم وتظاهر بأنه لم يفعل ، لكنه رد مهاجما القلعة على الفور بغية إسقاطها بضربة واحدة بدلا من الحصار الطويل :

" مجموعات أيه وهباب أيه ! عيالك عاملين دوشة في المدرسة وقالبين دماغ الكل ومحدش عارف يشتغل من هوستهم ٣٠ "

اتسعت عينا " سناء " دهشة !

لم يعطيها المدير فرصة لإبداء دفاعها ، الذي كان جاهزا وواضحا ونقيا كماء طهور فهو يعرف أنه لو ناقشها وجادلها فسيظهر جهله هو لا إهمالها هي:

" التخت دي ترجع زي ما كانت .. مش قاعدين في حضانة بنلعب إحنا !"

همت " سناء " بالكلام لكنه صرخ في الأولاد ظاهريا وفيها هي في الواقع :

" يلا يا واد منك له .. قوم رجع التخت زي ما كانت ! "

نفد صبر المدرسة خاصة مع تحزب التلاميذ بجوارها ، بعد أن لم يبدي أي منهم أية طاعة لأمر المدير وقالت له بأدب :

" يا حضرة المدير دي اسمها مجموعات ودي حاجة اسمها التعلم النشط دي حاجات أتدربنا عليها وواخدينها في أساسيات التدريس الحديثة!"

" مفيش كلام من ده .. ده مسمهوش تعليم ده اسمه لعب عيال وهزار.. فين كتبك يا واد منك له ؟! "

كانت تلك الخطوة التي توصل إليها عقل المدير القاصر من أجل إثبات أن المدرسة المبتدئة التي تقف أمامه تعطيه محاضرة في أساسيات التعليم وتقارعه الحجة بالحجة مجرد فتاة جاهلة فاشلة ، تقضي حصصها في اللعب مع العيال بدلا من تعليمهم .. لم يكن هناك كتاب مدرسي واحد على مناضد الأولاد !

" الله الله .. فين كتب العيال دي يا أبلة ؟! دي حصة أيه دي ؟! "

نظر المدير إلي السبورة فوجد عليها تاريخ اليوم الميلادي والهجري وأسفلهم خط ثم عنوان الحصة (حساب) .. إذن فهي حصة حساب وعلى ذلك :

" فين كتب الحساب يا واد وفين كراريسكم ؟! "

لم يكن هناك كتب حساب مطلقا أمام الأولاد ، ولم يكن على تختهم سوي كراسات مربعات رسموا فيها أرقاما مزدوجة وكانوا يعكفون على تلوينها عندما قاطعهم السيد المدير بهجمته العنترية الشجاعة :

" الله الله .. فين الكتب اللي العيال شغالين فيها يا أبلة ؟! "

وجه إلي " سناء " السؤال بقسوة فردت عليه فورا :

" إحنا مش شغالين من الكتب ! "

أرتفع حاجبيه دهشة وهتف :

" هو أنت شغالة على مزاجك ولا أيه .. مش فيه منهج المفروض تمشي عليه ؟ فين تحضيرك ؟! "

كان المدير يريد أن يري دفتر التحضير الخاص بالمدرسة ، التي يبدو أنها لا تقوم بمهامها كما يجب .. التقطت " سناء " الدفتر وقدمته إليه .. كانت كمدرسة فصل تعلم الأطفال اللغة العربية والحساب والدين للتلاميذ المسلمون .. تناول المدير الدفتر واخذ يقلب فيه وهو لا يكاد يفهم شيئا من طريقة التحضير التي يراها مرقومة أمامه في الصفحات ذات الأحرف السميكة الملونة .. إنه يري عشرات من طرائق التحضير مع مدرسي الفصول ، ومدرسي اللغة العربية والرياضيات والدراسات واللغة الإنجليزية ، والعلوم والتربية الفنية .. وكل تلك الطرق يجمع بينها كلها في ذهن المدير عامل مشترك واحد فقط .. إنه لا يفهم شيئا منها كلها !

لم يضيع المدير وقتا كثيرا في تقليب الدفتر بل أمر المدرسة الشابة في شيء من الحدة : " فين تحضير النهاردة .. الحصة دي فين ؟! "

كان يقصد تحضير الدرس المقرر أن تعطيه للتلاميذ هذه الحصة ، وقد فهمت ذلك فورا فتناولت الدفتر من بين يديه ، وفرته سريعا حتى وصلت إلي الصفحة المقصودة وعرضتها على المدير.. كان الدرس المقرر ، فرضيا ، اليوم هو الجمع بإعادة التسمية !

لم يفهم المدير معني العنوان لكن كل ما كان يعينه هو أن عنوان الدرس ، كما هو واضح ، لا علاقة له بما تفعله المدرسة في الفصل ولا بما تجعل التلاميذ يقومون به !

زعق بغضب :

" فين كراريسكم ؟! "

جاءه بضعة تلاميذ بكراساتهم فنظر إلي الصفحات التي كانوا يعملون عليها فوجد فيها أرقاما ملونة وقص ولصق لكن لا مسائل ألوف ولا ٢١٤٨+١٤٣٥ = *****.

تغيرلون المديروقال وكأنه أمسك المدرسة متلبسة ببيع المخدرات :

" أيه ده يا أبلة .. تحضيرك في ناحية وأنت شغالة في ناحية تانية خالص .. مماشياش حسب المنهج ليه إن شاء الله ؟! "

كانت تلك فرصة "سناء" لكي تنبري دفاعا عن وجهة نظرها ، وقد قررت أن تهتبلها ولا تتركها تضيع :

" يا أستاذ " فايز " العيال مش حافظين الأرقام ولا بيعرفوا يقروا فوق العشرين حتى هياخدوا مسائل فيها ميات وألوف إزاي .. مش لازم يبدءوا بالأساسيات الأول ! "

لم تكن تسأله قدر ما كانت تكاشفه بجهله ، وجهل واضعي المناهج الذين سموا المولود مأمون قبل أن يحبلوا به أصلا .. لكن الأستاذ " فايز " لم يكن يفقه شيئا من تلك البديهيات المنطقية التي يعرفها كافة خلق الله ولا ينفذ أغلبهم منها شيئا :

" أنا مليش دعوة بالفلسفة دي يا أبلة .. أنا لي منهج ومقرر تشتغلي عليهم وتمشي معاهم غيركده هحولك للتحقيق !"

يا نهار أسود !

تحقيق ولما ؟!

" ليه تحقيق ؟! "

تساءلت " سناء " بوجه ممتقع ، فهي تواجه التهديدات الوظيفية لأول مرة في حياتها .. ولا تعرف أن التهديد بالتحويل للتحقيق في المدارس المصرية

نوع من التماحيك ، وزيادة جرعة الشطة من أجل أن يسخن الحوار فقط وينتهي كما يريد من يشهر سلاح التحقيق أولا :

" عشان بتخالفي مقتضيات وظيفتك .. أنت وظيفتك أيه هنا .. عقدك اللي مضتيه في الإدارة التعليمية بيقول أنك بتشتغلي أيه ؟! "

طبعا كان السؤال ليس بحاجة إلي إجابة :

" مدرسة فصل ! "

ردت "سناء" بدهشة غير دارية أن المدير لا يستجوبها بقدر ما يؤنبها ويذمها :

" طيب ومدرسة الفصل دي بتهبب أيه .. بتدي للعيال أيه ؟! "

" عربي وحساب ودين إسلامي ! "

رفع المدير ذراعيه إلي أعلى وكأنه يستمطر السماء وهتف مغتاظا :

" يعني أديكي عارفة إنك ملزمة بكتب الوزارة ومناهجها .. ليه بقي تشتغلي من دماغك وتدي العيال حاجات غير اللي المنهج مقررها عليهم ؟! "

امتقع وجه " سناء " رغم أن الثقة كانت تملؤها لعدم تعودها على الاستجواب الطويل من قبل أحد ، خاصة لو كان رئيسها في العمل ويملك لها الثواب والعقاب .. أجابت محاولة شرح وجهة نظرها التي كانت صائبة تماما :

" يا أستاذ " فايز " العيال مبيعرفوش يقروا ويكتبوا ولا بيعرفوا يقروا الأرقام الكبيرة ولا يكتبوها .. دول حتى مش حافظين جدول الضرب ! "

بلا مبالاة كاملة رد المدير فورا :

" عنهم ما عرفوا يكتبوا ولا يتنيلوا ! أنت هنا تدرسي اللي الوزارة مقرراه واللي يفهم واللي ميفهمش عنه ما فهم ولا فلح .. إحنا هنا ملزمين بواجبات محددة .. المنهج والمنهج وبس ! "

كانت وجهة النظر الغريبة هذه قد سمعتها " سناء " مرارا من زملائها وزميلاتها المدرسون والمدرسات ، لكنها لم تكن تصدق أن هذه النظرة الباردة

اللامبالية يمكن أن تكون مستقرة في عقل ووجدان أكبر سلطة إدارية في المدرسة .. فإذا كان رب المدرسة بالدف ضارب فهل يلوم أحد المدرسون ، الذين يعملون تحت إمرته ، إن هم انغمسوا في وصلة رقص جماعية هستيرية!

كانت تلك صدمة بالنسبة ل" سناء " .. لكن السيد المدير لم يعطيها الفرصة لابتلاعها بل عاجلها بالثانية فورا مسددا إليها ضربة أصابت طموحها وجدها في مقتل :

" أنت تشتغلي زي ما المنهج بيقول وخلاص .. الأسبوع اللي جاي هزور فصلك تاني ولو لقيتك متأخرة عن المنهج هتصل بالموجه بتاعك وهو يشوف شغله معاكي ! "

وضع دفتر تحضيرها على المنضدة الصغيرة المغطاة بمفرش بلاستيك ملون أحضره الأطفال الفرحون ، وزينوه بمزهرية صغيرة بها ورود صناعية معطرة .. ثم أتجه نحو باب الفصل وفتحه .. ألقي نظرة أخري على السبورة ووجوه الأطفال القلقة ، وإن كان أغلبهم لا يدركون ما يحدث بالضبط بحكم سنهم الصغير، ثم قال مهددا متوعدا بلهجة صارمة :

" التخت دي ترجع مكانها دلوقتي .. هبعتلك واحد من العمال عشان يشيلك التخت والمقاعد !

(٤)

مضي شهران على مولد البنت الثالثة .. شبت الطفلة الجميلة بسرعة وكبرت وأينعت كزهرة وتفتح جمالها الوردي أكثر فأكثر كلما نضجت .. لحقت الثالثة بأختيها وصرن ثلاثتهن كحبات لؤلؤ صغيرة ينتظمهن عقد منثور تفرقت حباته في سائر أنحاء البيت .. على وعد بأن تلتئم ، ويجتمع شملهن حول لعبة صغيرة ، أو حول فيلم كرتون لا تفهمه سوي " شيماء " الكبيرة وتشرح لأختيها الصغيرتين ماذا يحدث فيه بالضبط قدر ما تفهمه بعقلها الصغير.. أو حول طشت الغسيل يعبثن بالماء والرغوة العالية ويجربن تقطيع أرغفة الخبز ، مثلما يرين أمهن تفعل يوم الخبيز ، بالرغوة المرتفعة ويفشلن في كل مرة في حمايتها من التساقط من بين أصابعهن ، ليخرج رغيف الصابون في النهاية مقطعا ممزقا إلي أشلاء .. فارت البنات وكبرن أما " نعمة " ، الأم ، فقد أخذت تذبل وتبهت وصارت كقطعة لحم مقددة باردة !

لم ينفذ " عبد الرحيم " تهديده ولم يأتي لها بضرة لتنجب له الولد .. ليس لأنه تراجع أو نكص على عاقبيه ، لا سمح الله ، بل لأنه لم يجد من ترضي به أصلا وتقبل أن تكون زوجة ثانية له !

ولم يكن هذا مستغربا .. فماذا يكون هو ؟!

مجرد رجل أرزقي يتعيش على قليل من البضائع والفواكه التي يبيعها في دكانه الصغير ، ولا مال ولا وظيفة له ، وفوق هذا وذاك معلق برقبته خمس نساء .. أم وزوجة وثلاثة بنات ؟!

فمن هي المجنونة التي يمكن أن ترضي به أو تقبل أن تشاطر خمس نساء البيت واللقمة وربما الفرشة !

ومن ناحية أخري فقد تشدد جنابه في مطالبه .. كان يمكنه أن يحصل على زوجة ثانية لو أنه تنازل ، وقبل أن يتزوج بمطلقة أو أرملة شابة فقيرة .. لكنه ، وظنا منه أنه " شهريار " زمانه الذي ما إن يعلن رغبته في الزواج مجددا حتى تتساقط الصبايا الحسان تحت قدميه راجيات العفو سائلات النعمة ، أصر على الحصول على زوجة عذراء لم يسبق لها الزواج لأنه ببساطة يؤمن أن المطلقة أو الأرملة ليست إلا .. فضلة رجل آخر !

نفاية يمكن أن يكون لها مكان في أي داهية من العالم إلا في بيته وفي فراشه !

أمر مثير للضحك بقدر ما هو مثير للشفقة على العقول التي أجدبت وضحلت كصحراء بلا حياة .. من جانبها كانت أم " عبد الرحيم " ، التي ذعرت بسبب مرور الأشهر المتوالية دون أن يدخل ولدها بعروس جديدة ، راحت تحاول جاهدة العثور له على العروس البيضاء التي لم يسبق لها الزواج ولم يبني بها إنس ولا جان من قبل !

لكنها لم تجد إلا عانس في عامها السادس والثلاثين .. جميلة نعم .. لكنها في عمر لخصته الأم بدقتها الخربة :

" إن جابت ولدة مش هتجيب التانية ! "

بمعني أنها في عمر يصعب جدا أن تحمل وتلد فيه ، فإن حملت مرة فمن شبه المستحيل أن تفعلها ثانية .. فماذا إذن لو أنها أنجبت بنتا رابعة له في المرة الأولي هل يبحث له عن زوجة ثالثة تأتيه بالولد ؟!

طبعا رفضت الأم الفكرة وتعكرت خلقتها ، أكثر مما هي عكرة .. كانوا يجلسون لتناول العشاء والبنات يلعبن في كل شيء وبكل شيء و" نعمة " تجلس " واضعة يدها على خدها تأكل بصمت ، ولا تبذل أي جهد لإثناء بناتها عن التخريب .. أما " عبد الرحيم " فلم يكد يشبع ويحمد ربه على اللقمة

الهنية حتى سحبته أمه ، التي تجلس بانتظاره مترقبة كالصقر ، إلي غرفتها لتصفي المسائل المعلقة معه .. كانت قد عثرت في الحقيقة على عروس مناسبة له لكنها مطلقة ومعها طفلة في الثالثة من عمرها !

كان الزوج غير مستعد إطلاقا لسماع مثل هذه الاقتراحات بقبول زوجة من صنف سبق استخدامه من قبل .. الأم لم تكن تفهم الأمر على جليته .. فقد كانت تعتقد أن ولدها باختصار مدلل يريد عروسا أخري كعروسة الأولي يكون هو رجلها الأول والأخير!

الحقيقة أن " عبد الرحيم " كان يعتقد أن الزواج بامرأة كانت ذات بعل من قبل ينتقص من رجولته ويهينها !

فهو ككثير من رجال الشرق ، ليس كلهم بالطبع ، يعتقد أن المرأة التي تزوجت قبله ، أو عرفت رجلا لا تستحق نعمة أن يضمها إلي جناحه فقد كان يجب أن تنتظره هو.. هو وليس أحدا آخر قبله ولا بعده !

أما الأم ، الحماة ، التي لم يكن يعنيها سوي أن تزوج ولدها ثانية من أجل الولد والسند والعزوة والذكور ، فلم تكن تهتم بحرف من كل هذا الهراء .. وما المشكلة في أن يتزوج مطلقة ذات بعل سابق ولديها طفلة واحدة لا غير؟!

" هو أنا هربي بنات الغير كمان ؟! "

مصمصت الأم بشفتيها وقالت مؤكدة مطمئنة :

" البت هتفضل مع ستها ٣١ ومش هتيجي عندك هنا ولا هتشوفها .. اتفقت مع أم العروسة على كده ! "

ضحك ساخرا مستهينا وهتف :

" عروسة ؟! "

فاض الكيل بالأم فقالت له مهددة :

" هو أنت عامل نفسك مين يا واد ؟! واد مين أنت في البلد.. ما تتواطي شوية خليك تجيب الواد وتفرح بيه ولا عايز تفضل طول العمر يقولولك يا أبو شيماء ؟! "

أجفل " عبد الرحيم " من الفكرة وقال وقد بدأ يخضع قليلا :

" طاب ما هي خلفتها بنات أهي كمان .. وممكن تروح ترزيني ٣٢ بكام بت تاني غير اللي عندي ! "

فرحة قالت الجدة :

" لا لا متخافش .. هما كلهم كده يبكروا بالبنات وبعد كده يبجيبوا الولاد فوق بعض ما شاء الله .. دا أمها جابتها وجابت فوق راسها ست رجالة ما شاء الله ! "

طرب قلبه لذكر الرجال والأولاد الذكور وهتف متسائلا :

" طاب ودي هترضي بعيشتنا وهترضي تقعد مع " نعمة " والبنات ؟! "

" ما ترضاش ليه ما هما عارفين كل حاجة وأمها قالت لي كده .. وبعدين دول ما صدقوا ! "

" ليه يعني .. مش لاقيين لها اللقمة ؟! "

" لا لا بس أنت عارف .. حريم الخوات٣٣ ودي تشد مع دي ودي تغير من دي ، ودي واحدة مطلقة والناس ممكن تمسك سيرتها لو طلعت ولا دخلت .. فقالوا يجوزوها ويستروها أحسن من قلنا وقالوا ! "

في تلك المرحلة كان " عبد الرحيم " ، العريس ، قد بدأ يتخيل شكل العروس الجديدة فسأل أمه متلذذا :

" وهي شكلها أيه يا أمايا ؟! "

حركت الأم ذراعيها لتشخلل بالأساور المصنوعة من الذهب الصيني التي تملأ بها ذراعيها وقالت بخبث :

" حلوة يا واد وبيضا وزي القمر.. وكمان خالتها قالتلي أن شعرها واصل لنصها ! "

وهنا داهمت العريس حيرة مؤلمة :

" طاب لما هي كده آمال جوزها سابها ليه بقي .. لا تكون معيوبة ولا فاجر٣٤ ولا حاجة ! "

" لا لا استغفر الله .. دي ست الناس كلهم ! النصيب يا ولدي .. عيشهم مع بعضهم خلص لحد كده وإن شاء الله تكون من نصيبك ويجعلها قدم السعد عليك وعلينا وتجيب لك بدل الواد عشرة ! "

أنتهي الجدال أخيرا وأستسلم " عبد الرحيم " .. وبقي الجزء الأصعب في تلك الليلة الطويلة .. إخبار" نعمة " بما عزم عليه وإقناعها بالرضوخ !

*****

تناولوا العشاء صامتين وهناك غيمة غير منظورة تخيم فوق الرؤوس .. جلس " عبد الرحيم " وأمه متجاورين يتبادلان النظرات المتآمرة المتواطئة ، ويتحدثان حديثا صامتا بالعيون وبالنظرات المختلسة .. أما " نعمة " فقد جلست صامتة تطعم البنات ولا تكاد تأكل شيئا وترقب ، وهي تتظاهر بأنها لا تفعل ، المجادلة الصامتة بين زوجها وحماتها وتتسقط من نظراتهما ما يريدان الإفصاح عنه .. البنات كن في حالة مرح وصخب ، فأخذت " شيماء " و" مروة " تتبادلان قذف بعضهن بفتات الخبز وقطع الطرشي الصغيرة .. بينما " أسماء" الصغيرة تضحك ، وهي فوق حجر أمها ، وتحاول الزحف بعيدا لتصل إلي أختيها وتشارك في تلك اللعبة المحببة ..

لولا يدي أمها اللتين تحوطانها لتمنعاها من الزحف والحبو، لأنها كفيلة بقلب الصينية كلها وأطباق الطعام بأصابعها الرفيعة الشقية التي لا تكف عن العبث .. وكانت تلك أول مرة تجتهد البنات في اللعب والعبث دون أن تنهرهن الجدة أو يشخط فيهن الأب .. فالجدة من ناحيتها راغبة في ألا تفسد الليلة بإغضاب " نعمة " ، التي لا تتحمل الهواء في بناتها ، حتى تذعن لزوجها عندما يخبرهما بما عزموا عليه .. كانت الحماة تخشي من أن يتصلب دماغ زوجة ابنها ، وتعاند رافضة أن تشاركها ضرة في زوجها ، ولم يكن رضاها نفسه أو عدم رضاها يعني " أم عبد الرحيم " في شيء ، لكنها تعرف أن ولدها لا زال يحب زوجته ولا زالت غالية عليه .. ولعله في النهاية يخاف من موقفها ، ويخشي أن تنكد علي عيشه فيتراجع عن موضوع الزيجة الثانية كلها جلبا للسلامة .. أما الأب فقد كان يشعر بالذنب نحو زوجته ونحو بناته الصغيرات .. كم كان يتمني لو أن " نعمة " أعطته الولد بدلا من كل هذا المشوار الطويل الصعب الذي يتحتم عليه

أن يمشيه الآن ليحصل على لقب أبو فلان !

ولكن هل هذا بيدها .. ولا بيده هو أيضا ؟!

تلك مسألة يصعب عليهم أجمعين فهمها أو التسليم بها !

كانت " نعمة " تحس بما هو آت .. صحيح أنها وبعد مولد ابنتها الثالثة كانت واثقة من أن ثمة شيء سيحدث ، شيء سيحزنها ويؤلمها ، خاصة عقب حديث حماتها المتشدد معها صبيحة يوم الولادة .. إلا أنها كانت تعتقد وتتمني أن يتراجع زوجها عن رأيه .. يدرك خطأه ويتراجع عنه بل ويأتيها معتذرا طالبا العفو والمسامحة لأنه فكر في أن يتزوج بغيرها وعليها

.. لكن وعندما أخذت الشهور تمر ، وبدأت تحس ، حتى وإن لم يخبرها أحد ، بمحاولات زوجها وحماتها التي تتم سرا ومن تحت لتحت ، للعثور على عروس له ، بدأت مشاعرها تتغير نحوه تغيرا مثيرا للدهشة .. ألم يعتبرها ماعونا يحمل ويلد ؟!

فلتعتبره هي أيضا محفظة يعمل ويأتيها بالنقود لتأكل وتطعم بناتها !

أليست تلك مبادلة عادلة .. أليس ذلك هو العدل المطلق ؟!

*****

جلست على السرير وربعت قدميها .. كانت ترتدي إيشارب ذو لون أزرق مخطط بخطوط بيضاء رفيعة ويتدلي رأسها بين كتفيها فبدت كهيئة الثكالي الحزانى بالضبط .. نامت الفتيات الثلاثة بعد لأي وهجعت هي محاولة النوم لكنها كانت تعرف أنه سيأتي الآن .. سيأتي ليغسلها ويشطفها ويزيل أقذاره ويلقيها عليها .. سيخبرها بأنه سيتزوج عليها !

تري .. كيف ستستقبل الخبر ؟!

كيف سيكون وقعه عليها حين تسمعه بأذنيها ؟!

لا زال الأمر في مرحلة التهديد والتلويح والوعيد والوعد بالتنفيذ .. لكن ماذا حين يبدأ التنفيذ فعلا ؟!

كيف ستتلقى خبر زواجه بامرأة أخري ؟!

ارتعدت للحظة حين سمعت صوت باب الغرفة وهو يُفتح .. تماسكت عندما رأت وجهه يطل عليها

قائلا بلهجة ودودة :

" مساء الخير يا نعمة ! "

رفعت رأسها المجلل بتاج الحزن الأزرق وهمست ساخرة بمرارة :

" مساء الخيريا أبو البنات ! "

قصدت أن تذكره بأنه أبو البنات .. وبأن الثلاث بنات لسن بناتها لوحدها ولم تأتي بهم إلي الدنيا بمفردها .. فليتذكر هذا ليكون خيرا له !

" ممكن أدخل .. عندي كلمتين كده كنت عايز نتحدتو فيهم مع بعض ! "

ابتسمت ابتسامة باهتة وردت بخمود :

" أوضتك ومطرحك .. خير؟! "

" لا .. خيرإن شاء الله .. إن شاء الله خير! "

جلس بجانبها على السرير.. كانت تجلس في الوسط والمخدة الطويلة ، التي جاءت مع الفرش المنجد أثناء التجهيزلفرحها ، تسند أسفل ظهرها .. أما هو فقد أختار أن يجلس على طرف السرير.. ابتسم ابتسامة بلا معني وقال بود :

" البنات ناموا ! "

لم تجبه فهو رآهن نائمات حولها بالفعل وليس بحاجة إلي السؤال :

" نوم العوافي ! بقولك يا " نعمة " .. كان في كلمتين كده يا بت الحلال عايزين نقولوهم بس من غيرزعيق ولا صراخ الله يسترك ! "

همست متألمة وصوتها لا يكاد يُسمع :

" خير.. أمك لقيت لك عروسة ولا أيه ؟! "

سرت لمسة برد تحت جلده .. إذن فهي تعرف !

بالطبع تعرف يا أذكي رجال زمانك وهل نسيت صبيحة يوم مولد " أسماء" المشئومة ؟!

" طيب يعني أنت عارفة كل حاجة أهوه .. كده سهلتيها على وعلى روحك! "

ردت عليه بغلظة وقد شعرت بأن قسوة هائلة تندفع داخل صدرها تجاهه :

" طبعا عارفة يا أبو البنات آمال يعني فاكرني نايمة على وداني .. أمك لفت البلد بيت بيت تدور لك على عروسة وتلسن٣٦ على ! "

فاجأته بقية عبارتها فسألها مستفسرا باهتمام حقيقي :

" تلسن عليكي .. تقول أيه يعني ؟! "

دمعت عيناها .. كانت قد وصلت آخر حدود قدرتها على التظاهر بالقوة والبأس ، فأجابت بمرارة مبللة بالدموع:

" بتلف ع البيوت تقول للحريم إني نحس وش شوم عليك وأن قدمي ناشف .. وبتقولهم إنك عايز تخلص مني وتاخد البنات ، بس بعد ما ربنا يرزقك باللي تأمانها على بناتك وتجيبلك الواد ! "

هل قالت أمه ذلك فعلا ؟!

" هي قالت كده من صح ؟! "

سالت دمعة صغيرة من زاوية عينها فسارعت بمسحها بظهر يدها وكبت بقية الدموع التي توشك أن تسيل .. لن تعطيه الفرصة ليراها ضعيفة أو خائرة !

ردت عليه بقسوة واتهام لا يقبل دفاعا ولا محاماة :

" طبعا قالت .. آمال يعني بتبلي عليها ؟! وطبعا الكلام ده مش جايباه من راسها ! "

نظر إليها " عبد الرحيم " للحظة متحيرا غير فاهم لما تعنيه .. ثم أدرك أخيرا أنها تلقي باللائمة عليه وتتهمه بالإيعاز إلي أمه بترديد هذا الكلام :

" آمال يعني جايباه من راس مين يا بت الناس ؟! متمشيش ورا كلام النسوان الخباصة .. لا أنا ولا أمي ممكن نطلع الكلام ده من حنكنا ولا نفكر فيه ! "

أغلقت القضية الآن ولا سبيل أمامها لتصديق أي من إدعاءاته :

" وحتى لو قلت أنت ولا هي .. متفرقش ! "

قطب وسألها بحذر:

" متفرقش إزاي يعني ؟! "

استدارت لتواجهه :

" يعني أنت فاكر إني هقعد لك على ضرة ؟! والله يوم ما تجيبها ما أقعد لك فيه لا أنا ولا بناتي ! "

نعم .. هذا ما كان يخشاه وما كان عنه يحيد .. لقد تحققت مخاوفه !

" ليه بس كده يا بت الناس .. خلينا نتراضي مع بعضينا ونحل منعقدش .. وأهو الواد اللي هيجي إن شاء الله هيبقي أخو بناتك وسندهم لما أموت أنا واسمه لهم أخ راجل في ضهرهم ! "

" راجل في ضهرك أنت وضهر مرتك الجديدة ! ده أنا سبت تعليمي عشانك ! "

بدأت أخيرا تنزح من فيض مرارتها وتلقي في وجهه .. ماذا كان يظنها ؟! بهيمة ..

تقبل أن تُساق إلي الذبح وهي صامتة كتيس مشلول ؟!

" ما لوش لازمة الكلام ده ! "

صرخت فيه :" لا له .. آمال فاكرني هقولك أتجوز وأرقص في فرحك وأزغرتلك ! والله لو حاولت تخليني بالعافية ما أخليك تشوف ساعة عدلة ولأطربق الدنيا على نافوخك ! "

غضب الآن ونقحت عليه ذكورته :

" بصي أنا عايز الحكاية تيجي بالرضي ما بينا ومن غير مشاكل .. لكن لو هتعندي يا بت الناس أخبطي دماغك في الحيطة ! "

" مش هخبط يا ولد عبد النعيم .. وهتشوف مين اللي هيخبط دماغه في الحيطة أنا ولا أنت ! "

صعبت عليها نفسها الآن وانحسرت موجة الشجاعة الهائلة التي ظللتها للحظات .. انهارت باكية وأخذت تنتحب .. وفي مشهد مأساوي حقا أخذت تبحث عن منديل تجفف بها دموعها فلما لم تجد شيء بقرب يدها خلعت الإيشارب التي تلبسه على رأسها لتنشف به عيناها .. أستدر منظرها شفقة زوجها .. وهو واقف لدي الباب يرقب المرأة الغالية الباكية المنهارة تذكر فجأة ما حري به إلا ينساه أبدا .. تذكر أنه يحبها !

يحبها منذ أن رآها في مريلة المدرسة وهي في الصف الثالث الإعدادي .. قال لأمه حينها :

" مين البت الحلوة دي ؟! "

لم يكن يعرفها جيدا رغم أنهما أولاد خال وعمة .. فقد ذهب خمسة أعوام برفقة أبيه عمل فيهم في السعودية عاملا في البناء ، وتركها صبية صغيرة أقرب لكونها طفلة .. لكنه عاد ليجد في لقاءه امرأة صغيرة حسناء ذات قد متناسق وملامح جميلة اهتزلها قلبه وجوانحه !

تذكر نفسه وهو يقلد (بتوع التليفزيون) فيسهر واضعا بقربه المسجل الصغير وهو يسمع عليه

أغاني " عبد الحليم الحافظ " الرومانسية .. ويستنشق عبير كلماته وهو يتذكر ملامح " نعمة " الجميلة .. لكم أحبها في تلك الأيام ولكم تمناها لنفسه !

إنه حتى لم يطق صبرا عندما أدخلوها المدرسة الثانوية .. لم يطق صبرا وظل يتوسل إلي أبيها مرة ، وإلي أبيه مرة ، وإلي جدتهما مرات ليحجزوها له على الأقل ولا يعطونها لغيره !

كم مرة سهر وهو يتأمل ملامحها المنعكسة في مرآة خياله على طلاء حوائط غرفته اللامع الجديد ؟!

كم مرة نام وحلم بها ؟!

كم مرة تمني أن يضمها إليه ويخفيها في حضنه ولا يترك رجلا ولا ولدا غيره تقع عيناه عليها

أكل هذا يمضي سدي وبلا ثمن .. كل هذا تداعي فوق رأسه الآن وهو يرقبها وهي تبكي وتجفف عينيها بإيشاربها الصغير .. ظل يرقبها دقائق حتى خارت قواه وفقد كل قدرة لديه على المقاومة .. انهارت قسوته المصطنعة ووجد نفسه كما هو .. منذ متى كان قاسيا .. منذ متى وهو فظ بلا رحمة ؟!

لم يكن كذلك أبدا .. ويبدو أنه من المحال أن يكون !

هرع نحوها أخيرا .. أمسكها وأدراها نحوه وضغط رأسها في حضنه .. تعالي بكائها حنانا هذه المرة .. قبل رأسها العاري ثم أحتضنها بقوة وإصرار .. إنه لن يتركها أبدا .. نهض أخيرا ليغلق الباب .. ولأول مرة منذ أيام ، لم يعني أيهما بعدها، يبيتان معا في فراش واحد !

*****

العروس المطلقة ذات الابنة أخذها الغراب وطار .. فقد قرر " عبد الرحيم " صرف النظر عن الأمر!

لطمت أمه خديها وولولت واستعدت عليه الناس وصاحت في وجهه حتى بح صوتها : " ضحكت عليك يا دلدول .. طوتك تحت باطها يا بتاع النسوان ؟! يا واد مش كنا اتفقنا مع الناس وأدينا كلمة يا ولد المحروق ! "

لم تكن تسأله بل كانت تؤنبه مذكرة إياه بواجبه الرجولي نحو كلمته التي بذلها .. مع أنه في الحقيقة لم يبذل أية وعود ولم يعطي أية كلمات .. هي التي فعلت وليس هو!

وكان هذا رأي " عبد الرحيم " .. ورأي (المحروق) ، أي أبوه الذي لم يكن يجد أي سبب لتسرع زوجته في محاولة تزويج ابنها للمرة الثانية .. فالرجل الطيب يؤمن بأن (اللي له نصيب في حاجة هيشوفها) !

وكم من مرة قال لزوجته الوالهة الحزينة على ما رزق الله ابنها به من بنات :

" لو له نصيب في واد هيجيله ولو ملهوش نصيب والله لو جوزتيه نص نسوان البلد ما هو شايف ضفره ! "

ولكن رغم كل ما فعلته الأم وكل ما خرج من حنجرتها من (ردح) ودعاء على " نعمة " وحتى على البنات الصغيرات اللائي لا ذنب لهن في شيء ، فإن أمر الزواج قد أُلغي .. إلي حين على الأقل !

بعد شهور علمت " نعمة " أنها حامل للمرة الرابعة .. بدأ الزوج يأمل أخيرا ويتمني من الله أن يرزقه الولد .. أم الزوجة أخذت تلهج بالدعاء لابنتها ليلا ونهارا ليعطيها الولد ويراضيها ويمن عليها بما يقرعينها به !

أما الحماة فقد كان موقفها مختلفا تماما .. أصلا هي تؤمن بأن نعمة ليس في عنقودها سوي البنات وأنها لو حملت ألف مرة فلن تلد سوي البنات!

لم يعرف أحد من أين أتت والدة " عبد الرحيم " بذلك اليقين الغريب .. اليقين الذي قُدرله أن يصيب مرة ويخطئ مرة !

فقد جاء الحمل الرابع ب" حسناء " ..

وهتفت الحماة وقد أشرق وجهها على غير العادة :

" الحمد لله ! ثبتت الرؤية .. قلنا كده قلتوا أطلعوا من البلد ! "

(٥)

لم تكد " أسماء " تبلغ شهرها الثالث من العمر حتى كانت أمها قد فكرت في الحمل من جديد !

لم تحتاج " نعمة " المنهكة إلي ممارسة أية ضغوط عليها لتبحث ملهوفة عن حمل جديد عقب مولد فتاتها الرابعة بشهور قليلة ، بل ربما بأسابيع .. كانت العلاقة بينها وبين زوجها قد تحسنت كثيرا ، لم تعد كما كانت بالطبع قبل طرح مشروع زواجه الثاني ، لكن الرجل كان قد ركن إلي الهدوء وربما الاستسلام وصارت علاقته بزوجته وبناته أحسن كثيرا .. صحيح أن الحماة العقربة لم توقف زنها على أذني ولدها ، ولا محاولاتها الحامية الدءوبة لتزويجه من امرأة أخري ، إلا أن صد ابنها لها وتجاهله لمحاولاتها للإيقاع به في مصاهرة جديدة حدت من قوتها وجعلت جبروتها يأخذ شكلا ملتويا ثعبانيا تجيده المرأة القوية التي تكتشف أن قوتها لم تعد تجدي نفعا .. كان مولد " حسناء " إذن القشة التي جعلت " نعمة " تشعر بالرعب حقا .. فحتي اللحظة لم تكن قد فكرت في الموضوع بوجهة النظر البسيطة الواضحة .. إن " عبد الرحيم " قد يتزوج عليها فعلا وعذره معه ، لن يلومه أحد .. وقد تصحو ذات يوم على ضرب دفوف لتجد امرأة غيرها ترتدي ثوب زفاف وتتأبط ذراع زوجها داخلة إلي عشها لتفرض نفسها عليها

كضرة وعلى بناتها الصغيرات كزوجة أب .. فما الذي قد تفعله هي ساعتها ؟!

أصابها الرعب لمجرد التخيل وقررت أن تتصرف على مسئوليتها ودون حاجة لدفع أو زق من زوجها أو حماتها .. فلم تكد تتم أربعين يوما على ولادتها

حتى هرعت إلي طبيبها تطالبه بأن يعطيها شيئا ليجعلها تحمل من جديد وبسرعة !

بهت الطبيب من طلبها وعلت وجهه نظرة هم ثقيلة فهو مطلع على مشكلتها منذ البداية :

" وليه يا بنتي كده .. أنت عايزة تنتحري ولا أيه ؟! مش لما تتمي حتى مدة الرضاعة وتكبري بنتك .. دي لسه مية٣٧ حرام عليكي! "

دمعت عينا " نعمة " وقالت بصوتها المنهك المعذب :

" والنبي يا دكتور .. شالله يخليك .. بيتي هيتخرب وجوزي هيبجبلي ضرة تبهدلني وتبهدل عيالي ! "

قالت الجملة الأخيرة وقد أحمرت عيناها وتبللت بالدموع فعلا وصارت على وشك ذرف الدموع والبكاء بحرقة في أية لحظة :

" يا ماما أفهمي .. أنت جبتي أربع ولدات ورا بعض وده غلط على صحتك .. ده أنت مبتكمليش رضاعة عيل وبتجيبي التاني فوق راسه .. حرام عليكي كده ، حرام عليكي نفسك ، وحرام عليكي بناتك اللي بتولديهم دول .. دول مش بني آدمين .. مش لازم ياخدوا مدة الرضاعة اللي حددها ربنا وتدوهم فرصة يكبروا ويشبعوا من صدرك قبل ما تولدي عليهم .. ليه كده بس ؟! ده العالم أتطور وأنتوا لسه قاعدين في البت والواد .. ما خلاص يا بنتي الناس بطلت الكلام ده من زمان ! "

كان الطبيب يتحدث بصدق وبأمانة كرجل متعلم مثقف وكأب فاهم ومدرك لما يقوله .. لكنه لم يكن يعلم أن تلك المرأة الباكية المنهارة لا تملك خيارا .. فإما أن تأتي بالولد وإما أن تذهب في داهية ولا بواكي لها أو عليها !

تقاطرت الدموع من عيني " نعمة " وأخذت تبكي بالفعل .. صعب منظرها على الطبيب وأحس بالشفقة عليها .. ناولها منديلا ورقيا معطرا من علبة أنيقة أمامه وهتف مشفقا مهدئا :

" لا حول ولا قوة إلا بالله .. طيب أستني على الأقل سنة تكوني كده شديتي حيللك ويكون رحمك أرتاح شوية وبعدين يبقي ربنا يفرجها ! "

أفحمت الأم في البكاء وصاروجهها كثمرة طماطم من عظم ما بها من كرب :

" والنبي يا دكتور .. شالله يعمر بيتك .. والله جوزي وحماتي ما هيصبروا على ولا هيسكتوا .. هتروح أمه تجوزه ويتخرب بيتي وعيالي يتشردوا ! "

هنا فقد الطبيب أعصابه فقد شعر أن ما يحدث أمامه شيء بالغ القبح والقسوة لدرجة أنه لا يمكن ، ولا يجب ، السكوت عليه قال لها هائجا مغتاظا :

" ما عنه ما صبر ولا أتهبب .. أنت متعرفيش إن الراجل هو اللي بيحدد نوع الجنين ولا أيه ؟! أنت مش دخلتي مدارس وأتعلمتي يا بنتي ؟! أنت ملكيش ذنب .. ملكيش يد في حاجة .. ده كله من الراجل ، الراجل هو اللي بيجي منه ولد وهو اللي بيجي منه بنت .. أنت ملكيش ذنب في حاجة .. فهميه كده ولا هاتيهولي وأنا أشرحله وأفهمه ! "

سكتت " نعمة " وكفت عن البكاء .. اتسعت عيناها المحمرتان المليئتان بالدموع وسألت طبيبها غير مصدقة :

" إزاي يعني يا دكتور ؟! "

فكر الطبيب قليلا وأخذ يبحث عن أفضل طريقة يشرح بها الأمر للسيدة نصف المتعلمة أمامه ثم قال أخيرا وقد وقع على مثال مناسب :

" بصي يا ست الكل .. الست والراجل جواهم حاجة اسمها كروموسومات .. دي اللي بتحدد العيل هيطلع ولد ولا بنت .. أعتبريها زي الكور الملونة .. عارفة الكور الملونة الصغيرة دي بتاعت العيال ! "

هزت " نعمة " رأسها وتنامي اهتمامها وتعاظم انتباهها.. فقد شعرت أنها عادت إلي مقعدها في المدرسة الثانوية وتنصت إلي درس شيق في العلوم التي كانت تحبها بشدة :

" بصي أعتبري أن الراجل والست عندهم كور ملونة صغيرة جوه جسمهم .. جوزك اللي هو الحاج " عبد الرحيم " وأي راجل تاني عنده كور بيضا وكور سوداء .. أنت بقي وبقية الستات عندكم كور سودا بس .. ماشي فاهماني ؟! "

هزت " نعمة " رأسها إيجابا بسرعة ولهفة :

" لما تبقي حامل منه لو خدتي منه كور سودا زي اللي عندك هتجيبي بنت ولا خدتي كور بيضا هتجيبي ولد .. يعني أنت مبتحدديش حاجة هو اللي بيحدد .. هو اللي خلفته بنات مش أنتي! "

اتسعت عينا " نعمة " تماما وبدأت الدموع تجف منهما :

" من صح يا دكتور ؟! "

ابتسم الطبيب فقد رأي في أعماق عينيها الدامعة نظرة الطالبة الذكية الشغوفة بالعلم والتحصيل .. وأعتصر قلبه الألم من أجلها ومن أجل معاناتها بسبب شيء لا يد لها فيه :

" من صح والله العظيم ! بصي أنت مش روحتي المدرسة الثانوية ؟! لو دورتي على كتاب الأحياء بتاع تانية ثانوي وقريتي عن حاجة اسمها الكرموسومات هتعرفي إني مش بقولك غير الحق وغير الحاجات اللي أثبتها العلم .. سيبك أنت من كلام النسوان والرجالة الجهلة اللي ميعرفوش السما

من العما .. روحي بيتك وخدي بناتك في حضنك .. ولما تفطمي البت الصغيرة وترتاحي خالص أبقي أحبلي تاني . بس متنسيش أنت ملكيش ذنب في حاجة !"

خرجت " نعمة " من عند الطبيب وهي تشعر أن الدنيا قد تغيرت من حولها .. هل يمكن أن يكون كل هذا حقيقيا ؟!

هل يمكن أن تكون التهمة الملصقة بها .. تهمة الست الفقرية اللي مبتجبش غير البنات كذبا وبهتانا وافتراء ؟!

هل يمكن أن يكون زوجها ، زوجها وليس هي السبب في خلفة البنات .. هل يمكن أن تكون بريئة ؟!

بريئة يا ربي ومظلومة ومضطهدة لأجل شيء لا يد لها فيه .. شيء لا تملك فيه تصرفا في الحقيقة !

ما أحلي العلم وما أجمل الدق على أبوابه .. دقي على باب العلم أيتها المرأة فقد تجدين خلفه خيرا كثيرا .. ودقي على باب الله فهو مفتوح للناس دائما ولا يغلق دون عبد أبدا !

*****

في البيت كانت الحماة تنتظر كصقر متحفز فقد أتاها اليوم خبر عروس جديدة مناسبة لولدها تماما .. والأجمل في الموضوع أنها وكما طلب ابنها تماما .. بيضاء من غير سوء !

فتاة حاصلة على دبلوم صنايع تعمل في مدرسة خاصة .. بلغت من العمر تسع وعشرون عاما وتبحث عن عريس .. ومستعدة أن تتزوج حتى بخروف العيد نفسه ليس رغبة في الزواج فحسب بل هربا من أخوتها وزوجاتهم الذين أحالوا نهارها إلي ليل .. كانت " ثومة " فتاة عانس لطيفة محبوبة في وسط زملائها ترك لها أبوها ميراثا صغيرا عبارة عن نصيبها الشرعي في بيت أبيها الكبير الذي يطل على ناصيتين ..

بيت كبير مبني بناء حديث (بالمسلح) كما تثرثر النسوة ذوات العيون المدورة وهن يستعرضن واجهتي البيت الهائلتين في الرايحة والجاية .. كان صاحب البيت وبانيه رحمه الله له من الأبناء ثلاثة صبية ومن البنات اثنتان .. تزوج اثنين من أبنائه الذكور في حياة عينه وكذلك تزوجت احدي الفتاتين .. وبعد وفاته بسنة تزوج الولد الثالث وهكذا لم يبق في البيت أحد غير متزوج سوي ابنته " ثومة " .. كان ترتيبها هو الثاني وسط الخمسة أبناء والأول في البنات .. بلغت الخامسة والعشرين دون أن يتقدم لها عريس ، فوافق أخوتها أخيرا على أن تعمل مدرسة اقتصاد منزلي في مدرسة خاصة كان يملكها رجل ثري على علاقة معرفة وقرابة بعيدة بهم .. لم يكن أولاد الحاج " عطا " يريدون أن يتركوا أختهم تعمل قبل ذلك لكن زوجاتهم أقنعوهم بتركها تفعل من أجل :

" خليها تجيب مصاريف أيدها وتحل عن كتافكم شوية ! "

كان هذا هو السبب الأساسي في رغبة الفتاة المشارفة على الثلاثينيات في الخروج للعمل .. بالإضافة إلي أنها ترغب في تسلية نفسها وعمل شيء مفيد بدلا من قعودها في البيت طوال الليل والنهار، تشاهد التلفاز وتنغمس في مناكفات سخيفة مع زوجات أخوتها ذوات العقول الفارغة .. أعترض الأخ الأكبر كده وكده ، لكنه كان راضيا تماما في أعماقه ، أما " ثومة " نفسها فقد أصبحت خلال أيام قليلة في منتهي السعادة .. مارست العمل وخرجت من سجن البيت .. وهناك ، في المدرسة ، اختلطت بالمدرسات الأخريات والمدرسون ، تعاملت مع الطلاب ..

تسلمت حجرة التدبير المنزلي وأصبحت مسئولة عن البوتاجاز والثلاجة ودواليب الخزين الصغيرة ، والمهمات الغذائية التي تتسلمها بشكل دوري لتعمل عليها ، وتعلم الفتيات الصغيرات كيفية صنع الكفتة والبسبوسة

وتجفيف التين والبلح وحفظ البامية والجزر .. أدركت أن العالم المحيط بها أكبر كثيرا مما كانت تتخيل ، وأنه ليس مصنوع من جدران أربعة فقط ، بل إن فيه مئات وألوف الجدران ، خبت حدة حسرتها على نفسها تدريجيا وأدركت أن هناك أشياء تصلح لأن يعيش الإنسان من أجلها عدا الزواج والإنجاب وتربية الأطفال .. هذه الأشياء الأخرى موجودة وحتى وإن كانت لا تغني تماما عن تكوين أسرة وفرحة أن تكون عروسا وأما ، فإنها كافية تماما لتكون سلوى وشفاء لجرح وربما بلسما ملطفا لمرارة حياة الوحدة التي تنتظرها غالبا .. لم تكن " ثومة " إذن ممن دخلوا سوق العمل ليكسبوا ويربحوا بل ممن دخلوه ليشفوا جراحهم ويخففوا آلامهم !

ولذلك بقيت هنا بينما أخذ معظم من حولها يرحلون .. أخذ معظم المدرسون بتلك المدرسة ، التي تدفع رواتب أقل كثيرا مما تدفعه مدارس خاصة أخري ، وحتى أقل من رواتب المدارس الحكومية ذاتها ، يتسربون بحثا عن فرصة أفضل .. تسربت المعلمات النساء واحدة وراء الأخرى منسحبات لاهثات خلف العقود المميزة في التربية والتعليم ، ولحق بهن غير قليل من المدرسين .. في حين بقيت " ثومة " وحدها تقريبا موجودة وسط هيئة تدريس تتغير وجوهها ويعاد تشكيلها من جديد كل عام تقريبا .. وذلك لأنها كانت تبغي الراحة والسلوى لا الربح والراتب !

لكن نسوة أخوتها لم يتركنها في حالها .. كان مدار الخلاف هو البيت الذي يقطنونه جميعا .. فالأب مات دون أن يوصي بوصية أو يورث شيئا مقسوما لأحد ، تاركا أمر تقسيم الميراث ، الذي لا يتعدي البيت ذو المساحة الكبيرة والبناء الممتاز، ليكون تقسيما شرعيا بين أبنائه الخمسة .. لكن نساء الأخوة كانوا يرون رأيا آخر!

زوجة الأخ الكبير الحرباء هي التي بدأت المشكلة ذات صباح .. كان صبيحة يوم جمعة وكلهم مجتمعون حول مائدة الإفطار التي يزينها طبق كبير من الفول بالسمن البلدي وطرشي وبصل أخضر وخبز ساخن شري لتوه من المخبز .. كانت المرأة الأريبة تسر في نفسها شيئا وتجهز المسرح للقيام بنمرتها التي تستحق عليها كل تشجيع وتصفيق لموهبتها العظيمة .. بينما كانوا مشغولين في المضغ وحش البصل هتفت " هناء " زوجة الأخ الأكبر:

" إلا متعرفوش اللي حصل عند بيت أبو الهدر إمبارح ؟! "

لا طبعا لم يكونوا يعرفون ما حصل عند الإخوة المذكورين مساهم الله بالخير أمس .. هذا إن كان هناك شيء قد حدث عندهم بالفعل ! "

" أيه يا أم " أحمد " ؟! "

هتفت زوجة أخ أخري لتدفعها إلي الكلام ، فردت بعد وقت طويل بعد أن مضغت لقمة بالراحة وعلى مهل حتى كادت تزهق أنفاسهم من فرط الفضول :

" أصلي شوفت واحد أفندي بشنطة طالع من عندهم إمبارح ! "

قصفت بقية عبارتها وركزت في المضغ .. فاستحثتها النسوة المتشوقات لدس أنوفهن في أي شيء خاصة لو كان لا يعنيهن :

" ها وبعدين ؟! "

" سألت واحدة من حريمهم قالتلي دا اسم الله واحد محامي ! "

" يا سلام ! "

سخنت المحادثة وبدأ الرجال يشاركون في الحوار الذي كان نسائيا خالصا حتى اللحظة :

" ليه هما معاهم قضية ولا أيه ؟! "

ابتلعت اللقمة التي كانت تلوكها على مهل وشربت جرعة ماء ثم قالت :

" لا .. ده محامي كان جاي عشان يعمل العقود .. "

قطعت عبارتها ثم نظرت حولها لتستقر عينيها في النهاية على " ثومة " التي تطعم ابنة أخيها " نهي " ، وترمقها بنظرة خاصة لتفهم منها أن الكلام أصلا موجه لها هي بالتحديد :

" أصل بناتهم طلعوا أصلا والله وبنات ناس من صح .. أتنازلوا لأخواتهم الرجالة عن ورثهم ! "

هنا خيم الصمت على رؤوس الجميع .. اتجهت الأنظار كلها بطريقة ميكانيكية ناحية " ثومة " التي لم تكن تدرك أنها هي مدار الحديث وعقدته .. رفعت الفتاة رأسها بعد أن التقطت أذناها الجملة الأخيرة ونظرت إلي " هناء " المتظاهرة بالانشغال في الأكل ..

كانت " ثومة " الآن مختلفة عن نفس تلك الفتاة التي كانتها منذ عام أو عامين مضوا .. كانت قد تغيرت ، نزلت الشارع وعملت وكسبت نقودا ، تعاملت مع الرجال ومع النساء ، ورأت كيف تدور الحياة وكيف يحيا الناس من حولها ، أدركت أشياء لم تكن تدركها من قبل وعرفت أشياء لم تكن تتخيل حتى وجودها في الكون منذ سنين قليلة .. أصبحت مسئولة ، وعليها واجبات ومسئوليات ، حتى وإن كانت بسيطة ومحدودة ، إلا أنها كانت قد تمرست في الدنيا ولم يعد كهن الحريم يرعبها ولا يلجم لسانها .. فورا ردت الضربة لزوجة أخيها المتحفزة كالأسد :

" لا وأنت الصادقة يا خيتي دول باعولهم .. البنات باعوا لأخواتهم وقبضوا فلوسهم جنيه ينطح جنيه .. بيع يا أم " أحمد " مش تنازل ! "

صمتت " هناء " ووقفت لقمة الفول في جانب فمها كأنها ألقمت حجرا لكنها لم تغلب على أمرها ولم تتراجع .. ليس من الجولة الأولي على الأقل :

" وأنت اسم الله عرفتي منين يا " ثومة " .. تكونيش كنت قاعدة معاهم وهما بيبيعوا ويشتروا ! "

كانت زوجة الأخ تسخر من أخت زوجها لكنها كانت غافلة لا تعرف معلومة مهمة جدا :

" لا يا خيتي .. بس الظاهر أنك متعرفيش أن واحدة من بناتهم شغالة معايا في المدرسة وهي اللي حكت لي ! "

أحمروجه " هناء " لكنها أجابت فورا بلهجة تكذيب واضحة :

" مين في بناتهم ؟! "

بسرعة البرق نطحتها " ثومة " في أمعائها بالاسم المؤكد :

" بتهم صابرين اللي واخدة معهد كمبيوتر .. ما أنتي عارفاها .. ولا مش واخدة بالك يا أم " أحمد " ! "

أحمر وجه " هناء " غيظا وحدفت الطوبة فورا فوق رأس " ثومة " لتجرحها عقابا لها على إحراجها وإظهارها كجاهلة غافلة أمام بقية نساء البيت الذي تعتبر نفسها كبيرة عليه :

" يمكن يا خيتي محدش عارف ! بس أصلهم كل بناتهم متجوزين يا مخطوبين وعندهم عيال وعليهم مسئوليات .. الدور والباقي على البنات اللي قاعدة في قرابيز أخواتها زي العمل الرضي٣٨ "

أغمق لون " ثومة " وغضب أحد الأخوة لها فصرخ في زوجة أخيه :

" ما تهدي يا ولية .. أطفحي وأنت ساكتة ! "

أعتبر زوج " هناء " صياح أخيه في وجه زوجته إهانة له خاصة أن ذلك حدث في وجوده فقال لأخيه بغضب :

" الله وأنت مالك أنت يا حاج .. دول نسوان بياخدوا ويدوا مع بعضهم متتحشرش أنت وسطيهم ! "

صمت الأخوان فورا تجنبا لاتساع المشكلة الصغيرة وسكتت " هناء " مرغمة وما لبثت بعد أن أكلت لقمة أخري ، حتى لا تُّظهر أن سلفتها قد أحرقت دمها ومنعتها من استكمال إفطارها ، أن نهضت مدعية :

" هروح أعملكم الشاي ! "

أنتهي الأمر الصغير وسكنت العاصفة مؤقتا .. لكن إلي حين فقط فالحرب إذا قامت بين النساء لا تنتهي إلا بإراقة الدم !

*****

انتهت المحاورة الصغيرة بلا نتائج ، لكن زوجة الأخ الباحثة عن مصيبة تخلصها من أخت زوجها الباقية معها في البيت أخذت تفكر في وسيلة تزيح بها " ثومة " عن البيت بأية طريقة .. فبدأت تبحث لها عن عريس !

كانت فكرة " ثومة " نفسها عن العريس مختلفة تمام الاختلاف عن فكرة زوجة أخيها .. فالفتاة تريد زوجا حقيقيا مناسبا لها سنا وتعليما وفكرا ، وأن يكون أعزب أو على الأقل أرمل أو مطلق بلا أولاد في رقبته .. بينما كانت " هناء " وبقية نساء الأخوات يؤمنون بأن فتاة دلفت الثلاثين بقدمها مثل " ثومة " لا يجب أن تطلب أو تشترط أصلا .. ولو جاءوها بكلب معلق بسلسلة في رقبته وقالوا لها :

" هذا عريس ! "

فعليها أن تحمد الله وتشكره وتزغرد فرحا وتتحزم وترقص !

ليس لمن هن مثلها قرار، ولا حق اختيار.. لذلك بدأن في محاولة إزاحتها والتخلص منها وليس تزويجها !

قالت " هناء " لبقية سلايفها بعد أن اجتمعت بهن سرا أمام الفرن فوق السطح :

" أهو نجوزها ونخلص منها ! "

ردت عليها احدي النسوة :

" طيب وهي هترضي برضه تتنازل عن نصيبها في البيت لأخواتها ! "

قطبت " هناء " وأجابت بغيظ :

" وما تتنازلش ليه .. لما تتجوز ونلاقي حد يرضي بها أخواتها هيساعدوها في جهازها وكده تبقي خدت حقها ناشف وملهاش حاجة تاني .. هي وأختها لازم يتنازلوا .. آمال أية هي سايبة ولا سايبة ! "

كانت النسوة مهتمات بموضوع تنازل " ثومة " ، وأختها " ميرفت " ، عن أنصبتهن في بيت الوالد حتى يضمن أن يؤول البيت بأكمله إلي رجالهن ، وبالتالي يتم تقسيمه على ثلاثة أنصبة بدلا من أربعة .. ولم تجد إحداهن أي غضاضة أو حرمانية في طريقة التفكير تلك .. فالحقيقة أن أغلبية الناس حولهن يفكرون بنفس الطريقة .. والبعض هنا يعتبر البنت التي تطالب بنصيبها في ميراث أبيها (قليلة الأدب متربتش) !

كانت " ثومة " إذن محاصرة في الركن هي وأختها .. لكن الأخت كان لها زوج يدافع عنها ، كان لها ظهر وسند وضل رجل يحميها ، أما هي فليس لها سوي أمها تقف لها وتحميها .. لكن ماذا بعد وفاة الأم ؟!

ماذا سيحدث لها بعد وفاة الأم ؟!

لم تكن الفتاة العانس تفكر في ذلك كثيرا .. بينما كانت زوجات أخوتها لا يتوقفن عن التفكير فيه والتدبير والتخطيط لإزاحتها بعيدا عن البيت !

جاء العريس الأول على يدي " هناء " .. ذات يوم خميس ، وبينما كانوا مجتمعين أمام التليفزيون ، الأبناء الثلاثة وزوجاتهم وأولادهم ، أما الأم والأخت فقد تخلفتا وجلستا في غرفة الأم تتبادلن حديثا خاصا ، فتحت زوجة الكبير الموضوع .. حدثت زوجها وأخوته عن رجل من معارفها يبحث عن عروسة .. كان عريسا ولكنه لم يكن عريسا عاديا فقد كان متزوجا بالفعل من امرأتين أخريين !

واحدة طلقها بثلاثة بنات وولد منذ سنوات مضت.. والأخرى على ذمته وله منها اثنان ، ولد وبنت ، كما أن عمره لم يكن يقل عن خمسين عاما بالراحة !

" آمال عايزيتجوز ليه بقي .. ما هو متجوز وعنده الواد والبت ؟! "

كان الأخ " السيد " الأوسط هو الذي يسأل ، لكن " هناء " انبرت فورا مدافعة عن العريس الذي نحل وبرها حتى عثرت عليه أخيرا :

" جري أيه يا أبو " علاء " .. لا عيب يا أخويا ولا حرام .. ده راجل مقتدر وربنا حلله بدل الواحدة أربعة ! "

ضحك " السيد " لكلام زوجة أخيه التي كان يعرف أنها من أكثر معارضي فكرة أحقية الرجل في الزواج على امرأته ، وقال لها مغيظا :

" طاب والله عال إنك عارفة كده .. أهو " أبو أحمد " يروق نفسه ويشوفله عروسة صغيرة كده تهنيه وتسود بياض شعره ! "

ضحك الباقون بينما أسود وجه " هناء " وقالت ، وهي تضرب على بطنها وتحرك رقبتها بحركة غريبة ، وكأن عنقها معلق في خيط :

" وهو ليه يعمل كده يا أخويا ؟! ناقصة حاجة .. متهني أهوه ومليت له السريرولاد يقفوا في كتفه لما يكبروا ! "

نظر إليها " السيد " فاحصا ثم قال لها جادا :

" طيب ما هو المتعوس اللي أنتي جايباه لأختي ده عنده ولاد يا أختي .. رايح يطلق دي ويتجوز دي ليه بقي ؟! "

صمتت " هناء " باحثة عن إجابة مناسبة ثم قالت باضطراب :

" أهو حقه بقي وإحنا ملناش نحاسبه ! "

هتف الأخ مغتاظا بحق :

" يبقي عينه فارغة وبتاع نسوان يا أم العريف .. ده غير أنه عجوز وتلاقيه مقشف كمان .. هنرمي أختنا إحنا مش لاقيين لها اللقمة ولا بنشحت عليها .. فضيها سيرة يا " هناء " وبطلي شغل الحريم ده ! "

تدخلت زوجة " السيد " وقالت بصوت منخفض :

" هي برضه مغلطتش يا أخويا .. دي بتدور على مصلحة أختك وعايز تسترها ! "

ألتفت " السيد " الذي كان أقوي الأخوة شخصية ونهر زوجته قائلا :

" بس يا مهبلة ٣٩ أنت .. مصلحة أيه في جوازة منيلة زي دي .. الناس تقول علينا أيه .. ولاد الحاج " عطا " مش طايقين أختهم فرموها أي رمية ! "

صمتت النسوة جميعا ولم ينطق أحد من الرجال بحرف .. أخيرا قالت " هناء " مترددة خوفا من " السيد " الذي كان ينظر إليها متحفزا :

" وإحنا داوشين دماغنا ليه .. ما نشوف رأي صاحبة الشأن ! "

لم يعترض " السيد " لعلمه بأن أخته سترفض دون شك .. فهز رأسه بصمت معلنا تأييده لهذا الرأي .. رفعت " هناء " عقيرتها وصاحت منادية :

" يا ثومة .. يا ثومة .. تعالي يا أختي عاوزينك في كلمتين يا بت أبويا ! "

*****

خرجت " ثومة " من الغرفة وخلفها أمها .. لم تكن الأم تتركها وحدها كثيرا هذه الأيام .. وكانت تحب دائما أن تكون معها لتحميها وتدافع عنها وقت اللزوم فقد كانت تدرك بفطرتها أنه ليس هناك أضعف من فتاة وحيدة أمام الأخوة الذكور وزوجاتهم الخبيثات اللئيمات ..

جلست الأم والابنة بجوار الأخ الأوسط الذي أفسح لهما مكانا بجواره .. كانت الأم تشعر أن هناك شيئا كبيرا يريدون محادثة ابنتها فيه ، بينما " ثومة " نفسها كانت تشعر بلا مبالاة كاملة ولا تفكر سوي في البسبوسة بالقشطة التي ستعدها للبنات غدا في المدرسة ..

بدأت " هناء " الكلام بسوق الجمل والعبارات الرتيبة المملة المعروفة (أنت كبرتي دلوقتي) (عايزين نفرح بيكي ونشوف عيالك) (والبت ملهاش إلا بيت جوزها) ..والكلمتين الحامضتين المحفوظتين ضمن قواعد الفلكلور!

استمعت " ثومة " للكلام بصمت ، بينما الأم أرتفع حاجباها دهشة وأخذت تتبادل النظر سرا مع ابنها " السيد " .. أخيرا عرضت زوجة الأخ الموقف وشرحت لحماتها وابنتها أن هناك عريس يريد الزواج من " ثومة " :

" وده شافها فين ويعرفها منين يا بتي ؟! "

سألتها الحماة فردت " هناء " على الفور :" لا ده ميعرفهاش يا أمي .. بس هو كان بيدور على عروسة وولاد الحلال دلوه على اسم النبي حارسها وصاينها ! "

ضحك " السيد " وقال ساخرا :

" كمان ؟! ده داخل يدور على واحدة واقعة ترضي به وخلاص بقي ! "

غضبت " هناء " لتدخل شقيق زوجها ، الذي ينذر بفشل خطتها المحكمة ، وقالت بغيظ وحقد : " ليه يا خي .. ده راجل ملو هدومه وموظف قد الدنيا غيرش بس هو اللي ملوش حظ في النسوان العدلة .. ويمكن ربنا يعوض عليه بست البنات بتاعتنا وهي اللي تعمرله ! "

" تعمرله أكتر من كده .. ده عنده خمس عيال الله يخرب بيته ولا هو عايزيعمل فريق كورة ويدخل بيهم الدوري ؟! "

ضحكت " ثومة " لكلام أخيها ، فهزت " هناء " رأسها بحركة بدا أنها لا إرادية عندها ، وقالت مؤنبة :

" الراجل ميعبهوش حاجة يا سلفي .. وبعدين ده راجل محترم وعنده بيتين يرمح فيهم الخيل يبقي يتجوز تلاتة يتجوز عشرة هو حر! "

ردت عليها " ثومة " أخيرا بعد أن تركتها تتقيأ كل ما لديها :

" حر على نفسه يا حبيبتي .. أنا أيه اللي يغصبني على كده ؟! "

ردت زوجة الأخ الأصغر " سحر " بتلميح سخيف :

" أهو مش أحسن من قعدتك يا أختي .. وبعدين يعني هو جالك اللي أحسن منه وحد وقفلك ؟! "

هنا تكلمت الأم بغضب وقالت لزوجة ابنها الحشرية :

" متتدخليش بين الأخوات يا ست " سحر " .. أنا بنتي مش بايرة ولا وقيعة عشان تاخد واحد قد أبوها وفي ديله حرمتين وخمس عيال .. هي جوازة وخلاص ولا أيه .. دي بت الحاج " عطا " يا بت " جابر " ! "

كانت الحماة تعير زوجة ابنها بأصلها الوضيع ، فلم يكن والد " سحر " سوي بائع لبن فقير معدم ، ولم يكن مستواه الاجتماعي يليق بتاتا بمستوي زوجها وأبيه .. سكتت " سحر " على الفور وغص حلقها ، فقد كان ذكر أصلها والتلميح به يجرحها بعمق ، لكن " هناء " ردت عنها فورا :

" والله يا حاجة الناس كلهم ولاد تسعة .. والراجل ميبعهوش حاجة طول ما جيبه عمران ! "

نهرها " السيد " فورا غاضبا وقد أحتد وعلا صوته :

" إحنا بقي ولاد سبعة يا بت " متولي " الحرامي ولمي نفسك على المسا .. وروحي قولي للوقيع اللي جايهولنا ده معندناش بنات هنجوزها ! "

وقف زوج " هناء " غاضبا وصرخ في أخيه لذكره كنية حميه المقيتة التي ذاعت وأشتهربها " الحرامي " :

" ما تلم نفسك يا " سيد " .. ما تنساش أنها مرت أخوك وأم عياله ! "

قطعت الأم الخناقة التي على وشك أن تبدأ بصوتها الحنون المنخفض دائما قائلة :

" خلاص يا عيال أخزوا الشيطان .. "

ثم وجهت كلامها إلي " هناء " مطبطبة ولائمة في نفس الوقت :

"معلش يا بتي حقك عليا بس متنسيش إن بتي مش رمية ولا وقيعة .. دي بت محترمة ومتعلمة ومدرسة قد الدنيا .. وإحنا مش بايعينها يا أختي ولا مستغنيين عنها .. لما يبقي يجي العريس الزين اللي يناسبها محدش هيقول لأ !"

نهضت " هناء " من مكانها متوجهة نحو غرفتها .. لكن غريزتها النكدية منعتها من المغادرة دون أن تلقي عبارة أخري من كلامها الذي يحرق الدم .. مصمصت " هناء " بشفتيها ولوتهما وقالت وهي تسحب ولديها ليسيرا معها :

" لما بقي .. ربنا يحيينا ويحييكي يا حجة ! "

*****

الرجل الخمسيني أبو الزوجتين والخمسة أبناء حمله الغراب وطار به .. لكن غيره أتي بدلا منه ! وكان أدهي وأمر.. فقد كان شاب ثلاثيني لا يكبر" ثومة " سوي بثلاثة أو أربعة أعوام فقط .. وكان ، بالإضافة إلي ذلك ، قريب لأمها من بعيد لكنه للأسف كان مليء بالعيوب والبلايا التي لا يصدقها عقل !

" ده صايع وعايش عالة على أخواته .. ده غير أنه فلاتي وبصباص وبتاع نسوان وعياره فالت ! "

واضح أن الأخ المذكور عاليه قد اجتمعت فيه كل الموبقات .. لكن زوجة الأخ الحريصة على التخلص من أخت زوجها العانس التي تعتبرها ضرة لها في البيت صرخت فيها محتجة معترضة :

" والله ما حد عياره فالت غيرك أنتي .. أنت يا بت مش عايزة تتجوزي وتتستري في سنتك ولا أيه ؟! "

كانت تلك أول مرة تتجرأ فيها " هناء " على إهانة " ثومة " ، وتوجيه عبارات قاسية لها في حضور أمها القوية التي لم تسكت أبدا على هذا الكلام الذي يقال لابنتها الغالية .. صرخت في وجه زوجة ابنها :

" أنت أتهوستي٤٠ يا بت " متولي " ولا أيه .. وأنت حاشرة مناخير أمك ليه ؟! مين دي اللي عيارها فالت يا تربية الشوارع .. ده أنا بنتي ستك وست اللي جابوكي كلهم ! "

أحمرت عينا " هناء " وتنمرت مستعدة لرد العدوان ، لكن دخول أحد الأخوة فجأة قطع المعركة قبل أن تبدأ .. صاح الأخ غير مبال بوجود أمه :

" مالك يا مرة منك ليها ! صوتكم جايب لآخر الشارع .. أنتوا بتردحوا ولا أيه ! "

صاحت " هناء " فورا : " ما تيجي تشوف أختك اللي محدش قادر عليها .. "

قاطعها فورا بعنف :

" اكتمي يا بت ولمي نفسك .. وطي حسك يا شرشوحة هتلموا علينا الناس ! "

صرخت ثانية فكاد يضربها وهو يصيح بوجهها مجددا :

" قلت لك وطي حسك بدل ما أسفخك٤١ قلم أعدلك يا مقلوبة .. مالك أنتي بأختي يا بت أنتي يا بت ؟! ما تسيبيها في حالها .. كانت قاعدة على حجرك هي ؟! "

قالت محاولة التحدث بصوت منخفض رغما عنها :

" مش عاجبها حد يا أخويا .. كل ما نجيب لها راجل تطلع فيه القطط الفاطسة .. ما تشوف حكاية أختك دي يا دكر بدل ما أنت بتستقوي القلب عليا ! "

كانت جملة " هناء " الأخيرة تحمل تلميحا بذيئا كريه الرائحة أشتمته الأم على الفور .. فشحب وجهها وقالت بغضب مكبوت في صدرها حذار أن ينفجر:

" يا واطية يا بت الواطية .. بتي دي أشرف واحدة في البلد دي كلها وديلها أطهر من ديلك وديل أمك ! "

لم يكن الأخ فقد فهم معني عبارة زوجة أخيه الأخيرة ، لكن رد أمه الغاضب جعله يدرك ما تقصده بالضبط .. أسود وجهه غيظا وفجأة خلع فردة شبشبه وانهال عليها ضربا وهو يسبها بأقذع الألفاظ .. تعالت صرخات " هناء " مصدعة أركان البيت وملأت الشارع بأسره بينما الحماة و" ثومة " تبذلان أقصي طاقتيهما من أجل إيقاف الأخ الأصغر عن مواصلة ضربها !

*****

لم يمر الأمر على خير .. فقد غضبت " هناء " لما جري لها على يد سلفها الأصغر ، وغضب لها زوجها .. أشتبك مع أخيه في خناقة حامية أوشكت أن تكون دامية وتبادلا الصراخ ، ووصل الأمر إلي التدافع والاشتباك بالأيدي .. أعتبر " حسن " أن ما حدث لزوجته إهانة له ولكرامته الرجولية ، بينما لم ترضي " هناء " بشيء من هذا .. أرادت أن يرجع لها حقها وأخذت تردد وهي تنشج ، وتجمع ملابسها في نفس الوقت .. دون أن يكون هناك دمعة واحدة في عينيها الوقحتين :

" أنا عايزة حقي يا " حسن " وإن مكنتش أنت راجل وعارف تحمي مرتك يبقي بيت أبويا أولي بيا ! "

في الحقيقة فإن " هناء " لم تكن تفكر في مغادرة البيت أصلا ، فلا بيت أب لها تذهب إليه لكنها أرادت فقط تسخين الأمر حتى يتطور إلي الدرجة التي تريدها .. إنها تريد دق إسفين بين الأخوة وليس أي شيء آخر!

كانت الأم تدرك ذلك جيدا ، وتعرف أن زوجة ابنها العقربة تؤلب من بالبيت كلهم على بعضهم لتكسب هي في النهاية ، وتكوش على البيت بأكمله كما تحلم منذ أن خطت بقدمها داخله .. حاولت الأم تهدئة الأمور وجعلت ابنها الأصغر يقبل رأس أخيه ، حتى إنها دفعته ، باللين والحنية والتزلف ، إلي الاعتذار لزوجة أخيه نفسها رغم أنه كان يأبي ذلك بشدة .. العجيب أن " هناء " لم ترضي بعد كل هذا !

استغلت الموقف لتنتقم من " ثومة " ، التي لا ذنب لها في شيء ، وأخذت تبرطم وهي تتظاهر بجمع حاجياتها المبعثرة هنا وهناك :

"آمال أيه ؟! تاخد أيه الناس من البنات الفواجر غير المشاكل وخراب البيوت!

نهرها زوجها الذي لا يريد توسيع المشكلة أكثر مما هي .. وقال لها متوسلا ومعنفا في ذات الوقت :

" ما خلاص يا أم " أحمد " ولمي لسانك شوية .. إحنا معندناش بنات فواجر يا حاجة .. البت عندنا تاخد بالجزمة وتمشي بالجزمة ! "

ضحكت ضحكة عصبية إفعوانية وقالت له مستخفة :

" لا ما هو باين يا سبع .. كمنها شغالة ترفض ده وتزعط ٤٢ ده وانتوا قاعدين مقدرينش تقولوا حاص ٤٣ "

غضب مجددا وقال لها بغيظ : " وأنت مال أهلك بيها .. ما إن شاء الله عنها ما أتربربت ولا أتجوزت .. أنت مالك أنت ؟! شاغلة دماغك بجوازها ليه بس ؟! "

اقتربت منه أخيرا ومدت يدها تملس قب جلبابه البلدي الأبيض النظيف ، وبنظرة خبيثة في عينيها المتسعتين الخاليتين من الدموع :

" ما هي لما تتجوز وتغور يا سبع البرومبة هيخلالنا الجو إحنا .. نبصم أمك على نصيبها في البيت ، وتشتري من أخواتك والبيت كله يبقي لينا ولعيالنا بعدينا .. مش عايز تخلي حاجة للزمن لعيالك ولا أيه ؟! "

سكت " حسن " ناظرا إلي زوجته بدهشة وعمق .. إنها لأول مرة تطلعه على ما يدور في رأسها وما تغلق عليه صدرها .. نظر إليها مفكرا طويلا ثم مد يده وأمسك يدها المعلقة فوق صدره وأزاحها بعيدا برفق :

" بقي كده يا بت " متولي " الحرامي .. هو ده اللي بتخططي وتدبري ليه .. وأنا أقول مالها بثومة مالها بثومة ! أتاريكي بقي .. تصدقي إنك رمة وواطية وبتاعة وقايع فعلا زي ما بتقول الحاجة عليكي ! "

تركها أخيرا تفعل ما تشاء .. استمرت دقائق تجمع ما بقي من ثياب لها ودست الذهب الخاص بها ، وهو أهم ما كانت تحرص عليه ، في صدرها خشية أن يفتش أحد حقيبتها وهي خارجة .. انتهت من ذلك ثم فجأة غيرت رأيها .. أعادت الملابس إلي الدولاب وخبأت صندوق الذهب الصغير في درج خاص أسفل الدولاب وأغلقت عليه بمفتاح وضعته في صدرها بحرص .. جلست على الفراش وهي تتنشق لكن دون بكاء ودموع وهي تفكر في كلمات أمها لها عندما خطبها الحاج " عطا " لولده الكبير:

" دول ناس قادرين ووراهم شي وشويات يا بتي .. يا تقدري عليهم يا أمي يا يقدروا عليكي ! "

مسحت وجهها الممتقع بيديها .. ثم قررت أن تقدر هي عليهم مهما حدث !

*****

خلال أيام كان موضوع العريس العاطل قد محي تماما ولم يعد أحد يفتحه أو يتحدث فيه .. حتى " هناء " بدأت تعود تدريجيا سيرتها الأولي ، وأخذت تحادث حماتها وسلفتها " ثومة " بطريقة عادية ، بل وحتى سلفها الأصغر الذي ضربها بالشبشب .. لكن زوجة الأخ في الحقيقة لم تكن قد نسيت أو غفرت أي شيء أو تنازلت عن خططها للسيطرة على البيت والاستحواذ عليه .. ولم تكد تمضي أسابيع حتى كانت قد شبكت في علاقة معرفة مع " أم عبد الرحيم " حماة " نعمة " .. كان البيتين متقاربين قليلا وهناك معرفة ليست بالوثيقة تربطهما .. كانت " هناء " تتمني أن تأخذ أم " عبد الرحيم " " ثومة " لأحد أولادها غير المتزوجين .. لكن الفتاة كانت أكبر سنا منهم كلهم !

لم تكن " ثومة " جميلة لكنها كانت مقبولة الشكل ، صبوحة الوجه ، محببة بشكل ما لكل من يراها .. وفوق ذلك كانت موظفة لها دخل كما كانت بنتا لم يسبق لها الزواج .. أليست هذه هي المواصفات التي يطلبها " عبد الرحيم " في زوجته الثانية ؟!

*****

لكن " ثومة " كبيرة دخلت تقريبا في الثلاثينيات من عمرها ، وقد لا تنجب مطلقا أو قد تنجب بنتا أو بنتين ثم تتوقف بحكم سنها ولا تأتي بالولد.. كما أنها موظفة كذلك وقد ترفض أن تشاطر امرأة أخري في زوجها وبيتها ، خاصة لو كان لتلك المرأة أربع بنات صغيرات .. ما الذي يجبرها على القبول بوضع كهذا ؟!

الحقيقة أن أم " عبد الرحيم " بدأ تفكيرها يتجه اتجاها عمليا في تلك الأيام الأخيرة .. إنها تقنع ولدها بأنه فلتة زمانه ، وأن من خلقه لم يخلق مثله ، وأن بنات البلد كلها يتمنين إشارة من أصبعه الصغير.. وأنه ليس عليه إلا

أن يجلس على البساط وينقي ست البنات .. لكنها بينها وبين نفسها كانت تعرف أن كل هذا محض كذب وهراء !

فولدها ليس (نقضة) ٤٤ ولا فرصة لأي بنت عاقلة .. فهو رجل متزوج وفي عنقه خمس نساء ، زوجة وأربع بنات .. كما أنه مجرد تاجر وبائع بسيط على باب الله .. ومن تتزوجه وتقبل بأن تشارك زوجته وبناته فيه يجب إما أن تكون واقعة على آخرها ، وليست أمامها فرصة زواج أخري ، أو قريبة لهم يمكن الضغط على أهلها بالعشم وعلاقات القرابة لكي يرضوا بتزويجها لولدها الذي لا شيء فيه يغري البنات ولا النساء !

ليس هذا فحسب لكن هناك نقطة أخري في غاية الأهمية .. فإذا تزوج " عبد الرحيم " من امرأة أخري وأنجبت له ولدا أو اثنين فسيصير في رقبته سبع أو ثمانية بطون على الأقل فمن أين يطعمها ويشبعها ومن أين يكفيها ؟!

هنا فكرت الأم في الحل الأمثل .. أن تجمع بين الحسنيين .. تختار له الفتاة الواقعة التي تريد عريسا بأي طريقة .. وفي نفس الوقت تكون موظفة لتساعده في الإنفاق وتحمل عبء الأسرة الكبيرة التي لن تلبث أن تتضخم ويكثر عددها إن شاء الله وتزدان بالولد !

ولم يكن هناك من تنطبق عليها كافة تلك الشروط وتتوافر فيها كل هذه المميزات سوي " ثومة " بنت المرحوم الحاج " عطا " .. فهي ثلاثينية عانس بلا فرصة زواج مناسبة ، وموظفة تعمل وتقبض راتبا آخر الشهر بالإضافة إلي أنها موعودة بميراث طيب ستحصل عليه من بيت أبيها حين يتم بيعه وتقسيمه .. ولابد أن هذا سيحدث في يوم ما بكل تأكيد !

لكن هل ستقبل " ثومة " بالزواج من ابنها .. هل سترضي بتلك الشركة الأبدية مع " نعمة " وبناتها الصغار ؟!

سترضي طبعا :" هي لاقيه ؟! "

قالت لولدها حينما كان يناقشها في ذلك العرض الغريب الذي عرضته عليه .. " ثومة " بنت الحاج " عطا " ؟!

إنه لم يفكر فيها أبدا وما كان يمكن أن يفعل .. إنها ليست عروسا تسر العين !

قال لأمه ذلك فانفتحت فيه بغيظ معلنة عن رأيها بكل صراحة متجاهلة الاعتقادات الكاذبة التي تعتنقها كل الأمهات بشأن أبناءهن :

" ما تتنيل وتتهد وتبطل عنظزة ٤٥ بقي .. على أيه يا واد .. ده أنت راجل متجوز وفي رقبتك مرة وأربع مصايب .. فاكر نفسك نقضة ولا نقضة ولا عامل نفسك ولد .. ده أنت تحمد ربنا لو هي رضيت بيك .. بس هيا ترضي بيك بس ! "

ذهل " عبد الرحيم " من السيل الذي غمرته أمه به من كلام لم يسمع مثله من فمها أبدا من قبل .. كان يعتقد أنها تراه في عينيها الولد الذي لم تأتي الوالدات بمثله .. لكن ها هي ذي الحقيقة تظهر لعينيه كما ظهرت لعينيها من قبل .. إنه ليس عريسا يسر الخاطر وعليه أن يحمد الله إذا وجد من ترضي به وتقبل أن تتزوجه وتأخذه على عيبه !

نخ أخيرا وخنخن وتساءل وقد بدأ يروض نفسه على تقبل الفكرة :

" طيب وأنت كلمتي حد من ناسها .. في قبول يعني من يمتهم ولا نروحوا ونتقدموا ونبهدلوا نفسنا على الفاضي ؟! "

رفعت الأم حاجبيها الرفيعين وقالت مطمئنة :

" ودي تفوت على أمك برضك .. روحت وشوفت ميتهم وإن شاء الله راضيين وموافقين ! "

كانت تلك معلومة جديدة غريبة على " عبد الرحيم " فسأل أمه بلهفة :

" كلمتي مين عندهم ؟! "

ردت فورا :

" مرت أخوها الكبير وهي قالت لجوزها وردت على وقالتلي نتقدم على البركة .. وإن شاء الله ربنا يقدم اللي فيه الخير! "

وبينما كل هذا الكلام يدور بين الأم وابنها كانت " نعمة " تسمع كل حرف يقال وتعيه جيدا .. فقد كانت تقف أمام باب غرفة الحماة وتلصق أذنها به متسمعة لكل ما يدور بالداخل !

كانت " نعمة " قد تغيرت كثيرا بعد مولد طفلتها الرابعة !

فارقها الإحساس بالأمن والطمأنينة نهائيا .. وجدت نفسها كمن يضعونها فوق سطح ساخن فإذا صرخت لم يعجب أحدا ، وإن سكتت لم يعجب أيضا .. إنها الأم الموصومة رسميا بأنها (أم البنات) ويقال في حضورها وبلا خجل أن عنقودها ليس به سوي البنات .. وزوجها صار يُنظر إليه كبطل وضحية لبطنها التي لا تحمل ولا تضع إلا البنات .. كانت فكرة الزواج التي طرحت لأول مرة عقب ولادة البنت الثالثة " أسماء" ووئدت مؤقتا بعد تصالحها المشهود مع زوجها ، قد عادت تطفو على السطح من جديد .. بتؤدة هذه المرة ودونما ضجيج .. لم تعد الحماة تواجهها مهددة بتزويج " عبد الرحيم " مثلما فعلت سابقا .. تعلمت الحماة الأريبة الدرس ووعته جيدا !

إن أي خصام وتطاحن علني بينها وبين " نعمة " يهدد قلب ولدها العاشق الرخو الطري بالميل ناحية زوجته التي أخذها على حب ، ووقوفه في صفها لتخرج هي ، الحماة ، خاسرة وتجد باب غرفة ابنها قد أغلق في وجهها ، ليرزق ابنها ، بعد بضع شهور ، ببنت خامسة وسادسة وهكذا .. إذن فمن الحكمة أن تفعل كل شيء في السر وتجعل الأمر محصور بينها وبين ولدها .. تبحث له عن عروس سرا ، وتجس نبض أهلها في الخفاء ، وحين يتم المراد

ويصبح كل شيء رسميا وعلى عينك يا تاجر يخبرون أم البنات بكل شيء .. حينها لا يستطع الولد التراجع ولا النكوص ولا يكون أمام زوجته إلا أن تضرب رأسها في أتخن حائط أمامها أو تشرب من البحر!

لكن أحاسيس المرأة القططية التي تشتم الخطر وتستشعره وهو آت من بعيد جعلت " نعمة " تحس بكل ما يدور حولها .. شعرت أنها أصبحت عدوة وعذول في البيت وأن الجميع يناصبونها العداء دون سبب ويتمنون أن يؤذوها ويجرحوها قدر ما يستطيعون .. وجدت المرأة نفسها تتغير تغيرا غريبا في تلك الأيام !

كانت حتى اللحظة راضية خاضعة لتقاليد مجتمعها وفروضه الثقيلة وتعتبر نفسها أحسن حظا من غيرها .. لكن حين وجدت نفسها مهددة بضياع زوجها وتحطيم أسرتها ، وتسويد عيشها بضرة تأتي لتكايدها وتحيل حياتها وحياة بناتها الصغيرات جحيما .. حينما وجدت نفسها يفرض عليها الشعور بالذنب ، والخجل من نفسها لمجرد أن رحمها لا تخرج منه سوي بنات في بنات ، حينها بدأت تتغير .. أنتابها إحساس دائم بالذعر والخوف والقلق .. أنقلب بدوره إلي ألم عميق يغزو لحمها ولا تعرف له سببا ولم يستطع طبيبها العثور على سبب له .. ثم أنتهي الحال بها إلي أن أنقلب خوفها وألمها إلي سخط وبغض وحقد وكراهية !

سخط على من أوردوها هذا المورد الشؤم وحكموا عليها أن تعيش أسيرة لما ينتجه رحمها ..

ألم تكن طالبة مجدة في المدرسة .. ألم تكن ذكية ومجتهدة .. أليس من الممكن لو أنهم تركوها تكمل تعليمها أن تكون الآن طبيبة ، تعرف الكرات البيضاء من الكرات السوداء وتعرف حاصل جمعهما وطرحهما .. أو مهندسة أو مدرسة أو موظفة ؟!

هل كانت ستشعر بكل هذا الفزع والقلق لو أنها متعلمة ومتزوجة بمتعلم وموظف ورزقها الله بالبنات ؟!

لا ريب أن حالها سيكون مختلفا .. لا ريب أنها لم تكن ستعاني كل هذا الجزع والألم الذي يقطع لحمها !

على الأقل كانت ستملك دخلا خاصا تنفق منه على نفسها وعلى بناتها لو تركها زوجها .. ولن تعاني الذل والمهانة من أجل أن تشحذ منه نقودا لتقيم أودها وأود بناتها لو أنه تركها وتزوج بأخرى لتنجب له الولد ..

تنامي السخط والغضب داخلها وتعاظم شعورها بالظلم والغدر.. حتى بدأت بوادرالانفجار!

وكانت أمها هي أول من انفجرت بوجهه .. قالت لها بالأمس وهي تجمع الفتات بعد أن أكلت البنات ونثرن بقايا الخبزفي كل مكان :

" ما أهو أنا لو متعلمة وسبتوني أكمل زي بقية زمايلي واشتغلت وأتوظفت كان زماني بقبض مرتب أصرف منه على بناتي بدل ما أفضل مذلولة له ولأمه طول العمر.. منكم لله حسبي الله ونعم الوكيل ! "

كانت تلك أول مرة تدعوا فيها " نعمة " على أحد من أهلها في وجهه أو خلف ظهره ، فشعرت أمها بدهشة شديدة :

" أنت بتدعي وتتحسبني علينا يا بت .. يعني إحنا كنا نعرف أنك فقرية وخلفتك كلها بنات ! "

لم تطفر دموع من عيني " نعمة " فقد تعلمت ألا تبكي ولا تسمح لنفسها بأن تبدو ضعيفة أمام أحد حتى أمام أمها نفسها .. بل ردت عليها بقسوة وحقد : " ما أنتوا مسبتنونيش في حالي .. لازم تطلعي وتتجوزي .. لازم تتنيلي وأديني أتربربت وأتنيلت وطلع حظي هباب .. كان على بأيه ده كله .. ما كنتوا سبتوني أكمل علامي زي بقية خلق الله ! "

مصمصت الأم بشفتيها وقالت بلهجة غاضبة ولكن لطيفة غير مؤذية :

" كل حي بياخد نصيبه يا بتي ومين عارف يمكن ربنا يطعمك ويديكي الواد وتزيني بناتك بيه ! "

بإصرار أجابتها " نعمة " الناقمة :

" ولا واد ولا بت تاني .. خلاص أنا جسمي تعب وأتهديت ومفياش نفس أحبل ولا أولد تاني .. بلا هم .. لو عايز الواد يبقي يولده هو ولا يجيب اللي تولدهوله .. أنا خلاص كده جبت آخري قطيعة تقطع الولاد على البنات على الخلفة على اللي عايزينها ! "

تعجبت الأم من تغير حال ابنتها ، وتغير حتى لهجتها وطريقتها المعهودة في الكلام .. فقالت لها راغبة في تطمينها وتهدئة مخاوفها :

" إن شاء الله بعدين كده بعد سنة ولا أتنين لما تكبري " حسناء " وتفطميها يبقي ربنا يديكي وتحليهم بالواد .. أنا حاسة إنك إن شاء الله إذا ربنا أراد هتجيبي الواد ، وتفرحي بيه وتفرحينا كلنا معاكي .. بس أنت متحرقيش في دمك عشان البت مترضعش لبن الحزن منك وتطلع عصبية وتتعبك ! "

لم ترد " نعمة " على أمها .. لأن خاطرها كان منصرفا الآن لفكرة غريبة طرأت على ذهنها .. فكرة فيها طوق نجاة ، وربما حياة أخري لها .. لكن هل تستطيع تنفيذها .. هل تملك الجرأة الكافية والعزيمة للإقدام عليها ؟!

تلاشي " عبد الرحيم " وعروسه المنتظرة والحمل والولادة والولد وحتى بناتها من ذهنها للحظة .. والفكرة الجديدة السعيدة تتقدم لتحل محل كل ما سبق وتمحو ذكراهم مؤقتا .. آه لو أنها كانت تملك الجرأة الكافية ؟!

*****

شعرت " ثومة " بشيء يدور حولها لكنها لم تستطيع أن تفهم ماذا يكون بالضبط .. وجدت محادثات مغلقة تحدث بعيدا عنها بين أخوتها وأمها ، أو بين أمها وزوجات أخوتها ، ولا يدعوها أحد للاشتراك فيها ، بل يبدون أنهم لا يريدون لها أن تسمعها ، لأنهم كانوا يبادرون بقص أحاديثهم وقطعها فور ظهورها أمامهم .. كانوا يغيرون مجري الحديث فورا ويطرقون موضوعا آخر لكنهم كانوا يفعلون ذلك بفجاجة وبطريقة غير محترفة تجعلها تدرك فورا أن الحديث المقطوع يخصها هي بالتحديد :

" هو فيه أيه ؟! "

كانت تسأل أمها كثيرا حينما تنفرد بها لكن الأم ترد عليها فورا بطيبتها المعهودة :

" ولا حاجة يا أمي .. سلامتك يا بتي ! "

لكن بعد بضع أسابيع بدأت الحقيقة تظهر للعيان تماما حتى دون أن تبذل جهدا في البحث والتنقيب عنها .. إنها يريدون تزويجها من " عبد الرحيم " المتزوج فعلا وأبو الأربع بنات !

فتحت معها أمها الموضوع أولا .. أخذتها في غرفتها وسردت على مسامعها محاضرة طويلة مملة امتلأت بالأكليشيهات المحفوظة حول البنت التي ليس لها سوي بيت زوجها ، والأخوة الذين لا أمان لهم ، وزوجات الأخوة اللائي يمكن أن يتحكمن فيها ويذللنها بعد وفاة أمها .. وكيف أنها تتمني أن تفرح بها وتضع ولدها على حجرها قبل أن تموت ، واختتمت الأم فورة الحكم المعلبة بالرجل الذي لا يعيبه شيء .. فأدركت الفتاة على الفور أن ثمة عريس في الأفق .. عريس معيوب طبعا طالما أن الأم أكدت على أن الرجل لا يعيبه شيء !

وهنا أفصحت لها الأم عن أن الست " أم عبد الرحيم " جاءتها وحدثتها عن رغبة ابنها في الزواج من " اسم النبي حارسها وصاينها " .. طبعا كان من الواضح تماما من تكون " اسم النبي حارسها وصاينها " هذه .. لكن السؤال هو عن أي ابن لأم " عبد الرحيم " تتحدث أمها ؟!

ردت الأم فورا :

" الواد الكبير.. " عبد الرحيم " ! "

أرتفع حاجبا " ثومة " بدهشة حقيقية وهتفت غير مصدقة :

" جوز " نعمة " أبو البنات ؟! "

زمت الأم شفتها للحظة ، وأخذت تفكر باحثة عن أفضل كلام يمكن أن يقال يلطف الجو ويغري ابنتها بالموافقة على هذه الزيجة التي لا تسر العين ولا الخاطر:

" يا بتي الراجل ربنا حلله أربع نسوان .. وهو مسكين وغلبان وطيب والله وملوش نصيب في العَدل .. أتجوز وربنا ما رزقهوش بالواد اللي يفتح عينه ويوقف في ضهره .. والراجل مغلطش لما قال يا جواز تاني ده حقه وشرع ربنا ولا عيب ولا حرام .. وإحنا ناس نعرف الأصول ومنقولش على الحلال عيب ولا حرام ! "

غضبت " ثومة " وقالت لأمها ساخطة :

" مسكين وغلبان أيه ؟! هو جاي يشحت .. أنا أيه اللي يغصبني على كده .. راجل متجوز وفي رقبته أربع بنات .. مالي أنا ربنا رزقه بالواد ولا ما رزقهوش .. كنت شغالة في الشئون الاجتماعية أنا ولا مطيباتية ليه وللي خلفوه .. ما يتحرق في داهية ! "

طبعا كان من الواضح أن البنت الثلاثينية لن تقبل بهذا العريس المعلق في رقبته أسرة كاملة بسهولة .. كانت الفتاة تحرن كما تحرن سمكة معلقة من طرف سنارة ولابد من معالجتها بحكمة وصبر قبل إقناعها بالرضوخ لهذا النصيب الزفت .. لذلك طلبت الأم أن تتولي هي فتح الموضوع مع ابنتها لأنها ستعالجها بالحكمة وستأخذها بالحكمة واللين حتى يهديها الله وتقبل بالأمر:

" طيب بالهداوة بس يا بتي .. الكلام أخد وعطا وإحنا مع بعضينا أهوه . محدش هيطير ويسيب التاني ولا حد هيغصبك على حاجة يا ضنا أمك .. خلينا كده نحكي زي الأصحاب مع بعض وبالراحة ! "

لكن " ثومة " لم تكن مستعدة لسماع حرف واحد آخر بشأن الأخ " عبد الرحيم " :

" ولا بالهداوة ولا بتاع .. أنا مش هتجوز الراجل ده يعني مش هتجوزه .. يعني أنت توقفي جنبي في حكاية الراجل قريب الست " هناء " وتقولي مش مستغنية عنها ومش بايعينها .. ودلوقتي جاية تجيبيلي اللي اسخم منه ؟! "

بالفعل كان هذا تناقضا صارخا في مواقف الأم يثير الحيرة .. لكن الأم كانت واضحة مع نفسها ..

(اللي ميرضاش بالخوخ يرضي بشرابه ، واللي منرضاش بيه النهاردة مش هنلاقيه بكره !)

" يا بتي يا حبيبتي .. العمر بيجري يا أمي والأيام بتعدي .. وأنت معتديش صغيرة .. شوفي أختك اللي أصغر منك عندها كام عيل وقاعدة متسترة في حما راجل .. أنا لو مت هسيبك لمين .. هتتحامي في مين ؟! "

كان هذا هو خوف الأم الأكبر ، وهو الذي حملها على التراجع عن مواقفها القديمة ، والتنازل عن مطالبها في عريس ابنتها المتبقية .. إنها تخشي

أن تتعرض للذل والمهانة على أيدي أخوتها وزوجاتهم بعد وفاتها هي ولا تجد نصيرا ولا حاميا يدافع عنها !

" هتحامي في نفسي يا أما .. وربنا يخليلي أخواتي مش قاسيين ولا عفشين زي أخوات تانية .. وبعدين لو جالي الراجل الزين المناسب مش هقول لأ ! "

" يا بتي يا حبيبتي .. محدش بينفع حد الأيام السودة دي .. لا أخوكي ولا أختك هينفعوكي .. الواحدة بعد أبوها وأمها ملهاش غير جوزها وعيلها .. طاب هو كان جه الراجل المناسب وحد قال لأ .. ما هو على أيدك كل اللي بيجي يا عجوز وعيان ، يا صايع ، يا متجوز .. يبقي نعمل أيه أحنا بقي ؟! "

نهضت " ثومة " التي سئمت هذه المناقشة العقيمة .. فاهتز الفراش الذي كانت تجلس بجوار أمها فوقه ، وسقطت فردة من قرطها الذي كان مفتوحا ، فتناولتها ووضعتها في أذنها .. راقبتها أمها بقلق وهي تفعل ذلك .. تكلمت الفتاة أخيرا بغيظ وقالت منهية الأمر:

" يبقي بلاش منه يا أم " حسن " .. قعدة الخزانة ولا جيزة الندامة .. أروح أتجوز لي واحد متجوز وعنده كوم لحم في رقبته وأتبلي لي بعيل ولا عيلين منه وفي الآخر تحلا القديمة في عينه ويرميني .. على أيه ؟! ما أديني قاعدة في بيت أبويا كافية خيري شري .. ولا أنتوا عايزين تزقوني وتخلصوا مني ولا اللقمة اللي باكلها تقيلة عليكم ! "

أربد وجه الأم حين نطقت ابنتها بالكلمات الأخيرة .. شعرت بشيء يضربها في قلبها ، فقالت فورا مدافعة عن نفسها وعن أولادها ضد هذه التهمة الخطيرة :

" لا حول ولا قوة إلا بالله .. بقي إحنا يا بت مستتقلين اللقمة اللي بتاكليها .. عيب عليكي ده أنتي أبوكي سايبالك فلوس مسبهاش لحد غيرليكي ..

قال قرشها ينفعها لو مجالهاش ابن الحلال .. وأخواتك بيعزوكي ويحبوكي .. ليه بس كده يا أمي .. ده إحنا خايفين على مصلحتك وعايزينك تتهني وتفرحي زي الشباب .. هو حد له حاجة عندك يا بت .. ده أنتي قاعدة في ملك أبوكي يا بت مش قاعدة في ملك حد ! "

ردت عليها " ثومة " فورا بغيظ وبصوت أرتفع فجأة من فرط ما بها من كرب وألم :

" ما تقولي لنفسك يا حجة .. وده عريس برضه يتهنوا بيه .. ده عامل زي المحش ٤٧ ميتباعش غير بعد السوق ما يتفض .. بلا هم بقي ! "

تركت " ثومة " حجرة أمها غير ملقية بالا لنداءات أمها المتكررة عليها .. تركتها وذهبت .. لكن في نفس اليوم عصرا ، ودون أن تكون أرملة الحاج " عطا " قد حسمت الأمر مع ابنتها ، أتت الدلعدي " أم عبد الرحيم" لتسمع الرد على طلبها !

مع أنه كان من الخير لها ، في الحقيقة ، لو أنها لم تأتي مطلقا !

*****

لم تقبل " ثومة " بفكرة الزواج من رجل متزوج بالفعل وله من البنات أربعة .. انتهت مناقشتها مع أمها مفتوحة دون حسم لكنها أبت أن تعطيها الفرصة لمزيد من الحواروالكلام .. لا يعني لا !

هكذا قالتها في وجه أمها وفي وجوههم جميعا حينما اجتمعوا عليها يحاولون إقناعها بالعدول عن رأيها وقبول هذه الزيجة .. فشلوا كلهم في الضغط عليها لشدة تمسكها برأيها من ناحية ، ولمؤازرة أخاها " السيد " الذي ساندها أمام بقية الأخوة وأمام الأم بقوة .. قال لهم غاضبا :

" جري أيه يا عم الحاج منك له .. هي بتنا وقيعة ولا بايرة ولا مش لاقين لها اللقمة ولا أيه ؟! "

رد عليه أخاه الأكبر بعنف ، فقد سئم هذه البنت العنيدة وأوشك أن يكرهها ، قائلا :

" ليه يا عم .. ده جواز على سنة الله ورسوله .. إحنا هنرميها في الشارع ولا أيه ؟! "

أجابه " السيد " بحنق :

" لا يا أخويا هترموها لراجل متجوز وعنده عيال .. وعايز بهيمة تخلف له الواد .. فرضنا ما جابتلوش الزفت الواد هيرميها ويتجوز عليها التالتة ؟! وعلى أيه ده كله .. ده مقشف وجعان هو نقضة ولا لقطة قوي ؟! "

كان اعتراض " السيد " وجيها خاصة لأن " عبد الرحيم " وأسرته يعتبرون فعلا أقل في المستوي المادي والاجتماعي من عائلة الحاج " عطا " لكن الأخ الأصغر تدخل قائلا :

" يا عم وهو جيه غيره وقولنا لأ .. ما أنت شايف أهوه بعنيك ! هو ده اللي موجود نمسك فيه ولا نتعنطز ونتمنظر لما البت تعنس وتبور وتبقي زي البضاعة اللي بتنش مش لاقيه حد يشتريها ! "

غضبت الأم لتشبيه ابنتها بالبضاعة البائرة .. بينما أغمضت " هناء " عينيها وفتحتهما بخبث وهتفت كحية تنفث سمها :

" والله عندك حق يا أبو أحمد .. البت من دول تعمل نفسها بت أبو على وتمد رجليها ٤٨ ولما يسيبوها تقول يا ريت اللي جرا ما كان .. ربنا يهديها على نفسها ! "

زعق فيها " السيد " غاضبا : " بس يا حرباية يا سوسة محدش طلب رأيك يا بت .. متتدخليش بين الخوات ! "

كان " السيد " متحفزا دائما ضد زوجة أخيه الأكبر ، وعلى استعداد دائم للدخول فيها شمال في أية لحظة تتجرأ فيها على حشر انفها في شئونه أو شئون أخته :

" جرا أيه يا " سيد " .. هو اللي يقول كلمة الحق في البيت ده يبقي جربة ؟! "

كانت " هناء " تعاتبه بلهجة أنثوية خبيثة من أجل استدرار رجولة زوجها ليتدخل دفاعا عنها .. لكن الأخير كان منصرفا تماما عن تلك الصغائر ومهتما بمشكلة " ثومة " وعقدتها التي لا تريد أن تنفك :

" ما تنخرسوا شوية خلينا نعرف نميل دماغ البت أم دماغ ناشفة دي .. تعالي يا ثومة ! "

كانت الفتاة قد عادت من المدرسة ودلفت إلي المنزل ورأوها وهي تمر هاربة إلي غرفتها .. لكنهم أمسكوا بها في نقطة محايدة وجروها جرا ليصدعوا رأسها ب" عبد الرحيم " وأمه والذي منه :

" تعالي يا أختي تعالي .. تعالي هنا أقعدي جنبي ربنا يهديكي يا رب ! "

كان الأخ الكبير يتبع نظام الحنان والطبطبة مع أخته ، علها تلين وتسمع الكلام وتتزوج العريس ، الذي ليس هناك غيره ، حتى تنزاح بعيدا عنه وعن البيت .. فخوفه الأكبر أن تموت أمه وتترك له فتاة عانسا تقعد في قرابيزه كعقب الحزون ٤٩ :

" تعالي يا ست البنات .. أقعدي هنا جار٥٠ أخوكي الكبير! "

مرغمة جلست " ثومة " بجوار أخيها الأكبر الذي وضع على وجهه قناعا من الحنان والرقة غريب عليه وعلى طبعه تماما .. جلست طاعة لرجاء أمها الحار.. لكنها كانت عازمة على ألا تدع أحدا مهما يكن يستدرجها ويجر رجلها لتلك الزيجة المهببة التي تعلم أنها لن تجلب عليها سوي النقار والمشاكل الدائمة والتعاسة بقية عمرها !

*****

حدثت مجادلة ومحادثة ساخنة ما لبثت أن انتهت بمشاجرة .. فعلوا كل ما يقدرون عليه .. الأم والولدين ، الأكبر والأصغر ، وزوجات الثلاثة أخوة لكنهم فشلوا فشلا ذريعا واضحا في إقناع " ثومة " أو إجبارها على الرضوخ لرأيهم .. ساعدها تأييد أخيها الأوسط لها وشجعتها تجربة مريرة حدثت قريبا أمام عينيها على أن تكون أصلب وأقوي عودا أمامهم .. لن تكرر تجربة زميلتها " إيمان " التي تعمل معها في نفس المدرسة أبدا ، ولن تسمح لهم أن يفعلوا بها كما فُعل ب" إيمان " المسكينة .. التي تزوجت رجلا متزوجا وله أطفال خوفا من العنوسة وسماعا لزن الأهل عليها .. وأنتهي الحال بها مطلقة بطفلين ومنهارة نفسيا وروحيا ومحطمة معنويا !

لن تكرر تلك التجربة .. وقفت أمامهم وحكت لهم عما حدث لزميلتها وأكدت أنها لن ترمي نفسها في النار التي ألقت غيرها نفسها فيها ، من أجل سواد عيونهم .. بل إنها ذهبت إلي أبعد من ذلك وعرضت عليهم أن تتولي الإنفاق كاملا على نفسها ، وألا تأكل لقمة واحدة من طعام البيت بل وهددتهم بتنفيذ ذلك إن هم واصلوا الضغط عليها ومحاولة سحرها بالزن المتواصل على أذنيها !

حزنت أمها لذلك الكلام الذي كان يؤلمها بحق ، ونهرها أخواها لتفوهها بتلك العبارات التي تعتبر انتقاصا من رجولتهم وكرامتهم .. مصمصت النساء بشفاههن وتظاهرن بالخوف على صالحها ، لكن رغبتهن في دفعها إلي أية زيجة ليتخلصن منها كانت واضحة جلية وفشلن هن في إخفاءه .. أخيرا انتهت الليلة بتسليم أخوتها لها وتركها لحال سبيلها داعين لها بالندامة والحسرة قريبا !

تركتهم مجتمعين وذهبت لتغير ثيابها وتغسل وجهها من غبار المعركة الحامية التي خاضتها لتوها .. المعركة التي خرجت فيها منتصرة لحسن الحظ بعد أن تعلمت أنه لا سلاح في مواجهة الدنيا أو في خوض معاركها أمضي من سلاح الصمود والإصرار!

ولم تكد الجلسة العائلية تنفض ، و"ثومة " الفرحة بنصرها الساحق تنزل إلي الصيدلية لتشتري شيئا خاصا لها ، حتى كانت " أم عبد الرحيم " تدق الباب .. استقبلتها أم " ثومة " في الصالة السفلية وقدمت لها شايا بنعناع وأخذت تلف وتدور حول الموضوع مكررة على أسماعها سلسلة من عبارات النصيب والحظ والمكتوب والأيام التي تغيرت ، وبنات هذه الأيام اللائي لم يعدن مثل بنات زمان .. سرعان ما فهمت المرأة أن طلبهم مرفوض ، فأحمر وجهها وسخن غضبا .. دفعت كوب الشاي بعيدا بحركة المقصود منها رد ضيافتهم لها وهتفت متعجبة :

" والله يا أختي إحنا كنا شارين نسبكم وعايزين القرب منكم أكتر.. لكن طالما البنات بقي هي اللي كلامها ماشي يبقي ملوش عازة الكلام مع الرجالة ! "

كانت المرأة الماكرة تنتقص من قدر رجولة أبناء المرحوم ، وتقصد إظهارهم بمظهر الرجال الخانعين ، غير القادرين على فرض إرادتهم على أختهم ، وإجبارها على الزواج من ابنها المحروس !

قطبت الحاجة حاجبيها وتكونت عقدة صغيرة في منتصف جبهتها وقالت مؤنبة بذوق :

" والله كل شي نصيب يا بت أبويا .. وأنتوا محدش أداكم كلمة ده كان سمك في ميه وملكمش نصيب فيه .. نعملوا أيه إحنا بقي وبصراحة ولدك ميعتبرش عريس أصلا .. ده صاحب مرة وعيال يا بت عمي وبتي بيضا

ومسبقلهاش جواز ولا فرحت زي البنتة .. هنغصبوها أول ما تدخل تدخل على مرة وعيال ؟! شوفيله واحدة من وئمه مش بت بنوت ! "

أبيض وجه " أم عبد الرحيم " وانفرجت أساريرها قائلة بسخرية دفينة:

" أهو بقي .. خليها قاعدة لما يجيلها الأبيض اللي زيها .. موت يا حمار لما يجيلك العليق ! "

ردت عليها أم العروس بغضب :

" ملوش عازة الكلام ده يا بت عمي .. أنت في بيتي ومش هينفع أرد عليكي .. خلينا حبايب أحسن زي ما كنا طول عمرنا ! "

نهضت " أم عبد الرحيم " دون أن ترد ، وتلفعت جيدا ببردتها ٥١ السوداء وغطت رأسها ، وخرجت وهي تردد غير مهتمة بما إذا كانت حرم المرحوم تسمعها أم لا :

" ولا حبايب بقي ولا حبايب الناس .. ما هي المحبة بانت أهي ! "

وهي خارجة كادت تصطدم ب" ثومة " التي عادت سريعا من الصيدلية القريبة .. فنظرت إليها باسمة متأملة وجهها غير الجميل وقالت بسخرية :

" أزيك يا عروسة أياكش تكوني بخير يا بت أختي ! "

لمحت " ثومة " نظرة السخرية مستقرة في أعماق عيني عدوتها فردت عليها فورا بلهجة مراوغة :

" إن شاء الله تسلمي يا مرت عمي .. ما أنت قاعدة شوية مونسانا .. دا أمي بتحبك وتحب قعدتك والله ! "

رفعت الأخرى حاجبها ومصمصت بشفتيها ، فواصلت " ثومة " فورا لتقطع عليها أية فرصة لفتح الموضوع ثانية :

" وأزي عيالك كده .. وأزي سي " عبد الرحيم " ومرته وبناته ؟ والله ولا ليكي على يمين يا مرت عمي " نعمة " دي زي أختي بالظبط ولا تستاهلش اللي بيجرا فيها ده أبدا ! "

نهرتها الأم بلطف لتسكتها : " ثومة ! "

لكن " أم عبد الرحيم " أجابت فورا بغل :

" أيه بقي اللي بيجرا فيها يا بت الرجالة .. ده نصيب واحدة ملهاش في خلفة الولاد يبقي نجيب الأحسن منها .. ولا المسكين يقعد طول عمره كده من غيرواد يقله يا أبايا٥٢ ؟! "

ضحكت " ثومة " وقالت لها مستهزئة :

" وهما البنات مش بيقولوله يا أبايا .. ربنا يرزقه من عنده يا مرت عمي! "

نظرت إليها الحماة بغيظ شديد لكنها زمت شفتيها وذهبت غاضبة .. أنتهي الأمرعند هذا الحد !

وبدأت اللفة الجديدة بحثا عن عروس يرضي " عبد الرحيم " الشملول بها .. أو ترضي هي به على الأصح !

*****

في مساء نفس اليوم كانت " نعمة " في غرفتها .. تركت البنات مع أمها بالخارج ودخلت غرفتها وأغلقت الباب على نفسها .. اعتقدت الأم أن بنتها تريد أن تنال قسطا من الراحة ، فهي تعرف أن البنات ، خاصة الصغيرتين " أسماء" و" حسناء " ، لا يعطونها فرصة للراحة ليلا أو نهارا .. لكن لو أقترب أي شخص من باب الغرفة المغلق وألصق أذنه به لكانت ستلتقط على الفور حديثا هامسا حذرا يدور في الغرفة .. ولأدرك أن " نعمة " ليست نائمة بل هي مستيقظة تفعل شيئا لا تريد لأحد غيرها أن يسمعه أو يعرفه !

وفي الحقيقة أن " نعمة " كانت تفعل شيئا سريا حقا .. كانت تتحدث في الهاتف المحمول !

فقد أهداها أخيها ، الذي يعمل مدرسا بالكويت ، هاتفا نقالا حديث الطراز مزود بكاميرتين وكافة الأجهزة الإضافية .. لكن لم تكن الكاميرات ولا الإضافات هي المهمة .. بالطبع لم يكن وجود هاتف محمول مع زوجة الابن أمرا غريبا أو مستهجنا فالكل هنا يعرفون بأمر الهاتف ويسمعونها تتحدث فيها علنا .. لكن " نعمة " لم تكن تريدهم أن يسمعوا هذه المحادثة بالذات !

على الناحية الأخرى كانت زميلة قديمة ل" نعمة " .. زميلة أنهت تعليمها مثل سائر الناس ، فلم يجبرها أحد على الخروج من المدرسة والزواج قبل أن يطير العريس اللقطة الذي لم يخُلق قبله ولا بعده ، أو تأخذه البومة وتطير..

كانت الأم الشابة تحادث صديقة لها من أيام المدرسة الثانوية .. تحرجت الآن من كلية التربية وتعمل بالتدريس .. وكان موضوع الحديث هو نفس الفكرة التي شغلت بال الزوجة منذ أيام ، وجعلتها لا تنتبه لموضوع " ثومة " ومحاولات الخطبة المتكررة من زوجها وحماتها .. كانت " نعمة " تفكر في استكمال تعليمها سرا !

" يعني أنا ينفع أنتسب في الثانوي وأذاكر منزلي وأروح على الامتحانات ؟!"

صمتت الصديقة على الناحية الأخرى ثم تساءلت بحذر:

" طيب هو جوزك هيرضي ؟! "

كانت تلك نقطة جوهرية لكن الزوجة كانت تتجاهلها عامدة فأجابت بغيظ :

" مش مهم جوزي دلوقتي .. المهم ينفع ولا مينفعش ؟! "

مسألة حياة أو موت بالنسبة ل" نعمة " ، التي أحست بأن أحدهم قد ألقي إليها طوق نجاة وهي تغرق ، عندما سمعت زميلتها القديمة تجيب مطمئنة :

" لا ينفع طبعا .. تقدمي منازل وتذاكري وتيجي على الامتحانات ! "

تنفست أم البنات نفسا عميقا ، وشعرت ببرودة محببة تسري في صدرها :

" طيب والنبي يا " سناء " يا أختي شالله ربنا يباركلك ممكن تسأليلي في الموضوع ده وتشوفيلي الإجراءات ! "

كانت " سناء " خدومة وحسنة الخلق طوال عمرها .. فلم يكن من الوارد أن ترفض لصديقة قديمة طلبا خاصة لو كان طلبا صغيرا هينا كهذا :

" طبعا يا بت .. عيوني ليكي بكرة هسألك وأجبلك العقاد النافع ! "

شكرتها " نعمة " بحرارة وقالت بحذر:

" وأنا مستعدة لأي مصاريف .. لو محتاجين فلوس للتقديم والورق وخلافه أنا هبعت لك الفلوس المطلوبة مع أخويا الصغير " هشام " .. ما هو عندك في المدرسة ! "

نهرتها " سناء " بلطف مظهرة الشهامة الصعيدية التقليدية :

" عيب يا بت .. أنتي بتتكلمي إزاي ! بكرة هقولك على المفيد .. بس لازم يا " نعمة " تاخدي رأي جوزك ! "

صمتت " نعمة " مليا حين جاء ذكر زوجها ، الذي تعرف قطعا أنه لن يوافق على شيء كهذا :

" هقوله طبعا بس بعد ما الموضوع يمشي ! "

بجدية قالت لها زميلتها القديمة موضحة :

" لا ما هو لازم تقوليله من الأول .. فرضنا رفض ومرضاش ؟ ممكن تقدمي وتلفي وتتعبي وبعدين يجي هو يقولك لأ هنعمل أيه ساعتها ؟ يبقي تعبنا طلع على فاشوش ؟ لا لا اسمعي كلامي .. قوليله بس أنتي الأول واتكلي على الله ! "

مغيرة مجري الموضوع هتفت " نعمة " فورا :

" حاضر حاضر .. بس والنبي يا أختي ما تنسيني ولا تنسي موضوعي .. حاكم الحكاية دي مهمة قوي عندي يا " سناء " .. مسألة حياة أو موت ! "

ردت المدرسة ضاحكة :

" يا ساتر يا رب .. ليه يا بتي ده أنت متجوزة وعلى حجرك أربعة .. آمال لو كنتي عنستي زيي ؟! "

كانت " سناء " تمزح بالطبع ولا تقصد ما تقوله لكن " نعمة " ردت على الفور متحسرة :

" يا أختي بلا هم .. بلا وكسة .. ده عايز يتجوز عليا ويجيبلي ضرة في قلب بيتي !

شعرت " سناء " بدهشة شديدة وهتفت غير مصدقة :

" نعم .. إزاي يعني ؟! ده طول عمر بيحبك وميت في العتبة يا بت .. ده حفي وراكي .. ليه بقي إن شاء الله أتجنن ولا دماغه ضربت ؟! "

بحزن مكبوت شرحت لها " نعمة " :

" عشان الواد يا أختي .. عايز الواد وأنا خلفتي كلها بنات عشان كده عايز يتجوز عليا ! "

على الفور قالت " سناء " مشمئزة :

" أخيييييييييه .. هما لسه الناس دي زي ما هما .. بنات أيه وولاد أيه .. ما هو هو السبب في خلفة البنات والولاد .. أنت مش فاكره دروس الأحياء ولا أيه ؟! "

" لا يا أختي .. أنا بعد ما أتزفت أتجوزت وخلفت مبقتش فاكرة حتى اسمي .. لكن الدكتور اللي بتابع عنده ربنا يباركله شرحلي الكلام ده وفهمهولي ، وأنا فهمته للمدعوق جوزي .. وعمل ودن من طين وودن من عجين ولا كأنه سمع حاجة .. وبرضه هو وأمه الحرباية ماشيين في موضوع الجوازة التانية دي ! "

سألتها " سناء " على الفور :

" وأنتي هتسكتي .. هتقبلي بحاجة زي دي يا بت ؟! أيه معندكيش كرامة ولا ليكي رأي ؟! "

بلا مبالاة ردت عليها " نعمة :

" خليه يتزفت ويغور بعيد عني .. أهو يتشال حمله وحمل أمه من عليا شوية .. خليها تناقر في مرته التانية وتكفر ذنوبها .. أياكش هو بس يوافق على موضوع العلام ده وأنا أبصم له بالعشرة وأقوله روح أتجوز يا أخويا ! "

ضحكت " سناء " فورا ضحكة مجلجلة رنت عبر الأثير وقالت مستهزئة :

" ده أنت باينك شايله منه ومعبيه .. بقولك يا " نعمة " .. "

لكن قبل أن تجد " سناء " الفرصة لتبوح لصديقتها القديمة بما تريد أن تقوله لها سمعت الزوجة الشابة صوتا يناديها بإلحاح من الخارج :

" يا " نعمة " .. يا " نعمة " .. تعالي بتك بتبكي ! "

كانت تلك الجدة ، والدة " نعمة " ، التي تجلس بالبنات بالخارج .. ومن خلف الباب تعالي بكاء مرتفع لطفلة صغيرة لا تعرف صبرا ولا هدوء .. سارعت

" نعمة " بإنهاء المكالمة مع " سناء " على وعد باستكمال حديثهم في أقرب فرصة .. وغادرت الغرفة وهي تردد بنفاد صبر:

" يقطع " نعمة " على اللي خلفوا " نعمة " ! "

*****

كان " عبد الرحيم " يجلس سابحا في سحابة من الدخان الرمادي ذو الرائحة النفاذة .. لم يكن بالبيت بل في دكان أحد أصدقائه من تجار الفواكه والخضر.. كان الرجلان يشربان الجوزة ويثرثران حول البيع والشراء والكساد والغش والزبائن الثقلاء والشكك ، وكل شيء يمكن لأمثالهما الثرثرة والتحدث بشأنه .. فجأة سأل المضيف الذي يجلس " عبد الرحيم " في دكانه :

" وأنت يا أخويا معاك أيه دلوقتي ؟ "

كان الرجل يعلم مسبقا أن لرفيق مهنته أربع بنات ، لكنه نسي بحكم كثرة من يتعامل معهم من تجار وزملاء ، ولأن دماغه ليس دفترا ملزما بأن يسجل كل معلومة ويحفظها دون نسيان .. نفخ حمدي نفس كثيف من صدره وكأنه يفش غله وقال بحزن :

" معايا أربع بنات يا عم الحاج ! "

ضحك الرجل وصدره يقرقر وقال ساخرا :

" مش عارفين يا أخويا أيه حكاية الحريم اللي معتجيبش غير بنات اليومين دول ؟ أنا عندي المرة جابت منهم تلاتة قبل ما تجيلي المحروس " هاني " والواد " على " .. عيقولك الناس بتخلف بنات من كتر وكل الفراخ اللي بيدوها حقن في المزارع والسمك كمان عيحقنوه في الغفاليق٥٣ دي اللي اسمها مزارع .. أصل العلاجات دي بتخلي الحريم تجيب بنات ! "

كانت تلك المعلومة العلمية الفظيعة جديدة على " عبد الرحيم " ، الذي طرطق أذنيه وقال مصدقا مؤمنا :

" والنبي صح يا أخويا ؟! ده أنا هحرم الفروج ٥٤والسمك على اللي عندي في البيت ! "

ضحك المضيف الذي كان يعمل فيما يبدو طبيبا في مستشفي العدس والبقوليات وقال:

" أيوه يا راجل خليها تجيب لك الواد وتفرحك بيه .. يقطع البنات ويقطع خلفتهم .. دول هينحلوا وبرك في جهازهم .. ربنا يعينك عليهم ! "

فجأة تعالي صوت ضجة من مكان قريب .. صراخ وزعيق وموجات من السباب والسباب المتبادل ، والشتائم القاذعة وتبادل سب الدين والخوض في سيرة الأمهات والزوجات والبنات .. كان هناك تاجرين من تجار السوق مشتبكين في خناقة حامية فيما يبدو ، وقد أجتمع السوق كله عليهما ، نصف يحجز بين المتخاصمين ، ونصف يزيد النار اشتعالا ويسخن من أوار المعركة .. خرج " عبد الرحيم " ورفيقه البدين فورا من دكان الأخير ، تاركين الجوزة تطلق الأدخنة في الهواء وذهبا ليلحقا المعركة قبل أن تنتهي وتفوتهما الفرجة المجانية والمشاريب !

كان هناك خناقة حامية بالفعل لكنها لم تكن بين تاجرين ، بل كانت بين تاجر طماطم وبين زبون شرس .. أشتري الزبون كمية كبيرة من الطماطم مرة واحدة من أجل إعداد طعام العشاء الخاص بفرح ابنه البكري .. أشتري قفصين لكنه عندما عاد إلي البيت وجد أغلب كمية الطماطم معطوبة وتالفة .. عاد للتاجر الذي باعه تلك البضاعة الفاسدة وأمسك بخناقه :

" بقي بتضحك على وتدسلي ٥٥ الطماطم المعفنة من تحت يا حاج " بدوي " .. عيب على شيبتك يا راجل ده إحنا زباينك من زمان وخدنا الحاجة على عمانا عشان فاكرينك هتصون العيش والملح ! "

غضب الحاج " بدوي " ، الذي كان من أكبر تجار الخضر بالمركز كله وأعلاهم كعبا ، من ذلك الاتهام الخطير الذي يمكن أن يؤثر على سمعته وسط زبائنه ويؤدي لدمار مبيعاته وتقليل رزقه الداخل .. وهتف واللعاب يتطاير من بين شدقيه المنتفخين :

" بقا أنا هبيعلكم طماطم معفصة يا راجل يا ناقص .. تلاقيكم أنتوا بس من غشمكم رموتها في التوكتوك قوم أتهرست وأتعفصت منكم .. ما أنا عارفكم يا بيت اللبودي طول عمركم غشم ومستعفيين على الفاضي ! "

حميت المعركة بعد تلك الاتهامات المتبادلة ، وحميت وتيرة النضال الثوري حتى كاد الرجلان يفتكان ببعضهما حقا .. تدخل التجار وبعض الزبائن من محبي تهدئة النفوس بينهما ، فزادت المعركة اشتعالا .. هدد الزبون بحمية وعصبية :

" أنت فاكرنا ساهلين ولا أيه .. ده أنا عندي سبع رجالة يقطعوك ويقطعوا اللي جابوك كلهم .. "

ألقي تهديده ثم بدأ ينفذ فعلا .. صرخ في غلام نحيل يقف خلفه أمرا :

" روح يا واد يا " عبد العزيز " نادي أخواتك .. قولهم يجيبوا الزقل ٥٩ معاهم .. والله لدشدشه على نافوخك في نهارك المربرب ده ! "

كان ذلك تهديدا خطيرا جدا يهدد بقلب المعركة الفردية بين زبون وتاجر إلي معركة حامية بين عائلتين .. وربما أنتهي الحال بثأر بائت بين الطرفين إن سقط في المعركة ضحايا من أي من الطرفين .. تدخل الجميع لإيقاف المعركة الآن قبل أن تتطور أكثر من ذلك وتتصاعد في عنفها .. حجز عدد كبير من

الرجال بين الطرفين ، وباعدوا بينهما ثم بدأت محاولات التهدئة ولم الشمل ، وإنهاء الأمر بأقل خسائر ممكنة .. كان " عبد الرحيم " من الذين تدخلوا لحجز الطرفين والمباعدة بينهما .. كان يسمع السباب والشتائم المتبادلة ، ويري القبضات ترتفع منذرة بالويل والثبور .. كان موجودا مع الموجودين ويحاول أن يقول كلمة طيبة يأخذ عليها ثوابا في حق هذا الطرف أو ذاك .. لكن ذهنه كان منصرفا إلي أمر آخر تماما .. إنه التهديد الذي تلقاه الحاج " بدوي " من غريمه !

لقد هدده بأولاده الذكور .. بالرجال الذين أنجبهم من صلبه ليحموه ويمنعوه في يوم قمطرير كهذا .. تري ماذا سيكون مصيره لو أنه دخل في معركة مماثلة ، مع تاجر أو زبون ، الآن أو بعد سنوات ؟!

إلي من سيستند وبمن سيهدد الغريم ؟!

إنه عاري الظهر ومكشوف ولا ولد يسنده أو يحمي ظهره .. إنهم هنا يفتقدون لقوة القانون واحترامه وهيبته فيستبدلونها بهيبة العصا وبقوة الولد !

ملأه السخط الآن .. على نفسه الخانعة الصابرة ، وعلى زوجته أم البنات ، وعلى من رفضنه من النسوة ، وعلى تلك الفتاة المتعجرفة التي لا تساوي مليما صدئا ابنة الحاج " عطا " .. إنه يريد الولد الآن !

يريده أكثر مما أراده طوال عمره .. سيكسر رأس " نعمة " إن اعترضت أو فكرت في ذلك .. وسيأتي بالزوجة الجديدة في غضون أسبوع .. إنها موجودة أمامه بالفعل منذ زمن .. فكيف لم يفكر فيها من قبل ؟!

مال على مضيفه الذي عاد يعب من أنفاس الجوزة مستطيبا إياها وبدأ يحادثه في أمر مهم .. فتح له التاجر الآخر أذنيه وأخذ يهز رأسه راضيا مغتبطا !

(٦)

بنظرات مخيفة أخذ الأب يرمق " مروة " الخائفة أمامه .. دفعتها أمها لتجلس بجوار أبيها مباشرة ، وهي تردد عبارات السلام محاولة إطلاق الحمام الأبيض ليرفرف فوق الجلسة العائلية المليئة بالتوتر .. لكن الحمام أخذته الفرة ٦٠ فلم يبق حمام ولا يمام ليرفرف على الجلسة التي أخذ البوم ينعق فوقها سعيدا !

أظهر الأب قليل من التفهم وكثير من العناد والتشبث بالرأي .. كان تغيير ابنته لمسار دراستها بالنسبة إليه نوعا من انعدام التربية إنكار الجميل !

إنها يريدها أن تكون طبيبة ليطلقوا عليه (أبو الدكتورة) متباهيا بشهادتها وبالسماعة وهي مدلاة كحبل مشنقة على صدرها .. وكونها تفكر في غير ذلك ، أو تقرر لنفسها عكس ما قرره هو لها لهو جريمة ترتكبها في حق أبيها الذي يطعمها ويسقيها وينفق عليها .. لتكون مثلما يريد هو أن تكون وليس مثلما تريد هي !

حدثها برفق في البداية وأخذ يعدد محاسن العلمي مكررا جملة :

" شوفي بقي لما تبقي دكتورة قد الدنيا .. ويقولولك يا دكتورة " مروة " !"

ارتعشت " مروة " خوفا لأنها تبدي اعتراضا في حضرة أبيها لأول مرة في حياتها وهتفت منتقية كلماتها بحذر:

" ما هو مش كل الناس ينفعوا دكاترة يا بابا .. في ناس ربنا خلقهم عشان يكونوا حاجات تانية وأنا مش حابة العلمي بصراحة ! "

تكلمت برقة وصراحة وسردت مبرراتها وكانت مبررات ، والأب يعرف ذلك ، قوية جدا ومقبولة .. إنها لم تجد نفسها قادرة على مواصلة الدراسة في القسم العلمي فبأي عقل يجبرها على ذلك ؟!

لكن تفهم الأب شيء وإصراره على تنفيذ أوامره شيء آخر .. لأنه يري الأمر من منظور مختلف تماما :

" خدي دروس في كل المواد .. خدي عند أكبر مدرسين ومهمكيش الفلوس .. من جنبه لألف أبوكي مستعد بس أنت تتكلي على الله وترجعي علمي ! "

ماذا تقول لمثل هذا الرجل .. بالله ماذا تقول له ؟!

إنه لا يفهم أن هناك شيء اسمه ، قدرات ، رغبات ، ميسرات خُلق لها كل فرد منا .. ما فائدة أن تدرس شيئا تكرهه ، أو لا تحبه على الأقل ، ما ضرورة أن تكون طبيبة أو خلافه .. ما الضرر في أن تكون هي مثلما تحب وتهوي .. مثلما هيأها ربها وخلقها وعلى طبيعتها دون تكلف ولا تمثيل ؟!

" بابا .. أنا بحب الأدبي .. ونفسي .. نفسي أطلع كاتبة أو صحفية ! "

خبطت الأم على صدرها معبرة عن الرعب الذي أصابها .. بينما زم الأب شفتيه وفكر قليلا ثم هتف بغيظ :

" ما شاء الله عايزة تبقي جورنالجية ولا مندوبة إعلانات يا ست البنات ؟! "

كان يتكلم بهدوء محبط مغتاظ في البداية ، ثم ما لبث أن أنفجر مطلقا حممه في وجهها :

" كاتبة أيه وصحفية أيه يا بت المركوب ؟! أنت فاكرة أن دي مهن عليها القيمة .. دول شحاتين وعايشين على الكلمتين اللي بيكتبوهم في الجرايد اللي محدش بيقراها والإعلانات اللي بيلموها من هنا ومن هنا زي الشحاتين .. بقي أنا ربيتك وتعبت فيكي وصرفت عليكي دم قلبي عشان تطلعيلي صايعة تلفي على المكاتب والشركات على آخر المتمة ! ما تتعدلي يا بت وتبصيلي وأنا بكلمك .. "

كانت " مروة " قد نكست رأسها بينما كان أبوها يطلق وابلا من التأنيب العنيف عليها .. كانت عاجزة عن النظر إلي عينيه ، وعاجزة عن مواجهته !

ارتعشت خوفا إذ كانت تلك أول مرة تري أباها منفعلا عصبيا بهذه الطريقة .. تدخلت الأم فورا لتسكب ماء باردا على النار المشتعلة. فقالت وهي تدير عينيها بين زوجها الغاضب وابنتها التي امتلأت عيناها بالدموع :

" خلاص خلاص يا أخويا .. هي معدتش تعصاك ولا تكسرلك كلمة تاني .. بكرة هترجع العلمي يا أخويا وتعمل كل اللي أنت عايزه ! آمال .. دي " مروة " دي البكرية وحبيبتك وطول عمرها طوع أيدك .. مش كده يا " مروة " ؟! "

لاذت " مروة " بالصمت المفجع .. فلكزتها أمها بمرفقها هينا لترد وكررت مؤكدة :

" مش كده يا مروة ؟! "

لم تعرف البنت بما تجيب .. كانت خائفة من أبيها بقدر ما كانت تكن له حبا حقيقيا وتتمني لو أنها تستطيع أن تطيعه وألا تغضبه مهما حدث .. لكن هل تستطيع البقاء في القسم العلمي ؟!

هل يمكنها مواصلة الدراسة فيه وأن تحرز من التفوق المطلوب ما هو كاف لتحقيق طموحات الأب لا طموحاتها هي ؟!

بكت الآن وسالت الدموع من عينيها .. أحست بالضعف وتضعضعت ثقتها بنفسها .. شهقت متألمة مختنقة ووقفت الدموع في حلقها كغصة سائلة لا تستطيع ابتلاعها ولا تستطيع تركها .. من بين النشيج هتفت أخيرا مذعنة متألمة :

" حاضر يا بابا .. اللي تشوفه !"

أفرخ روع الأم وتشهدت مكررة الحمد والشكر لله .. بينما ابتسم الأب سعيدا راضيا بنصره .. وأراد أن يكافأ ابنته على طاعتها فمد يديه في جيبه ، وأخرج لها رزمة من أوراق النقود الحمراء التي تلمع أحبار البنك المركزي المصري عليها ودفعها إلي الفتاة الباكية وهو يقول مهدهدا إياها كرضيع باك:

" جدعة .. كنت عارف إنك مش هتزعلى بابا منك .. بكرة روحي سوهاج مع ماما خليها تجبلك كام طقم حلوين وكمان هاتي موبايل جديد أحدث طراز! "

أخذت الأم تلهج مرددة الدعاء إلي الله بأن يحفظه لهم ويمد في عمره .. بينما " مروة " تواصل بكائها في صمت !

*****

كان من الصعب جدا أن تعود طالبة إلي قسم طلبت بنفسها الانتقال منه منذ أيام قليلة .. كان التحويل ثم التحويل العكسي أمرا غير متكرر كثيرا ، وإدارة المدرسة الثانوية التي تدرس بها " مروة " لا تجيد التعامل مع تلك الحالات بسبب البيروقراطية الزائدة والتعنت الإداري الغبي .. لكن نفوذ والد الفتاة وأمواله ، ومعرفته ببعض المسئولين الكبار في الإدارة التعليمية التي تتبعها المدرسة ، يسر الأمور كثيرا وسلك كافة السكك المغلقة المسدودة بالحجارة .. عادت " مروة " تجلس في نفس فصلها الأول ، وتتلقي نفس الدروس العلمية التي تعجز عن استيعابها .. فاتتها بضع دروس خلال الأيام القليلة التي قضتها في القسم الأدبي ، لكن الأب طمأنها أنه أتفق مع مدرسيها الخصوصيين على أن يخصصوا لها حصصا فردية مكثفة بأجر مضاعف ليتاح لها استكمال ما فاتها واللحاق بالأجزاء التي يجري تدريسها حاليا من

المناهج .. كان واضحا أن الأب مستعد لدفع أية مبالغ أو تكبد أي نفقات مهما كانت لمجرد أن تحقق ابنته حلمه في أن تصبح طبيبة !

لكن " مروة " أخطأت في حق نفسها حين تنازلت عن حقها في اختيار الدراسة التي تريد أن تسير في مجراها .. فما لبثت أن اكتشفت خطأها مبكرا جدا .. فبمجرد أن عادت للدراسة في فصول القسم العلمي حتى بدأت بوادر الاكتئاب تظهر عليها !

كانت تجتهد كعادتها ، تصحو مبكرا وتعد حقيبتها ، تذهب إلي المدرسة وتنصت إلي المدرسين وهم يشرحون دروس الفيزياء والكيمياء والرياضيات ، أو على الأقل من كان يفعل منهم ذلك ، تنصت محاولة الفهم لكنها كانت تعجز عن ذلك دائما .. ليس لأنها غبية بل لأنه ما إن يبدأ أحد المدرسون في الشرح حتى تداهمها أحلام يقظة جهنمية تمسك بتلابيبها .. وتغرق فيها شيئا فشيئا عاجزة تماما عن شحذ حواسها لمتابعة المدرس ، الذي تخرج الكلمات من فمه في شكل سحب رعدية غامضة ملفوفة بضباب أسود .. تغرق " مروة " تدريجيا في حلم يقظة يبدو ملونا زاهيا ، تداهمها فكرة قصة أو تهاجمها أفكار شعرية ، وتري الكلمات تنثال أمامها مداعبة إياها باسمة لها ، يعمق المحيط الذي تعوم فيه تدريجيا ويسحبها التيار حتى الأعماق .. لكنها ما إن تصل لقاع المحيط حتى تصطدم قدمها بصخرة ناتئة هناك ، وتسمع صوتا يناديها باسمها .. تفتح عينيها لتجد نفسها في الواقع تجلس جافة تماما على مقعدها المعتاد بالفصل ، وتري الضوء حولها أشد وضوحا ووطأة وتسمع ، للمرة الثانية ، اسمها مصحوبا بدعوة حازمة لطيفة من فم مدرس يعرف والدها جيدا :

" مروة .. ما تخليكي معانا يا بنتي .. ركزي ! "

لكن في أي شيء تركز " مروة " ؟!

إنها لا تري في العالم حولها سوي مجموعتين من الألوان .. مجموعة يغلب عليها اللون الأزرق المائي الهادئ حيث تسيطر عليها أحلامها .. ومجموعة غارقة في ألوان صاخبة متداخلة يغلب عليها الأحمر بقسوته وصراحته تلفها حينما تكون في الفصل تسمع دروسا لا تكاد تفهم منها شيئا .. أو في البيت حيث يحيط بها من يصرون على مناداتها ب(الدكتورة مروة) !

أخيرا وبعد أن تكدست الأحلام والرؤى فوق رأسها وأثقلته خطرت لها الفكرة التي كان يجب أن تخطر على بالها منذ البداية .. لماذا لا تسجل كل هذه الأفكار والكلمات وتحتفظ بها وتحافظ عليها من الضياع والتلاشي والنسيان !

كانت معتادة على شخبطة أفكارها هنا وهناك ، على قطعة ورق أو غلاف كراسة أو حاشية سفلية بيضاء في كتاب ، لكن الفكرة التي نضجت بداخل رأسها المفعم بالأماني الآن هي أن تفعل ذلك بشكل منتظم متواتر .. حملتها الفكرة على أجنحتها بقية اليوم وجعلتها تحلق في عالم تنهمر فيه القصص والأشعار كما تنهمر السماء مدرارا على أرض عطشي طال بها الري المتقطع الذي هو أشد وطأة من ألف عام من العطش الكامل .. بمجرد أن أنتهي اليوم الدراسي طارت خارجة تاركة صديقتها ورفيقتها في الفصل " بسنت " ، متظاهرة بأن تيار البنات قد دفعها خارجا قبلها لتنتظرها على الباب ، وجرت إلي مكتبة تقع بالقرب من المدرسة وابتاعت كشكولا ١٠٠ ورقة ودسته خلسة في حقيبتها !

لم يكن من المستهجن أبدا أن تشتري طالبة تدرس في الصف الثاني الثانوي وتأخذ دروسا خصوصية في كل المواد تقريبا ، كشكولا جديدا كل يوم .. لكن " مروة " فعلت ذلك سرا لأن " بسنت " كانت من النوع الحشري و (ميتبلش في بقها فولة) كما أنها لحوحة حد السماجة .. وإذا رأت " مروة "

وهي تبتاع الدفتر الجديد فلابد أن تسألها ، وهي تبتسم عن أسنانها المشوهة التي زادها التقويم الذي تستخدمه تشويها وقبحا ، قائلة :

" عايزة الكشكول ده عشان أنهي درس فيهم ! "

سترد عليها " مروة " حتما مغيرة مجري الموضوع :

" عايزاة عشان المدرسة ! "

لكنها ستعود حتما لتسألها وقد ألتمعت عيناها بنظرة قط فضولي لا يوقفه عن تدخله إلا قضم رقبته :

" بس محدش من المدرسين طلب كشاكيل تاني .. وأنت معاكي كشاكيل كتير .. وليه جايباه ١٠٠ ورقة .. ده كبير وممكن يقعد نصه فاضي .. وبعدين ده ورقة أبيض ولماع وحلو وخسارة في المدرسة دي .. بقولك جبتيه بكام ؟ طيب هتكتبي فيه أيه ؟ طيب هاتي فرخ منه عشان أوريه لبابا يجيبلي ورق نضيف زيه من الكويت عشان دايما بيجيب لنا ورق أصفر ومعفن .. طاب هو نوعه اسمه أيه ؟ طيب .. "

" بس ! "

لابد أن تصرخ " مروة " في وجهها حتى تصمت وتخرس نهائيا !

ولأنها في غني عن هذا كله .. فقد فعلت الفتاة الصواب وابتاعته سرا وكأنها تبتاع شريط برشام ترامادول !

*****

في تلك الليلة شعرت " مروة " بالسعادة تطوقها وتلفها بين ذراعيها .. كان لديها واجب فيزياء ثقيل متراكم يجب أن تؤديه الليلة لتعرضه على الأستاذ غدا في المدرسة .. لكن من قال إن الأستاذ سيهتم بالحصة أو بالواجب غدا ؟!

إنهم لا يهتمون سوي بحصصهم ودروسهم الخصوصية .. فالطلبة يدفعون في المنازل لكنهم لا يدفعون في المدارس !

الطالب في المدرسة هو عالة وكم مهمل ، أتت به الحكومة من بيت أبيه ووضعته على مقعد متهالك ، وكدست من كليهما ، الطلبة والمقاعد ، كم هائل وحشرتهم حشرا في كل فصل .. والمدرس يتعامل معهم كما يتعامل الكمسري مع ركاب مكدسين في أتوبيس ، لا يهتم سوي بقطع التذاكر لهم حتى ينزل كل منهم في محطته وينزاح ويغور بعيدا عنه .. لكن الطالب في المنزل ، في الدرس الخصوصي ، هو زبون .. زبون يأتيك ليضع ساقا على ساق ويدفع لك ويشتري خدماتك التعليمية .. ولأنه زبون فهو دائما ، هنا وليس هناك ، على حق .. فالزبون ، كما تشير مسلمات الثقافة المجتمعية ، دائما على حق !

لكن " مروة " لم تكن راكب أتوبيس ولا زبونا تلك الليلة .. كانت ملكة تجلس على عرش مملكة لا رعايا فيها سوي الكلمات .. وماذا يعني واجب الفيزياء الثقيل أمام هذا الجمال الذي أخذ ينثال منها على الورق !

كانت تلك أول مرة تكتب فيها قصة تمسك بفكرتها .. ليست شخبطة ولا قطعة صغيرة ولا ندفه مقصوصة من أي شيء .. بل روح وحياة وعمل كامل يولد حيا ، يصرخ ويتنفس ويبكي ويرفص بقدميه ، على الورق !

إنها قصة عن فتاة تحلم ، مثلما تحلم هي لكنها ، بعكسها هي ، تحقق حلمها وتناله بعد جهد وكفاح .. لماذا يكون للحلم على الورق تلك السهولة واليسر .. لماذا يستطيع أبطال القصص تحقيق أحلامهم ، مهما كانت عسيرة ، على الورق بوسائل تبدو ناجحة تماما في الخيال لكننا إذا جربناها في الواقع فشلت فشلا ذريعا ؟!

ألأن عالم الخيال لا توجد حكومة ولا أبوين متسلطين فيه .. أم لأنه عالم غير موجود كليا ؟!

سؤال غامض سألته البنت لنفسها وهي تظل عاكفة على أوراقها ليال كثيرة بعد ذلك .. نسيت الفيزياء والكيمياء ، وتجاهلت دروس الرياضيات الصعبة وبقي معها حل ذلك اللغز الصغير .. لماذا عجزت عن تحقيق حلمها الصغير ؟!

ما عيب أن يتركونها تكون مثلما تريد هي أن تكون .. شاعرة أو كاتبة تنمو بداخل رحمها البكر الآن فهل تجهضها أم تكتم أنفاسها في مهدها ؟!

لكن المدرسة لا تعرف شيئا من هذا ولا الأبوين .. لذلك فعندما أشتكي بعض المدرسون لوالدها من قلة تركيزها في الفصل ، أو في الدرس الخصوصي ، وانعدام رغبتها في التحصيل .. أتي بها أبوها عنده وعنفها بقسوة مذكرا إياها بأنعمه عليها !

الثياب التي يشتريها ، والفلوس التي يدفعها من دم قلبه للدروس ، والأجهزة الحديثة التي يضعها في يديها ، والبحبوحة التي تعيش فيها دونا عن معظم بنات البلد .. كل هذه ديون مستحقة عليها تسديدها !

نكست رأسها ولم تجب .. فقد تعلمت أن المراوغة هنا ، وليس الكذب ، هو حل معظم المشاكل وعلاجها !

فبأي شيء يفيد مكاشفتها لأبيها بما يعتمل في نفسها ؟!

لن يفهمها أبدا ولن يحاول حتى أن يفعل .. لكن الامتحانات لا تنتظر تفهما ولا تفاهما ولا تقف عند باب مملكة الخيال مستأذنة بخفر وحياء .. الامتحانات هي امرأة لعوب مكشوفة الوجه مطلية السحنة بمختلف الألوان وبمتنافرها ومبدأها الأساسي :

" والله إن كان عاجبك ! "

*****

شعرت " مروة " بالفزع حينما نظرت إلي التقويم المعلق فوق حائطهم ذات يوم لتجد نفسها في قبضة شهر مارس الممل الطويل .. الشهر الذي يقلل الفاصل بينها وبين امتحانات آخر العام لثلاثة أشهر وحسب !

ثلاثة أشهر، وهي لم تكد تبدأ بعد ولم تمسك بخيوط أي مادة من المواد الثقيلة الملقاة على كاهلها .. كان من العجيب حقا أنها لم تتنبه لمضي الأيام السريع هكذا لكنه لم يكن عجيبا تماما .. فقد كانت تسير داخل رأسها مثلها مثل الذي يمشي داخل حذائه معتقدا أنه قطع الطريق وأنهاه ، بينما هو يقف على الرصيف متأملا حركة السيارات من حوله .. لن تتوقف السيارات عن المروق من أجل خاطر عينيه وعليه هو أن يجد طريقا لينسل من بينها .. كانت الأيام تلعب مع البنت ذات اللعبة !

تتركها تمشي كيفما أحبت في خيالها معتقدة أنها كادت تصل ، بينما هي تمر من فوقها ومن حولها تاركة إياها تقف محلك سر لا تشعر بشيء يجري حولها .. لكنها عندما فتحت عيناها على التاريخ المارسي المقيت أدركت أي ورطة كبيرة تنتظرها !

إنها ببساطة لم تكد تمسك بخيط أي مادة من المواد الثقيلة المكدسة فوق رأسها .. لقد قضت شهورا تحلم وأفاقت من الحلم لتجد الدنيا واقفة تضحك عليها وتقول لها هازئة :

" صباح الخير.. نوم العوافي يا حبيبتي ! "

ذعرت وشعرت بالرعب .. كانت تغمض عينيها اتقاء لشر هذا اليوم ، اليوم الذي تجلس فيه في لجنة امتحان الثانوية العامة ، لتوضع أمامها ورقة مليئة بالأسئلة في الرياضيات والفيزياء والكيمياء .. ورقة تعرف جيدا أنها لن تستطيع أن تجد إجابة لكل ما تلقيه عليها من أسئلة بوقاحة وسماجة وقلة أدب !

هرعت إلي غرفتها لتجد كومة كتبها وكراساتها وكتبها الخارجية تقبع فوق المكتب .. كعيني تنين تستنيمها حتى تنفخ في وجهها النار!

أحست بلسع النار وحرارتها على بشرتها فعلا ، فرفعت يديها غريزيا تحمي وجهها .. ما الذي سيفعله أبيها بها إن رسبت ؟!

لن يتفهم أبدا أبدا كونها لا تحب المواد التي تدرسها ، ولا كون عقلها عاجز عن متابعة واستيعاب تلك المواد .. فالبطن المليئة والجيب المتدفيء بالنقود يجب أن يجيد ، في عرفه وعرف الناس هنا ، كل شيء .. يجب أن تعرف (الكوفت) نفسه وإلا فالنقود التي تنفق عليها خسارة فيها !

جلست على مقعدها تتطلع لكوم الهم الذي ينتظرها .. أية نتيجة تجدي من محاربة طواحين الهواء ؟!

لكنها يجب أن تحاول على الأقل .. تحاول وإلا فلتنتظر نتيجة سيئة في المدرسة ونتيجة أكثر سوأ في البيت !

*****

ومن قال أنها لم تحاول ؟!

بدأت يومها الجديد بالجد محاولة على الأقل أن تنقذ ما يمكنها إنقاذه .. يمكنها أن تفسر لأبيها حصولها على درجات أقل مما يتوقع ويطلب ، وهناك مائة عذر مقبولة تساق في مثل هذه الحالات ، صعوبة الامتحانات ، أو الإجهاد العقلي ، التوتر ، الحر ، والحر عذر مناسب جدا ، وعدم وجود مياه باردة أو تهوية في اللجان ، أو حتى عين الحسود التي أصابتها وجعلتها تصاب بالنحس المسوجر ، ولا تتمكن من التفوق مثلما تريد .. أعذار كثيرة جاهزة للتدني والحصول على درجات ضعيفة .. لكن أي عذر مقنع لرسوبها وسقوطها النهائي ؟!

إنها تعرف جيدا حقيقة الأمر.. لم تدخل معلومة واحدة من كومة المواد العلمية في رأسها !

لم تدخل لتخرج فرأسها هواء .. كيف تستطيع أن تأكل لقمة تعافها نفسها ؟!

هذا ما كانت عنه تحيد وتتجنب التفكير فيه .. قضت شهورا تخطط حياة آخرين على الورق بينما حياتها تضيع من بين أصابعها .. شعرت بالذعر حينما تخيلت ما الذي يمكن أن يصنعه أبيها في حالة رسوبها !

ملأ الماء المثلج جوفها وتكدست قطع الثلج في معدتها .. لن يرضي الرجل بهذا ولن يتقبله مهما حدث !

سيرميها بالبلادة والغباء والاستغراق في أحلام اليقظة ولن يقبل لها عذرا ولا فيها شفاعة .. إنها تعرفه حينما يكون راغبا في شيء !

وهو يرغب في أن تتخرج كطبيبة .. ومعني هذا أنها إما أن تفعل وإما أن تتلقي وعدها ولا تشكو متألمة !

جالت عيناها بين أكداس الكتب والمذكرات .. شعرت بأنها تجول بين صخور حادة تبرز منها حواف مسننة ستخرق لحمها إن لمستها !

للمرة الثانية شعرت بقبضة ثلجية تعصر أمعائها ثم تلويها .. أي جريرة ارتكبت لتعاقب عليها بهذا الشكل ؟!

فتحت كتابها الأول .. كان كتاب الفيزياء ، فقد اختارت مجموعة الفيزياء والميكانيكا في المرحلة الأولي ، بينما أجلت الأحياء والكيمياء للمرحلة الثانية ، لكن ليس ثمة فرق بين هذا وذاك .. فإن لم تمت بالسيف فستموت بغيره والسم والسيف وغيرها متوفرة بغزارة والحمد لله في نظام الثانوية العامة المصرية !

فتحت كتاب الفيزياء لتجد أمامها عجبا .. موضوعات ومسائل ونظريات وقوانين رياضية شديدة التعقيد ، أشياء وكأنما تراها للمرة الأولي أو كأنها لم تسمع عنها من قبل .. أهي الخيبة الفيزيائية وحدها ؟!

لا وربها فقد بليت بخيبة كاملة وجهل تام بمحتوي بقية المواد من المدفعية العلمية الثقيلة .. متى يمكنها جمع هذه الأشتات وصنع مزيج من هذه الأخلاط الكريهة صالح للوضع داخل رأسها الخاوية ؟!

غمرها اليأس والحزن والكآبة وهاجمتها البرودة في أمعائها للمرة الثانية .. وشعرت ، للمرة الأولي ، بغثيان هائل ومعدتها تكاد تندفع إلي الخارج حاملة قرف الدنيا كلها واشمئزازها ومكروهاتها .. اندفعت إلي الحمام لتفرغ معدتها فشعرت بمغص يلوي أحشائها .. أفرغت معدتها ثم أمعائها وظلت نصف ساعة في الحمام تتبادل إفراغ هذه وتلك حتى دارت الدنيا من حولها وشعرت بأن البيت سينهد فوق رأسها !

شعرت الأم بما يجري لابنتها فسارعت تدق الباب الحمام ، الذي اختفت خلفه منذ وقت طويل ، بإلحاح وتهتف بقلق :

" مالك يا بت يا " مروة " ؟! "

تمالكت " مروة " أنفاسها وردت بصوت خائر ضعيف :

" سلامتك يا ماما .. بس عندي شوية مغص ! "

" سلامتك يا أمي .. أغليلك شوية ياسون ٦١ بالنعناع ؟! "

وكأنما الينسون بالنعناع فيه شفاء لكل آلامها تعلقت البنت بهذا الاقتراح والأمل التافه تعلق الغريق بهشيم قشة وقالت فورا :

" أيوه والنبي يا ماما ! "

هرعت الأم لتنفذ طلب ابنتها .. بينما داهمت نوبة غثيان وحرقان جديدة أحشاء " مروة " .. فسقط رأسها فوق الحوض التي تلطخت جدرانه بقيئها المائي السائب !

*****

خرجت من الحمام بصعوبة ووجها مصفر وباهت وعيناها غائمتان .. كاد قلبها ينخلع من عنف القيء وشعرت بشيء يتمزق ويعلو ويهبط داخل صدرها .. قلبها لا يريد أن يستقر مكانه ويدق كالهاون في أذنيها .. لكنها لابد أن تقاوم كل هذا !

كانت الأم قد جهزت المزيج السحري الذي سيخفف آلام ابنتها وسارعت بتقديمه لها ساخنا :

" أشربيه وهو سخن يا أمي عشان يخفف معدتك ! "

شكرتها " مروة " بهزة رأس وهي تكاد لا تنطق فرمقتها الأم بنظرة قلق طويلة :

" أنت قلقانة يا بتي من الامتحانات .. متخافيش إن شاء الله مجبورة الخاطر ! "

تعلقت " مروة " بذلك الدعاء المنطلق من قلب يحبها بصدق ، وهتفت مستجدية المزيد من هذا الدعاء الذي يطمئن القلوب :

" أيوه والنبي يا ماما .. أدعيلي دايما .. أدعيلي في كل صلاة ! "

قبلتها الأم على رأسها وهي تدفع الصينية التي عليها الكوب الحاوي للمشروب الأصفر الخفيف ناحية طرف المكتب لتكون أقرب ليد ابنتها وقالت لها مؤكدة ومطمئنة :

" داعية لك يا أمي في كل وقت وكل صلاة .. اللهي ربنا يكتبلك النجاح وتطلعي دكتورة قد الدنيا ونتفاخروا بيكي قدام الناس كلهم ! "

تجهمت " مروة " حينما وصل قطار الدعاء إلي تلك المحطة المهجورة .. لابد من أن تكون طبيبة إذن ؟!

فليكن ..

ستحاول أن تحقق لها أمنيتهم .. لكن ماذا لو أنها فشلت أو عجزت أو تغلبت مقاومتها السلبية على عقلها الواعي الراضخ تماما لعنفوان الأب وتطلعاته الوظيفية .. ما الذي سيبقي لها لتعيش من أجله إن وقفت أمام أبيها لا يسترها عن عيونه الحارقة مجموع كلية الطب ؟!

*****

عكفت على كتبها منذ اللحظة .. كانت تبذل جهدا هائلا لتقاوم خيالاتها المندفعة داخل رأسها كتيار كهربي عالي التردد .. فتحت كتبها وانتقت أسهلها على رأسها المنفجر يأسا .. لم تكن هناك مشكلة في اللغة العربية أو الإنجليزية ، أو التربية الوطنية أو الفرنسية .. تفهم كل حرف والقليل الذي يستعصى على فهمها يأتي خانعا بقليل من الاستذكار الجيد .. لكن كومة المواد العلمية بقيت كصخرة هائلة تسد عليها الطريق .. وحوش الفيزياء المتشكلة في هيئة معادلات ورموز وقوانين رياضية داست على رقبتها حتى كادت تزهق روحها .. الكيمياء نفثت في وجهها سموما كاوية وأحماضا حارقة .. صعقتها الرياضيات وجثمت فوقها الميكانيكا ككابوس لتلفظ أنفاسها تحتها .. متى يمكنها التصالح مع كل هذه الأشباح !

وفي لحظة مريرة وجدت نفسها تضعف .. وجدت نفسها تلوذ من حمي هذه الوحوش الضارية الباردة بدفء كراستها السرية وتتغطي بخيالها من زمهرير الواقع الذي يصيبها بالقشعريرة .. أمسكت بكراستها وكتبت قصيدة

صغيرة .. بضع كلمات لكنها كانت تشرح بأوضح المعاني وأكثرها اختصارا حالتها .. رثت نفسها بقصيدة ميمية ولم تراعي وزنا ولا قافية .. قصيدة مهزوزة غير مستوية الحدين وميزانها مختل لكنها كشفت عن موهبة شعرية ستؤتي ثمارها إن لاقت رعاية وحدبا .. لكن من أين ستحصل على الرعاية والحدب اللازمين !

فجأة قطع خط سير خيالاتها صوت طنين .. هاتفها الذي أبقته صامتا يطن هزازه مطالبا بحقه في الإنصات إليه .. كانت احدي مدرساتها بالمدرسة هي التي تطلبها من الطرف الآخر من القرية ..

مس " ماريان " مدرسة الاقتصاد المنزلي .. امرأة أربعينية لطيفة متزوجة وبلا أولاد ، لذلك كانت تعتبر كافة تلميذاتها في المدرسة هن بناتها .. كلهن تقريبا كان لديهن رقم هاتفها المحمول ، وأغلبهن يداومن على الاتصال بها بصورة منتظمة .. كانت " مروة " تحب الإنصات إليها وسماعها وهي تتحدث .. ولأنها مدرسة مادة لا توجد فيها درجات مؤهلة لرفع أو خفض مجموع ، ولا أطماع في دروس خصوصية ولا في استحلاب جيوب الطلاب ، فقد كانت البنات يثقن بها وبحكمها على الأشياء .. تلك امرأة لا تجامل ، وليس من مصلحتها مجاملة إحداهن أو التلاعب بها رغم أنها كانت لطيفة مع الجميع .. طلابا وطالبات .. حتى الأولاد الذين لا تتعامل معهم تقريبا ، بحكم كونها تدرس للبنات وحسب ، كانوا يثقون بها ويحكون لها أحيانا مشاكلهم مفضلين ذلك على اللجوء إلي الأخصائي النفسي .. الذي هو في تلك المدرسة ، كما في كثير غيرها ، مجرد رمز وبركة حاصلة دون فائدة لوجوده !

كانت " ماريان " تعرف مشكلة " مروة " جيدا .. تعرف أنها تكره القسم العلمي ودخلته مكرهة كارهة ، رغبة في إرضاء أبيها والأسرة ..

كثيرا ما جلست بجوارها تحادثها همسا بينما بقية بنات الفصل يدرن هنا وهناك ، يستعرضن غرزهن الناجحة على بعضهن ، أو يخرجن البيض والخضر المجمدة من ثلاجة غرفة التدبير المنزل استعدادا لإعداد وجبة من الوجبات البلاستيكية التي تحفل بها مقررات الاقتصاد المنزلي .. كانت " مروة " تكره الخياطة ولا صبر لها على الوقوف بالساعات لإعداد طعام ، كانت تفضل أن تجلس منزوية في ركن من أركان الحجرة ، وتبحث عن شيء تسند عليه يديها .. ثم تضع دفترها السري أمامها بداخل حضن كتاب ليحفظه ويحفظ ما تكتبه من أعين المتلصصات ، وما أكثرهن ، وتشرع في كتابة خواطرها وأفكارها .. ضبطتها الأستاذة متلبسة بالانشغال الذهني وعدم التركيز والهيام في بحر الأفكار بينما بقية البنات من حولها يجرين لتحضير عجينة السمبوسة .. لم تكن " مروة " مهتمة فيما يبدو بالسمبوسة الموقرة بل كانت عيناها تمسكان بالورق وتملآن فراغه بعالم بهيج من الكلمات .. لحظتها " ماريان " فنهضت ببطء وذهبت لتقف وراء كتفها .. شاهدت البنت منحنية على أوراقها منبتة الصلة بالعالم من حولها فعرفت فيها شاعرة تحبوا !

فوجئت بمدرستها من خلفها فنهضت متعثرة خجلة وتنحنحت لتجد صوتها الضائع وقالت معتذرة :

" آسفة يا أبلة .. بس كنت بكتب حاجة جات على بالي ! "

ابتسمت لها الأستاذة بود وسألتها مترفقة بها :

" أنت بتكتبي أيه .. شعر ؟! "

لم يكن شعرا بالضبط بل سطورا من الخواطر البعيدة .. ابتسمت لها ثانية وسألتها مستأذنة :

" ممكن أقراه .. تسمحيلي ؟! "

بحركة غير إرادية تناولت " مروة " الدفتر وقدمته لأستاذتها التي تناولته منها برفق كما تتناول وليدا خرج لتوه من أحشاء أمه .. وقعت عيناها على الكلمات فوجدت بها محاولة متعثرة لكنها جسورة لخلق شيء ما .. أي شيء أعظم من محاولة الخلق حتى لو تمخضت عن فشل كامل ؟!

كانت " ماريان " قارئة مثقفة .. ولها في أشعار " نزار قباني " و" أمل دنقل " و" صلاح جاهين " صولات وجولات :

" حلو قوي الكلام ده .. بس لو كنتي تقري شعر أكتر هتمسكي مصطلحات ومفردات كتير وهتلاقي عندك محصول لغوي هيساعدك قوي ! "

كادت " مروة " تنطق بشيء ما لكنها بترت محاولتها لإخراجه من جوفها .. كانت لا تزال تنتظر عقابا !

" هو حضرتك زعلانة مني ؟! "

سألت الأبلة " ماريان " فهزت الأخرى رأسها المجلل بشعر كثيف مصبوغة بعض خصلاته بلون أصفر ذهبي لامع وغامق مجيبة بغير حاجة إلي الكلام القليل الذي جاء منها بعد ذلك :

" أزعل منك ليه يا حبيبتي ؟! "

فكرت للحظة ثم قالت ضاحكة :

" آه عشان مش مركزة معانا يعني .. لا متخافيش أنا عارفة أن الوحي ده ملوش ميعاد وبينزل في أي حتة وأي وقت ؟! "

أنفتح مجال الكلام بين المدرسة وتلميذتها بعد ذلك .. وأمتد حبل الوداد طويلا مرتخيا يمكن شده بعشم دون فرصة لانقطاعه وتمزقه .. وجدت " مروة " في المرأة العقيم صدرا حنونا وسعها ووسع حلمها ربما أكثر مما وسعها صدر أمها التي أرضعت منه خمسة أطفال !

فالأمومة تأتي من العقل أحيانا وليس من الرحم .. وقد وجدت " مروة " في عقل أستاذتها فيض عارم من الأمومة الهادئة العاقلة التي لديها دائما استعداد لتنصت وتفهم .. وتقدر!

ما كان أحوجها لأم مثل " ماريان " .. وما كان أحق الأخيرة ببنت مثلها لتحسن رعاية حلمها وتصونها وتصونه !

وفي ذلك اليوم جاءت مكالمة " ماريان " لها كهدية من السماء .. حدثتها برفق وبمجرد أن سمعت صوتها حتى أدركت أن ثمة شيء خاطئ يحدث معها .. فالبنت ليست على ما يرام وليست في حالة مزاجية معقولة ناهيك عن أن تكون سعيدة هادئة البال !

دار حديث طويل بينهما هذا اليوم .. حديث من النوع الذي يبدأ بكلمات على غرار:

" مفيش حاجة ! "

" أنا كويسة ! "

" تعبانة شوية ! "

" عندي صداع ! "

" الحمد لله .. كل حاجة تمام ! "

لكنك تدرك أن محدثك كاذب .. وأنه يعتوره هم كبير يكمن في أحشائه ولا يريد ، أو لا يستطيع ، أن يفصح عن همه أو يبوح به !

طلبت " ماريان " من " مروة " أن تزورها في منزلها .. ولم تكن تلك المرة الأولي التي تفعل فيها ذلك !

كثير من الفتيات في الحقيقة كن يزرن " ماريان " في منزلها أحيانا كثيرة .. وكانت ترحب بهن بود وتغمرهن بالكرم والحفاوة .. ومما كان يشجع الفتيات على تلك الزيارات هو قرب منزل أستاذتهن من المدرسة ، وخلو منزلها

من الرجال أو الشباب الذين يمكن أن يشكل وجودهم مانعا للبنات للتردد على البيت ، أو حافزا ينشط خجلهن وخوفهن من كلام الناس .. كانت الأستاذة تعيش بمفردها مع زوجها الذي كان لديه شركة صغيرة يقضي بها جل يومه ولا يعود إلا في طراوة المساء مما يعني أنها ، أي " ماريان " الزوجة ، تقضي طيلة نهارها ، بعد عودتها من عملها بالمدرسة ، وحدها .. وكان تردد البنات عليها يخفف من آلام الوحدة التي تشعر بها ويرضي حبها للناس وللتواجد بينهم .. ذهبت " مروة " ثلاث أو أربع مرات برفقة زميلات أخريات ، أو بمفردها إلي بيت مدرستها المقربة .. كانت تفعل ذلك في الخفاء ، ولم يكن لكون " ماريان " مسيحية دور في حرص البنت على أخفاء زياراتها لها عن أمها .. بل لمجرد كون الأب لا يحب أن تذهب ابنته البالغة العروس ، في نظره ، إلي أي بيت ما لم يكن قد دخله بنفسه من قبل ويعرف من فيه معرفة شخصية وثيقة .. حتى أقاربهم الأبعدون كان يمنعها من زيارتهم وتشدد في ذلك أكثر بعد التحاقها بالثانوية العامة ، لأنه يري ببساطة أن عليها أن تبقي في البيت وتذاكر.. لا أن تضيع ساعة أو ساعتين في زيارات ومقابلات وأشياء تافهة !

تبعت الأم زوجها في ذلك الرأي فحرصت " مروة " على ألا تطلعها على تلك الزيارات المتباعدة لبيت " ماريان " حتى لا تتهمها بتكسير كلام أبيها وتضييع وقتها الثمين .. لكن " مروة " كانت بحاجة إلي تلك الزيارة والآن بالتحديد !

غسلت وجهها وارتدت تاييرا بسيطا محتشما مناسبا لسنها ولون بشرتها الخمرية الأقرب للسمرة .. نزلت لتخبر والدتها أنها ستذهب لزيارة احدي صديقاتها لنصف ساعة فامتعضت الأم وقالت لها مستعطفة :

" مش أحسن تقعدي تذاكري لك كلمتين يا بتي بدل النطنطة٦٢ هنا وهناك .. ده حتى الامتحانات قربت وعلى الأبواب ! "

نعم كانت " مروة " تعرف أن الامتحانات قد اقتربت ، لكنها بحاجة إلي الخروج .. بحاجة إلي الذهاب لتبحث عمن يفهمها ويقدر مشاعرها طالما أن من أنجبوها من أحشائهم لا يفهمونها ولا يريدون أن يفعلوا !

لم تحتاج لكثير من الاسترحام والتوسل لتحصل على أذن بالخروج .. لكن الأذن كان محددا بساعة واحدة نظرا لأن الوالد قادم اليوم من القاهرة ، وستكون مشكلة إذا عاد فوجد (الست الدكتورة) خارج منزلا بدلا من عكوفها على الاستذكار والتحصيل لتحصل على أعلى الدرجات !

كانت تلك الساعة كافية جدا .. فالحديث بين " مروة " ومدرستها المتفهمة لا يمكن أن يطول عن ساعة .. لا لشيء إلا لأن التفاهم بين الاثنين كان عميقا لدرجة أنهما لا تحتاجان لكثير من الكلام للتعبير عن كثير مما يجب أن يقال فعلا !

*****

ذهبت " مروة " .. واستقبلتها " ماريان " بود وترحاب .. كانت المرأة ترتدي عباءة منزلية زرقاء أنيقة مزين صدرها بحرير مخرم جميل وقليل من حبات الخرز واللؤلؤ وقد تركت شعرها الكثيف مرسلا خلف ظهرها .. وقد بدت بوجهها وبملامحها الطبيعية الصافية دون مساحيق بالغة الجمال والرقة .. كانت امرأة حسنة المنظر ، مهندمة تجيد اختيار ملابسها وانتقاء ما يناسب كل وقت .. حسنة الطبع ولديها عقل متفتح شديد القابلية للتفهم والتفاهم وقدرة عالية على الإنصات .. البعض كانوا يقولون أن عدم إنجابها فتح قلبها للناس أجمعين بدلا من أن يجعله مغلقا مقفلا على أطفالها .. " مروة " كانت تصدق تلك المقولة ، لأنها وجدت في " ماريان " عطفا وحنانا عليها وعلى زميلاتها لم تجده في كثير من المدرسات اللائي أنعم الله عليهن

بنعمة الأمومة .. جلست البنت وأستاذتها في صالون أنيق حديث الطراز وقدمت لها مضيفتها شايا خفيفا وبسكويت قرفة لذيذ صنعته بيديها .. شربت " مروة " قليلا من الشاي لكنها لم تمد يدها لتأكل شيئا من البسكويت .. ضحكت " ماريان " وقالت لها :

" هما محرجين عليكي في البيت تاكلي من أكل النصارى ولا أيه ؟! "

كانت " مروة " هائمة في بحر أفكارها المتلاطمة ، لكنها أفاقت على صوت مدرستها فشعرت بالرعب :

" لا لا والله .. "

لم تكمل جملتها واختطفت بسكويته دستها في فمها مرة واحدة لتثبت لمعلمتها أنه ليس صحيحا أن أحدا منعها من أن تأكل أو تشرب عندها .. و"ماريان " كانت تعرف ذلك لكنها كانت تناغشها فقط للتكلم !

" عارفة يا بت .. ده أنا بناغشك بس عشان تفتحي بقك وتحكي .. من ساعة ما قعدتي ربنا مفتحش عليكي بكملتين على بعضهم ! "

أغمق وجه " مروة " بسرعة ثم أحمر وتلألأت الدموع في عينيها منذرة بنوبة بكاء قادمة على عجل .. رمقتها " ماريان " بقلق واقتربت منها أكثر:

" مالك يا ماما .. فيكي أيه ؟! "

انخرطت " مروة " في البكاء فورا .. لم تكن تريد أن تضعف وتبكي خاصة أمام معلمتها التي تحبها .. لكن الضغط كان أقوي من قدرتها على التحمل فانفجرت فورا :

" مش قادرة أذاكر .. مش فاهمة حاجة في المواد العلمي .. أنا هسقط وبابا هيدبحني ! "

جذبتها " ماريان " لتضع رأسها على صدرها وأخذت تهدهدها كطفل صغير:

" ليه بس ليه .. ده أنت شاطرة وذكية .. وأيه يدبحك دي ؟! هو أنتي فرخة ولا أرنبة .. متخافيش متخافيش لسه قدامك وقت تلمي المناهج .. ده العيال مش بتذاكر غير في آخر شهر يا ماما وبينجحوا برضه ! "

لكن مشكلة " مروة " كانت أكبر من مجرد لم المناهج والنجاح .. كانت مربوطة بسلسلة يقع في نهايتها حلان .. فإما أن تحصل على درجات تؤهلها لكلية الطب وإما أن تُلف السلسلة حول رقبتها !

بصوت مختنق بالبكاء فسرت لمدرستها :

" أصل بابا عايزني أجيب مجموع يدخلني طب .. وأنا مش عايزة أدخل طب ولا كنت عايزة العلمي من أساسه ! "

رفعت " ماريان " رأس البنت إلي أعلى لترمق وجهها الباكي برفق ثم سألتها بعطف :

" وليه دخلتيه يا بنتي طالما مش بتحبيه .. هو في حد يدرس حاجة مبيحبهاش ! "

دخلت " مروة " في عنفوان نوبتها البكائية فلم تكد " ماريان " تميز كلماتها وهي تقول شاهقة بين كل حرف وآخر:

" أنا دخلت علمي الأول بس غيرت .. لما لقيت نفسي مش عارفة أفهم حاجة .. لكن بابا خلاني أرجع علمي تاني .. عملت كده عشان ميزعلش وميزعلش ماما .. أصله صعب قوي يا أبلة ومش بيحب حد يكسر له كلمة .. بس أنا تعبانة ومش عارفة أذاكر .. ولا هعرف أحل حاجة في الامتحان .. أنا هسقط .. وبابا هيموتني ! "

تركتها " ماريان " للحظات حتى تستنفد عصبيتها ورغبتها الشديدة في سكب الدموع .. انتظرت حتى خفت وطأة الدموع ثم بدأت تحدثها حديث العقل والحكمة بعد أن مسحت لها وجهها جيدا من الدموع :

" بصي يا " مروة " .. بصي يا بنتي أنا هقولك حاجة .. مفيش حاجة اسمها أدرس حاجة مبحبهاش عشان أرضي حد .. أنا ابن أختي " وجيه " كانوا عايزين يدخلوه علمي برضه عشان يطلع دكتور .. قالهم لأ وصمم يدخل أدبي .. وجاب مجموع كويس ودخل آداب ، وهو دلوقتي باسم الصليب دكتور قد الدنيا في آداب القاهرة وبيطلع كتب أدبية وثقافية كمان .. مش لازم حد يطلع أي حاجة إلا لو كان حابها وعايزها .. غير كده مينفعش ! مكانش لازم تسيبي أدبي ما دام مش عايزة ترجعي علمي .. "

قاطعتها " مروة " التي كادت تعود للبكاء ثانية :

" ما هو بابا .. "

لم تدعها " ماريان " تكمل بل قالت لها بلطف وحزم :

" كنتي لازم تفهمي باب إنك مش قادرة على علمي مش حاباه .. لو قعدتي جنبه وكلمتيه زي أي بنوتة ما بتحكي مع أبوها كان هيفهمك صدقيني وهيحس بيكي "

قاطعتها " مروة " وهي تمسح عينيها اللتين بدأتا في تسريب مزيد من الدموع :

" طاب والعمل دلوقتي ؟! "

أدركت " ماريان " على الفور إنها تتحدث عن أشياء كان يجب أن تحدث منذ فترة .. منذ بضعة شهور لكن الآن أصبح الوضع نهائيا ويجب البحث عن حل لا التحدث فيما كان يجب أن يحدث :

" تلحقي نفسك .. تلحقي نفسك يا " مروة " .. حاولي تركزي وتذاكري بأي طريقة .. لازم كام معلومة تدخل دماغك عشان على الأقل لو ملحقتيش كلية علمية تعرفي تدخلي آداب ولا تربية ! "

لمعت عينا " مروة " بالدموع وسألت أخيرا وقد انحسرت عنها موجة البكاء تقريبا :

" بس بابا عايزني أجيب مجموع طب ! "

بحزم ولكن بحنان قالت لها " ماريان " مؤكدة :

" هتقدري ؟! هتعرفي تجيبي الدرجات دي ؟! "

هزت " مروة " رأسها فورا نافية أي إمكانية لتحقيق ذلك فاستطردت " ماريان " على الفور :

" يبقي تلحقي نفسك وتنقذي ما يمكن إنقاذه .. أنسي بابا عاوز أيه وافتكري أنت تقدري على أيه .. لازم تذاكري يا " مروة " .. لازم تركزي يا بنتي .. أعملي أي حاجة بتحبيها قبل ما تذاكري عشان تفتح نفسك على المذاكرة .. أنت بتحبي تعملي أيه أيه هواياتك يعني ؟! "

بخجل وكأنها متهمة آثمة أجابت الفتاة :

" بحب أكتب شعر وقصص وخواطر ! "

ابتسمت لها " ماريان " مشجعة وقالت برقة :

" عارفة يا حبيبتي .. وقريت حاجات من اللي أنت كاتباها ورأيي إنك موهوبة قوي ويجي منك .. بس خدي بالك الشعر والكتابة بتخلي الإنسان ميركزش في حاجة تانية قوي .. عشان كده أقعدي أكتبي وطلعي كل أفكارك قبل ما تروحي تذاكري .. ولو حسيتي بملل وتعب وأنت بتذاكري المواد اللي مش بتحبيها ، وحسيتي إنك مش قادرة خلاص فكري في مستقبلك لما تتخرجي .. فكري في نفسك لما تتخرجي من كلية مناسبة وتنشري أشعارك وكتبك ، وتبقي كاتبة وشاعرة مشهورة .. حاول تخلي طموحك يدفعك عشان تتقبلي اللي أنت مش قادرة تتقبليه ولا بتحبيه .. وصلي لربنا أنه يهديكي ويرشدك للطريق الصحيح ويديكي الصبر عشان تواظبي وتشيلي حملك بنفسك ! "

كان كلام الأستاذة يتنزل بردا وسلاما على قلب " مروة " .. التي لم تجد فرصة كافية للأسف للاستمتاع بتلك الجلسة الهادئة المفعمة بالتفاهم والتراحم الإنساني المتبادل .. فقد دق هاتف البنت المحمول فجأة ولمع اسم أمها على الشاشة .. أجابت على النداء فورا فسمعت صوت أمها يقول بقلق آمرا دون تمهيد أو سلام :

" أنتي فين يا بت ؟! يلا تعالي بسرعة .. أبوكي أتصل هو وصل جرجا دلوقتي وزمانه جاي على البيت .. يلا قبل ما يجي ميلاقكيش يعملها مشكلة ! "

هرعت " مروة " تغلق حقيبة يدها الصغيرة بعد أن أمسكت الهاتف بيدها .. وتجري هلوعة قبل أن يكبس والدها على البيت ويسود عيشها لو وجدها خارجا تتزاور ، بدلا من أن تجلس كالبطة الراقدة على البيض لتذاكر وتذاكر وتذاكر .. لم تدعها " ماريان " تذهب قبل أن تعدها بأن تبذل جهدها من أجل التركيز في الاستذكار من أجل أن تنجح على الأقل .. قبلتها الأستاذة على خديها وهمست لها مطمئنة داعية إياها بألا تدع الجزع يسيطر عليها أو تترك خيالاتها تهيمن على عقلها وتمنعها من التركيز في دروسها التي يجب أن تحصلها بأي طريقة !

ودعت " مروة " أستاذتها وهرعت عائدة إلي البيت .. ومن حسن حظها أنها وصلت بفاصل ستون ثانية فقط عن أبيها الذي ظهر في البيت وهي لا تزال تجري على السلم لتستبدل ثيابها بملابس البيت العادية .. فلم يكن أحد يرغب في إطلاعه على أنها كانت خارج البيت في تلك الأيام التي يراها أيام قتال مع الكتب .. وليس هناك وقت لأي شيء آخر !

(٧)

موجه جديد شغل منصبه قريبا لكنه يبدو مخضرما حقا .. بملامح صغيرة تعطيه سنا أصغر من سنه الحقيقي ، وبنظارة مستديرة العدسات بسلسلة ذهبية طويلة لامعة .. كان يرتدي بذلة صيفية نظيفة لكنها لم تكوي جيدا ، فقد كانت أطراف البنطلون متهدلة ومكرمشة كما أن الأكمام كانت مجعدة بشكل يوحي بأن من قام على كي تلك الملابس شخص إما أنه لا صبر له ولا يجيد فن إتقان العمل ، وإما أنه قام بكيها غصبا فركلها برجل كلب حتى يتخلص منها .. بالرغم من كل ذلك فقد منظر الموجه مقبولا لدرجة كبيرة .. بدا ل" سناء "رجلا طيبا لا يخشي شره ولا يُتوقع منه السوء من القول أو العمل وهو يجلس في مقعد جلدي مريح أمام مكتب المدير.. الذي جلس فاردا جذعه فتمدد كرشه العظيم أمامه كبالون منتفخ لا يحتاج إلا لشكة إبرة من طفل شقي لينفجر وتتناثر أحشائه ، التي خنقها الشحم وجثم الدهن على أنفاسها .. كانت تلك أول مرة تري فيها المدرسة الجديدة وجه موجهها ، الذي من المفترض أنه يتابعها ويتابع عملها بشكل دوري ومنتظم .. ويسجل تقدمها وملاحظاته حولها بشكل دائم مصدرا حكمه حول مدي كفاءتها للعمل .. لكن شيء من هذا لم يكن ليحدث !

فكل موجه في تلك الإدارة مكلف بمتابعة ما لا يقل عن أربعين مدرسة .. بعضها به أكثر من عشرة مدرسي فصول للصفوف من الأول وحتى الثالث الابتدائي ، مما يعني أن هناك تقريبا أربعمائة مدرس يقعون في عهدته ويكلف هو بالإشراف عليهم وتنظيم أمورهم ومتابعة أعمالهم .. فبأي عقل يفعل رجل في الخمسين أو الستين ذلك ومن أين يأتي بالقوة اللازمة للصمود في وجه كل ذلك ؟!

كانت " سناء " تعذره وتعذرعدم زيارته لها مرة واحدة ، لا هي ولا جميع مدرسي الفصل للصف الثالث الابتدائي كلهم ، منذ بداية العام الدراسي .. أضف إلي ذلك أن الرجل بدا مريضا واهنا حقا وربما كان مصابا بالسكر كما يظهر من شكله !

توافد مدرسوا الصف الثالث على مكتب المدير تلبية لطلباته ومراسيله التي أخذ يوفدها إلي كل منهم في فصله أو أينما أنحط في المدرسة ليأتي لمقابلة السيد المبجل الموجه .. كان المدرسون الآخرون على ما يرام !

دفاتر تحضير منسقة .. تواريخ مضبوطة .. دروسهم متماشية مع خطة العام الدراسي تماما .. قام الموجه بنظر دفاتر المدرسين وإلقاء بعض التعليمات والتعليقات بشأن طريقة التحضيروالتهيئة وخلافه .. ثم بدأ يطلب من كل مدرس أن يحضر له بعض الكراسات الخاصة بتلاميذ فصله ليوقع عليها .. وبكذا تنتهي زيارته الموسمية ويظل الطابق مستورا !

زيارة الفصول ورؤية الأولاد عن قرب وسماعهم والنظر إليهم ومحادثتهم، لم ترد بخاطر السيد الموجه أصلا .. فكم فصلا سيزوروكم تلميذا سيحادث ؟!

إنه ليس رائق البال لشيء من هذا فلديه ثلاث مدارس أخري المفروض أن يزورها زيارة روتينية اليوم تبعا لخطته السابقة .. فلو أنه قضي دقيقة واحدة في كل فصل وحادث تلميذا واحدا فسيضيع عليه بقية اليوم ويتعذر تنفيذ بقية خطة الزيارة !

لم تكن " سناء " تعرف شيئا من هذا .. لم تكن تعرف أن التعليم في مصر هو مجرد حبر على ورق ، وأن زيارات الموجهين لا تزيد عن مزيد من الحبر على مزيد من الورق .. كانت تظن أنها ستتعلم ممن يتولي مهمة توجيهها شيئا ، إلا أنها اكتشفت أنه ليس لديه ما يعلمه لها ، وإن كان لديه ذلك فلا وقت

عنده ليعلمها إياه .. إنه سرعة البطء أو بطء السرعة .. الأوضاع المقلوبة التي تريد أن تقفز لتعتدل فيكون مآلها أن تنقلب على جذور رقبتها أكثر وأكثر!

ليس كل الموجهين هكذا .. لكن موجه " سناء " كان هكذا للأسف !

لذلك تجهم وجهه حينما جاءته بقليل من كراسات تلاميذ فصلها وكشاكيلهم النظيفة .. رأي أمامه خطوطا قلقة خائفة تخط على الورق صرخة صامتة هادرة ميتة تقول : إننا لا نعرف كيف نكتب .. إننا لم نتعلم الكتابة بعد !

محاولات إحياء وبوادر بعث لكنه يبحث عن المنهج وتوزيعته لا عن محاولات إحياء الميتات .. فأين دروس اللغة العربية والرياضيات والدين المقررة ؟!

أين يوم النجاح وأين الأطفال الذين هشموا المصابيح والزجاج في الطريق .. أين الحث على عدم قطف الزهور ، رغم أن النشيد نفسه كان باعثا قويا ليس على قطف الزهور وحدها بل على قطف كل ما يمكن نزعه وكسر رقبته ، وتحت حماية كلماته المعسولة تُقطف زهور أولئك الصغار وتُهرس هرسا .. أين جمع الأعداد المكونة من أربع وخمسة أرقام مع أن أغلب أولئك الصغار يخطئون في العد بعد رقم العشرين ، ولا يميزون بين الواحد والعشرين والإثني عشر.. أين دروس الله خالقنا والله خالق الكون التي يرددها الأطفال ثم يندفعون خارج الفصول ليسبوا الدين لبعضهم وينعتوا بعضهم بأقبح النعوت وأنكي الألفاظ ؟!

هل المهم هو ما يتعلمونه حقا أم ما هو مرقوم في كراساتهم ؟!

الأخيرة طبعا ولنكن صرحاء واضحين مباشرين في الوصول إلي الهدف حتى لو كان وقحا جبانا .. أعطني كراسات منظمة ودروس تامة ، ودفاتر

تحضير سليمة أعطيك تقديرا عاليا حتى لو كنت لا تعطي تلاميذك في الفصل حرفا ولا تمنحهم من فضول رضاك كلمة بحق الله !

ذلك ما هو ما نبغي .. لذلك تجهمت ملامحه واعتراه الهم حينما وجد تلك الصرخة المضادة تنفجر في وجهه .. كراسات أولادها لا تعجبه مثلما أعجبته كراسات الآخرين رغم أنها أنظف وأكثر تنظيما .. لكن ما بال النظافة والنظام هنا وما جدواهما ؟!

إنه لأمر متشابك ومحاولة حله غير مجدية .. لكن الموجه الخبير يرمق الفتاة حديثة التعيين بعين حادة خضراء تلمع بالخوف والدهشة والانفعال !

" مش ماشية مع المنهج ليه يا أبلة ؟! "

سألها متحفزا وردت مستعدة لمجابهة الحجة بالحجة :

" عشان العيال مش بيعرفوا يكتبوا يا حضرة الموجه ! "

تجهم على تجهمه وهتف مستنكرا :

" حضرتك هنا مهمتك تدي المنهج وبس .. ملكيش دعوة بيعرفوا يكتبوا ولا مبيعرفوش ! "

هنا أنفتح المدير الذي وجدها فرصة سانحة لتبيان نشاطه في قنص المخالفين والإيقاع بهم في شر أعمالهم :

" والله لسه قايللها الكلام ده من كام يوم .. لكن الأبلة شباب بقي ومتحمسة ومش هاممها كلام الأكبر منها ! "

ضربة خسيسة تحت الحزام من يد الموجه الشبيه بالفيل أبو زلومة .. لكن " سناء " كانت تتوقعها على أي حال .. فذلك رجل لا يرجي منه ، ولا من مثله ، سوي ذلك !

صمتت للحظة لتجهز ردا كان جاهزا في رأسها أصلا لكنها كانت تبحث عن أفضل لهجة تنطق بها وتعرض حجتها فليس المهم أن تكون حجتك قوية المهم أن تجعلها تبدو كذلك حتى لو تكلمت عن الضفدعة أم ضفدعين !

بقليل من الخوف ردت " سناء " موضحة :

" حضرتك العيال مش بيفهموا حاجة من الكتب ولا من الدروس اللي بياخدوها .. فأنا مركزة معاهم في الكتابة والقراية وحفظ الأرقام وكده عشان يطلعوا سنة رابعة وهما بيعرفوا يقروا ويكتبوا على الأقل ! "

بغل نظرها المدير ، أما الموجه فقد أرتسمت في عيناه الخضراوان ابتسامة لها مغزى ما .. سرعان ما نزلت الابتسامة حتى وصلت إلي فمه وارتفعت شفتاه كاشفتان عن فم يشي بطيبة مختزنة واستعداد قديم للفهم والتجاوب .. إنه يشعر بالحزن من أجلها !

هذا الحزن القديم .. الحزن الذي يهاجمك عندما تري أحدهم يزحزح صخرة هائلة معتقدا أنه سيصل بها إلي أعلى الجبل ويعلن انتصاره .. إن المسكين لا يعرف أن الصخرة ستتزحزح من جديد وستسقط فوقه .. ومحتمل جدا إن تهشم رأسه وتسحقه .. إنه يعرف أنها على حق !

يعرف ذلك ولا ينكره بقلبه ، وإن أنكره عقله الصلد .. إن تلك الفتاة الشابة لا تعرف أنه هو ، حضرة الموجه ، وهي معه ، ليسا إلا ترسين في آلة عملاقة معطلة .. آلة تُركت بلا صيانة ولا زيت أحقابا لا لشيء إلا لأن صاحبها لا يريد لها سوي أن تبقي معطلة !

كيف ترغب تلك البنت الغافلة الساذجة أن تحارب الآلة الهائلة بمفردها .. وصاحبها نفسه في نهاية المطاف ؟!

يالها من مستحقة للشفقة !

ترك الآخرين يذهبون واستبقاها وأجلسها إلي جواره .. فتح لها صدرا حنونا متجاوبا فوجدت فيه أبا ومعلما يرجي خيره :

" بصي يا بنتي .. أنت عندك حق مقدرش أغلطك ولا أقول إنك غلطانة ! "

فرحت " سناء " وابتسمت بسعادة لكن الموجه أستدرك فورا :

" لكن مش إحنا اللي بنحط نظام التعليم .. مش إحنا اللي بنخطط ولا بنحط المناهج ولا ده من صلاحياتنا .. إحنا بننفذ وبس ! "

أخفضت رأسها وغضت بصرها :

" فاهماني يا بنتي .. ننفذ وبس .. اللي أكبر مننا عايزين كده وعاجبهم كده ! "

المزيد من الإغضاء والمزيد من السخونة في وجهها وأطرافها :

" لكننا مش عاجزين قوي زي ما بتتخيلي .. برضه في أيدينا نصلح ! "

ابتسمت أخيرا ورفعت رأسها :

" بصي أنت صح مقدرش أقول غير كده .. لكن دينا علمنا إن المؤمن كيس فطن .. أحمدي ربنا أني أنا مش موجه ولا رئيس قطاع تاني اللي جالك النهاردة .. كانت هتتوقع عليكي عقوبة وتتحولي للتحقيق غالبا .. عايزة تصلحي ماشي .. بس في نفس الوقت متنسيش واجبك الأصلي اللي أتعينتي عشانه ! "

بدأت تفهمه وتتابعه بتركيز:

" أدي العيال الدروس عادي .. معاكي .. تسعة وتسعين في المية منهم مش هيفهموا حاجة ولا الدروس مناسبة لمستواهم العقلي أصلا .. مش هجادلك في دي ، ولا هاخد وادي معاكي .. بس في نفس الوقت لازم تديهالهم ."

همت بطرح سؤال لكنه كان أسرع منها في الإجابة عليه قبل أن تطرحه :

" أدخلي حصصك عادي واديهم دروس العربي والحساب والدين .. وفي أي حصة فاضية خديهم في فصل فاضي .. أو حصة احتياطي مثلا وأديهم اللي تقدري عليه .. علميهم يكتبوا ويقروا ويحسبوا .. أنا عارف إنهم ميعرفوش حاجة من ده كله .. وأعتبريها لوجه الله .. لوجه الله يا بنتي مش لوجه حد تاني .. وصدقيني ربنا هيباركلك في قرشك وفي صحتك وفي الفلوس اللي بتاخديها أكتر من كل التنابلة زمايلك دول !

رجل جميل .. لماذا ليس كل رجال التعليم في مصر مثله ؟!

أنصرف الموجه بعد أن كتب ديباجة الزيارة التقليدية في دفتر الزيارات .. وقع المدرسون بالعلم ومنهم " سناء " .. كتب الموجه أسماء كل المدرسين وأمام اسم كل منهم الفصل القائم بالتدريس له ، وتقييمه لأدائه والتزامه بالمنهج وتوزيعته المعتمدة والانتظام في العملية التعليمية .. أعطاهم كلهم درجات متقاربة إن لم تكن متطابقة ، مرت عينا المدير سريعا على الأسماء حتى عثرتا على اسم " سناء " .. ساءه ما قرأ .. كتب الموجه الأسطر التالية أسفل اسمها :

" سناء عبد العال البدري " ..

معلم مساعد فصل

٢/٣

الالتزام : جيد جدا

السير في المنهج :

جيد جدا ومطابق للخطة الموضوعة !

ظهرت علامات خيبة الأمل على وجه المدير .. وشعر بأن الموجه قد خيب أمله وأيأس رجاءه !

*****

شعر تلاميذ فصل ٢/٣ بتغير في جدول حصصهم مع المس " سناء " .. بدءوا يستخدمون الكتب المدرسية العادية أثناء الحصص ويكتبون خلفها دروسا طويلة من اللغة العربية ومسائل حسابية عويصة ، فشلت قواهم العقلية غير الناضجة بعد في استيعابها أو فهمها .. كانت " سناء " تشفق عليهم وعلى نفسها !

فقد بدأت المشاكل فور تطبيقها الجدول الجديد .. كان جدولها مزدحما باثنين وعشرين حصة مقسمة على ١٢ حصة لغة عربية ، و٦ حصص حساب ، وثلاث حصص تربية دينية إسلامية ، بالإضافة إلي حصة ريادة واحدة أسبوعيا .. ولم تكن وحدها التي تتولي التدريس للفصل بل كان هناك مدرس للغة الإنجليزية يستحوذ على ست حصص أسبوعية ، بالإضافة إلي حصص الألعاب والنشاط .. وبعد التغيير الذي حدث في الفصل واضطرار المدرسة الهمامة للبحث عن حصص إضافية لإعطاء الأولاد مبادئ القراءة والكتابة والحساب بدأت المشاكل .. فالمدرسون كل منهم حريص على حصصه حرصه على عينه ، لا لشيء إلا لأن كل منهم يريد أن ينتهي من المنهج السخيف المكدس .. يدخل كل منهم الفصل .. يأمر الأولاد بإخراج كتبهم وكراساتهم .. ثم يوليهم ظهره ويخرج إصبع الطبشور ليبدأ في تسويد السبورة وملأها بالكتابة مرة ومرتين وثلاثا .. وإن فتح الله عليه بقليل من الضمير يجعلهم يقرئون خلفه بعض العبارات البسيطة أو بعض الكلمات الإنجليزية .. الغريب أن " سناء " أحست أن المدرسين الآخرين يتكاتفون لمنعها من التحصل على تلك الحصص الاحتياطية والإضافية رغم أنهم كانوا سابقا ، ولا زالوا ، حريصين أشد الحرص على زحلقة تلك الأعباء الزائدة على أي شخص يقبل أن يحملها عنهم !

كان وجود " سناء " قد أصبح غير مرغوب لكثير من المدرسين الآخرين .. همست بعض الزميلات الثرثارات في أذنيها ، وهن متجمعات لأكل سندوتشات السلطة والطعمية في الفسحة ، أن أحد المدرسين الذي يقيم بالقرية التي تقع بها المدرسة متضرر مما تفعله مع تلاميذ فصلها لأن كافة الطلاب الصغار يأخذون دروسا خصوصية عنده .. وأوحين لها ، بلؤم النساء الصريح المتغطي ، أنه هو من أوعز للمدير بالتحدث عنها بشكل سيء أمام الموجه الذي حضر منذ أيام قليلة .. لأنه هو والمدير سمن على عسل أو كقطعة زبد على فطيرة مشلتتة !

لم تشعر " سناء " بالقلق من هذا الكلام .. فهي في النهاية لا تفعل شيئا خاطئا بل الواجب أن يشكروها على مجهوداتها !

غير أن أحكام المنطق شيء وأفعال العقول الخربة شيء آخر تماما .. فما لبثت المدرسة القليلة الخبرة أن أحست بحرب ضروس خفية تقام ضدها في المدرسة !

كل شيء كان يجري في الخفاء ، من تحت لتحت ، وتحت أغطية الوجوه المداهنة المعسولة الباسمة دائما لكن إحساسها الواضح الصريح كان صائبا .. ففجأة لم يعد هناك مدرس واحد على استعداد لترك حصته الأساسية أو الاحتياطية في فصل ٢/٣ أو التنازل عنها .. بل الأكثر أنه عندما قامت هي ، ومن تلقاء نفسها بجمع كافة الطلاب الذي لا يجيدون القراءة والكتابة في المرحلة الابتدائية بالمدرسة ، وعقد حصة كتابة وقراءة لهم في كل فسحة يوميا ، حتى بدأت المدرسة تغلي غليانا ضدها .. كان جهل الطلاب وضعف مستوياتهم كنز إستراتيجي ومورد رزق لعدد غفير من أولئك المدرسين ، تجار العلم الذين لا يختلفون في شيء عن تجار الأسلحة ، ومعني أن تأتي مدرسة تافهة صغيرة وتأخذ بيد أولئك الأطفال لكي يتعلموا .. بل لكي يعلموا

أنفسهم بأنفسهم ، ويتعودوا أن يستذكروا دروسهم ويئودوا واجباتهم دونما حاجة إلي معونة خارجية ، هو أنها أتت لا لتعلم أطفالا .. بل لتقطع أرزاقهم وتقلل مدخولاتهم !

على أن الذنب في النهاية لم يكن كله ذنبهم .. فهم شريك في الجرم وليسوا أصحابه بمفردهم !

فهناك بعيدا ، في قلب العاصمة ، وفي مكاتب أنيقة تلمع بالنظافة وتبرق كالبلور ، وتنتشر فيها روائح المعطرات الغالية الباهظة ، كان يجلس المجرمون الحقيقيون .. رؤوس الأفاعي الذين أفسدوا التعليم في مصر بحنكة ودهاء ، ودونما تعجل أو جلبة وجعلوا عاليه سافله .. وخرجوا أجيالا عقب أجيال من الفاشلين والجهلاء والأميين الحقيقيين الذي تزيد جهالتهم أضعافا على تلك التي ينعم بها من لم يُكتب لهم أن يلتحقوا بالمدارس أصلا !

الكل كان شريك بالجرم والكل كانوا يتربحون منه .. حتى الأولاد أنفسهم ما لبثوا أن بدءوا في النهاية يتذمرون !

بدأت الحصص الزائدة تصبح عبئا إضافيا ثقيلا عليهم .. إنهم لا زالوا صغارا ويريدون أن يمرحوا ويلعبوا وينطلقوا أحرارا ، لا أن يسمروا منذ الثامنة صباحا وحتى الواحدة والربع ظهرا فوق مقاعدهم الخشبية المهشمة ، ولا يسمح لهم بفسحة ينطلقون فيها من عقالهم ويفلتون من خنقتهم سوي لنص ساعة وحسب .. بعد أسبوعين بدأت وطأة الأمر تزيد ثم بدأت " سناء " نفسها تشعر بالتعب !

ولما كان حضور تلك الحصص الاختيارية أصبح الآن حرا لكل طالب يختاره أو يعزف عنه .. فقد أخذ الأولاد ، سواء من فصل " سناء " الأساسي نفسه ، أو ممن كانوا يحضرون حصص التقوية من الفصول الأخرى ،

يتسربون هاربين واحدا تلو الآخر وفوجا إثر فوج .. حتى لو يبق في النهاية على مقاعد الدراسة الإضافية سوي سبع طلاب منهم الفتاة الصغيرة " إسراء " !

كان تعلق " إسراء " بمعلمتها يزداد يوما بعد يوم .. وكذلك المعلمة نفسها أخذ يتنامي لديها إحساس كبير بالمحبة والمسئولية تجاه الطفلة القزمة اللائذة بحماها واللاجئة إلي ظلها .. كان الجميع يستغربون تلك العلاقة الوثيقة بين " سناء " وتلك الطفلة خاصة !

كثيرا ما سمعتهم يمزحون حينما يرون الفتاة التي لا تكاد تُري ، تهرع عقب انطلاق جرس الفسحة إلي حجرة المدرسات لتلتصق بجوار " سناء " ، وتبقي بجوارها حتى عودة التلاميذ إلي الفصول .. كانت زميلات " سناء " يمزحن ويقلن مستخفات لدمائهن السمجة :

" يا أختي اللي جابلك يخليلك ! "

أما المتزوجات والأمهات منهن ، اللائي ضقن ذرعا بما يحتشد في بيوتهن من أطفال هم أشقي من العفاريت المسلسلة نفسها ، فكن يرمقن زميلتهن والفتاة الملتصقة بذيلها ويقلن ممصمصات بشفاههن المشققة المسودة :

" يا أختي .. هي الواحدة فينا حاملة عيالها لما هتحمل عيال الناس .. بلا قرف ! "

لكن ما أحزن " سناء " حقا أن الأطفال في المدرسة لم يكفوا تماما بعد عن مناداة الطفلة بكنية (القردة) الكريهة !

لكن القردة الصغيرة تعلمت ألا تلقي بالا للساخرين والمستهزئين .. تعلمت أنها بشطارتها وبذكائها ، وبجدها واجتهادها ، تستطيع أن تجبر الآخرين على أن يعاملوها كطفلة حقيقية .. كإنسان يحس ويشعر ويمكنه أن يتفوق على منتقديه ومعذبيه !

*****

مضت الأيام تسير سيرا عاديا .. تبطئ حينا وتخب خببا أحيانا أخري حتى أوشك الفصل الدراسي الثاني على الانتهاء .. تعلمت " سناء " المزيد في كل يوم من تلك الأيام المتهاوية وراء بعضها ، صارت أكثر خبرة ولو قليلا ، تعلمت أن تفتح عينيها وتري ما يدور حولها بطريقة أخري .. طريقة تري الألوان سبعة وليس أبيض وأسود فحسب !

فلا شر مطلق ولا خير مطلق في ذلك العالم .. إن المدرس الذي يجبر الأطفال على أخذ دروس خصوصية عنده مدان ومجني عليه في نفس الوقت .. إنه مجني عليه من نظام كامل يطبق على رأسه ، ولا يعطيه ما يكفيه ويقيم أوده وأود أولاده ، ومن هم معلقين برقبته من عيال وعائلة .. ولأن المجني عليه كثيرا ما يكون جلادا أكثر وحشية ، فإنه يستدير إلي الطلاب ، الذين لا حول لهم ولا قوة بدورهم ، ليحلب منهم ما يحتاجه تحت مليون مسمي ومسمي جاهز وحاضر في كل وقت .. الطلاب المجني عليهم الأول في ذلك النظام الفاشل غالبا يتحولون إلي متهمين لا يشق لهم غبار في إفساد كل شيء وتضييع كل فرصة سانحة لهم للتعلم والفهم .. بل إنهم كثيرا ما يهرعون إلي المدرسين طالبين الانتظام في مجموعاتهم منذ اليوم الأول للدراسة .. ليس طمعا في أي شيء سوي النجاح السهل المضمون مع مدرس يمسك بيده دفاتر درجات الطالب .. وباليد الأخرى يتقاضي منه ثمن خدماته التعليمية المدفوعة له !

منظومة هائلة من الفساد والفساد المضاد .. زوج غيلان يتناطحان ولا بقاء لأحدهما إلا بالإجهاز بالضربة القاضية على الآخر !

لكن الغولان تعلما كيف يتعايشا .. تعلما أنه بإمكانهما بدلا من التنازع على سيادة القطيع .. فإن الأسهل والأقل خسارة للطرفين هو اقتسامه وتوزيعه بالعدل بينهما !

وهكذا تري في نظام التعليم المصري تلك الحالة الفريدة .. الفساد يتعايش تماما تماما مع الضمير النقي .. وكلاهما ، ولشدة الغرابة ، يستفيد من الآخر !

بل إن الفساد كثيرا ما يرتدي رداء أبيض مغسول بالثلج والبرد ، ويسابق الصلاح في إبداء حسن النوايا .. لذلك يتم توزيع بسكويت الوجبات على الجميع ، طلابا ومدرسين ومديرين ، والبقية تُباع علنا وتُسرق علنا وتظهر علنا ، ولا أحد يحاسب أو يشعر بشيء خطأ في الأمر كله .. إنه الخطأ عندما يتكرر فيحل محل الصواب وقد يطرده دامغا إياه بكل نقيصة !

لا عجب في شيء هنا .. لا شيء يستحق العجب .. فكم كل شيء هنا رخيص حتى الروح .. الروح ليست رخيصة فحسب بل إنها أكثر الرخيصات رخصا !

*****

في يوم من شهر إبريل حدثت تلك الحادثة .. نسيها الجميع بعد شهور وعادوا يمارسون حياتهم الطبيعية وأفواههم مفتوحة من الأذن وحتى الأذن وهما لا يشعرون بأي شيء .. لا ندم ولا ألم ولا وخزة ضمير !

فلا ضمير عند الأغلبية ليخزهم .. إن الضمير عند البعض ترفا وعبئا وفضول أعضاء بشرية لا قيمة لها .. مثله مثل الشعر المتساقط والجلد الميت والأظافر المقصوصة !

في نهاية اليوم الدراسي دق الجرس معلنا ساعة التحرر المباركة .. كانت تلك نهايات العام الدراسي وما قبل امتحانات الفصل الدراسي الثاني ، حيث تزيد شهوة الأولاد لمغادرة المدرسة والتحرر من سجنها مثلما تزيد شهوة المرء للطعام كلما تنشق رائحته الشهية أكثر !

دق الجرس واندفع الأولاد .. اندفعوا كالثيران الهائجة .. فلا تنظيم ولا نظام ولا راعي صالح ليسيطر على القطيع الهائج الفائر المتدافع بوحشية .. كان الأولاد ينزلون من سلم والبنات من سلم آخر ، لكن في ذلك اليوم مُنع الأولاد من استخدام السلم الخاص بهم ، لأن زائرا كبيرا من مديرية التربية والتعليم كان في مكتب السيد المدير .. هذا الزائر الذي من أجله كنسوا المدرسة ونظفوها ومسحوا السلالم ، وأزالوا أكوام القمامة من الفناء وقلموا الأفرع المتدلية القبيحة من أشجار النبق الجرداء .. فعلوا كل ما بوسعهم من أجل سيادته ، وخصصوا له السلم الملاصق لمكتب المدير ليستخدمه حين نزوله ..

السلم يجب أن يبقي نظيفا لامعا براقا من أجل (البيه) ، أما الأولاد فلديهم سلم البنات .. طبعا كان معروف المنظر الذي سيحدث عند اختلاط الحابل بالنابل واختلاط الأولاد بالبنات عند النزول من السلم المشترك .. وكمحاولة لتجنب المجزرة التي سيتكوم فيها الأولاد فوق بعضهم حتى يتحولوا لطبق صلصلة كبير ، فقد قام المدرسون بحجز الأولاد والسماح لفصول البنات بالخروج مبكرين عشر دقائق .. كانت المدرسة مكونة من ثلاث طوابق تعلو الطابق الأرضي وكلها مكدسة بالفصول المكتظة بدورها بالأطفال .. نزلت فصول البنات تباعا تتبعهن وتتفرق بينهن قليل من المدرسات اللائي خرجن مع بناتهن ، ليحاولن تنظيم الأمر على السلم .. هبطت البنات لكنهن لم يستطعن أن يلتزمن بالصمت والهدوء ، فلابد من ضجة ولابد من (هيييييييي) وكأنهن كن محبوسات في (جوانتاناموا) ، وأطلق سراحهن للمرة الأولي منذ عشرين عاما .. سمع الأولاد المحبوسون في فصولهم (هيييي) من البنات فتوتروا .. بدأت أعناقهم تشرأب مستطلعة وبدأ آخرون ، خاصة قصار القامة منهم وخفيفي الوزن ، يتسربون من بين أرجل

المدرسين الواقفين حراسا ديدابانات على أبواب الفصول المهشمة ، ويخرجون منطلقين فرحين مشاركين في الهتاف القومي الموحد الذي يبدو كأنه النشيد الوطني للمدارس المصرية .. أصبحت السيطرة على بقية الأولاد الآن أكثر صعوبة وأكثر إثارة للملل .. أخذ بعض المدرسين يسحبون حقائبهم ، ويتبعون الأولاد الهاربين لاحقين بهم بينما الأفواج تخرج من الفصول كأنها السيل منهمر .. كانت فصول البنات لا تزال تنزل عبر السلم حينما لحق بهن الأولاد .. كانت تلك من المرات القليلة التي يُسمح فيها للطلاب من النوعين بالركوب أو النزول عبر سلم واحد مشترك ..

فصل ٢/٣ كان يقع في الدور قبل الأخير ، وكانت البنات والأولاد الصغار ينزلون متشابكي الأيدي تنفيذا لتعليمات مدرساتهم .. أما الفصول من الصف الأول وحتى الثالث الإعدادي فقد كانت منفصلة بنات عن أولاد .. كانت " إسراء " الصغيرة تهبط بتؤدة وسط رفاقها ممسكة بيد ابنة عمها الأكبر والأطول منها " سما " .. التي كانت تعتبر في المدرسة الحارس المناوب المسئول عن سلامة المفعوصة الصغيرة ، التي يصعب رؤيتها بالعين المجردة .. فجأة وجد الأولاد الصغار أنفسهم يندفعون إلي الأمام تحت ضغط الأولاد الكبار الشرسون الآتون من فوقهم .. يندفعون فوق السلالم .. سقط بعض الأولاد الذين في المقدمة تحت الضغط الشديد من فوقهم وتعفرت ثيابهم ووجوههم بالتراب .. لكنهم وبسبب صحة بنيتهم تمكنوا من دفع الضاغطين عليهم ورفع أنفسهم وإخراجها من تحت الأرجل .. أنتهي الموقف على خير؟!

لا لم ينته .. لأن المزيد من الأولاد الكبار ، أولاد الصف السادس الفارعين هذه المرة ، قدموا كجحافل الجراد وتساقطوا فوق الجميع .. سقط أطفال الصفين الثاني والثالث الأبتدائي ، وأتي المزيد من الأطفال من فوقهم وتكوم الكبار فوق الجميع .. انفلتت يد " إسراء " الصغيرة الزلقة من يد ابنة

عمها ووجدت نفسها ، كصخرة صغيرة تائهة مذعنة لقوة تيار ماء هادر ، تنزلق وتسقط سقوطا متتابعا فوق السلالم .. سقط المزيد من الأولاد ، وأزداد حجم الأجسام المنهارة فوق بعضها البعض .. أخرج الأطفال الأكبر أنفسهم من تحت الأرجل بمساعدة أيدي زملائهم الذي شدوهم .. أما الطفلة القزمة فقد تلاشت وسط الأرجل ولم يعد أحد تقريبا يراها أو يشعر بها وهي تٌعتصر بأسفل .. صرخت البنات وتعالي صياح الأولاد ..

خطأ ، خطأ يحدث هنا ولا أحد يشعر به .. تدافع المدرسون يحاولون حجز من لم يأتوا بعد ومنعهم من الارتماء فوق الكتلة المختلطة من الصبيان والبنات .. لكن ذلك كان صعبا ، مستحيلا ربما .. مستحيلا ..

هرعت المدرسات ينقذن البنات ويحاولن جر من يمكنهن جره منهن من أسفل ، بينما المدرسون يعملون من أعلى .. تهاوي المزيد والمزيد من الأولاد وأصبح السلم كله وكأنه متحف من زجاج هوت عليه قنبلة .. تناثر الأولاد هنا وهناك ولاكت الأقدام القوية المذعورة الصغار منهم .. دوت الصرخات وتعالت أكثر وأكثر .. أخيرا أحس السيد المدير وزائره الخطير بما يحدث ، فاندفعا في إثر بعضهما من المكتب المغسول النظيف .. تلاشت وجوه بعض التلاميذ وسط غابات الأذرع والسيقان ، وتدافع الطلبة بالمناكب وتضاربوا بالأرجل محاولين تخليص أنفسهم من الملزمة العاصرة التي وجدوا أنفسهم محشورين بين أسنانها .. المزيد من الدفع والركل .. لكن المدرسات نجحن في سحب البنات اللائي في المقدمة فحدثت انفراجه ، ودخل الهواء بين الصفوف المتهاوية ووجد الطلاب أخيرا أنفسهم قادرين على التقاط أنفاسهم الهاربة المكتومة .. الكثير من الجروح البسيطة والكدمات والمرايل والجلبابات المتربة المعفرة .. لكن أسفل الكومة كان ثمة جسد صغير ممدد !

" إسراء " التي انزلقت تحت الكومة وانحشرت برأسها الصغيرة وجسدها الصغير وذراعيها الصغيرتين .. اندفعوا فوقها فحاولت أن تدفعهم عن نفسها .. لكن أني لتلك القبضات اللينة الصغيرة ، ولهذه الأيدي الضعيفة العاجزة أن تزود وتحمي جسدا صغيرا دقيقا بلا حول ولا قوة .. أخذت كبر الدفعة فوق ظهرها فسقطت على وجهها .. هوت وهووا فوقها .. وتحت الأرجل والأقدام وبين الأجساد لم يلحظها أحد .. لم يسمعها احد وهي تصرخ وتستغيث .. صرخت صرختين قبل أن تهوي فوقها فتاتان كبيرتي الحجم ويخرس صوتها للأبد .. فرقوا الأطفال من حولها .. فرقوهم قسرا وأضطر المدرسون لاستخدام العصي الغليظة وأفرع الأشجار اللدنة اللاسعة لضرب الأولاد وتشتيت شملهم ، وإبعادهم عن الدائرة الصغيرة التي افترشتها " إسراء " بجسد متكور على نفسه ووجه وأطراف مزرقة متورمة وملامح سطر عليها الذعر واليأس أقوي علاماته الوقحة .. لا نفس يتردد في صدر البنت .. لا نفس يدخل صدرها أو يخرج منه !

أحاطت المدرسات وبعض المدرسين والمدير وزائره بمركز الدائرة ، حيث جثت " سناء " على ركبتيها واضعة الطفلة فوق حجرها تحاول إنعاشها والقيام بإجراء تنفس صناعي لها .. بينما أنشغل بقية المدرسون في إجلاء جحافل التلاميذ بعصيهم وفروعهم وإخراجهم من المدرسة عبر الباب الكبير ، الذي فتحوه على مصراعيه لتنفذ منه كل تلك السيول المتدفقة .. ووسط دموعها المنهمرة بدأت " سناء " تحاول إنقاذ الطفلة ، كان لديها خلفية طيبة في الإسعافات الأولية .. فبدأت تحاول جعل الطفلة تتنفس ولما وجدت أن صدرها لا يتحرك وأن أنفها لا يستقبل ولا يطرد هواء تأكدت أنها ستموت .. لكن لا لا ..

حاولت إنعاش تنفسها وأخذت تنفخ من أنفاسها الحارة المبللة بالدموع .. منحتها قبلات حياة متكررة ، لكن لا استجابة تصدر من الفتاة ، تحسست نبضها وضغط بإصبعها على حنجرتها راجية أن تعثر أناملها على علامة من علامات نفاذ الأكسجين وتخلله للصدر الساكن .. دلكت قلبها وأخذت تضغط على عظام صدرها اللينة إلي أسفل محاولة جعلها تستجيب .. هرع البعض أخيرا يطلبون الإسعاف الذي لن يأتي غالبا إلا بعد أن تكون الفتاة قد تحللت في قبرها !

رفعت " سناء " وجها محمرا مغطي بالدموع ، وقد بلل العرق أطراف شعرها وجعلها تسقط متهدلة من طرف طرحتها الأمامي .. كان الجميع يقفون حولها الآن صامتين متوقعين الأسوأ .. لكن لا أسوأ مما يحدث الآن .. أو مما قد حدث وأنتهي للأسف !

(٨)

مرت أيام منذ أن بدأت " نعمة " التفكير جديا في العودة لاستكمال دراستها .. كانت تعرف يقينا أن زوجها سيرفض ، هذا أمر مفروغ منه ومنتهي .. وحتى إن رضخ ونخ هو ، فإن العقربة أمه لا يمكن أن تدعه يوافق ويمنحها الحق في أن تكمل تعليمها .. لكنها قررت مقاومتهما معا .. حتى وإن كان المقابل أن تسمح له بالزواج عليها !

قد تبدو قاسية أو نفعية أو مجردة من المشاعر لتدفع رجلها إلي امرأة أخري لمجرد أن يتركها هو تكمل تعليمها الذي تركته أساسا من أجله .. لكنها حسبتها في رأسها جيدا على مدار الأيام الماضية !

حسبتها بعقلها وليس بقلبها ، وحددت المنافع وقيمت الخسائر فوجدت أن هذا هو أفضل وضع يمكن أن تستقر عليه الأمور .. إنه سيتزوج عليها في كل الأحوال !

لن تنجب له الولد غالبا ، فقد صدقت نظرية أمه في أنها ليس في عنقودها سوي البنات .. وحتى لو كان بعنقودها اللعين هذا صبيان فهي لم تعد ترغب في المزيد من الإنجاب .. لقد ملت الأمر بمنتهي البساطة !

كرهت دور (الماعون) وتضجرت منه وبدأت تحس بالإهانة والإذلال كلما سمعت إحداهن تناولها بالكلمة الثقيلة :

" ربنا يعوض عليكي يا أختي ! "

لا .. لا مزيد من هذا بعد الآن .. فلقد رأت رفيقاتها صرن معلمات وموظفات وطبيبات ، بينما هي كل المطلوب والمنتظر منها أن تستمر في الحمل والولادة حتى يعوض عليها الله !

وماذا لو لم يحدث .. ماذا لو أنها لم تنجب له الولد عاجلا أو آجلا ؟!

سيتزوج عليها " عبد الرحيم " حتما .. سيأتيها بضرة غصبا ولن تملك إلا الرضوخ والخضوع .. أليس من الأفضل إذن أن تتركه هي يتزوج برضاها مقابل أن تحصل على مكسب لنفسها ؟!

أليس هذا حكم العقل وتدبيره .. وأليس حكم العقل وتدابيره دائما أكثر حكمة وحنكة من تدابير القلب الواله المحب الأعمى ؟!

لقد اتخذت قرارها إذن .. ستذهب إليه وتقول بمنتهي الهدوء :

" روح أتجوز يا أخويا ربنا يعوض عليك ويديك اللي تتمناه .. بس أنا هكمل تعليمي وأشوف حالي ! "

لن تصرخ ولن تبكي أمامه .. لن تنهار وتكشف شعرها وتمزق نفسها حزنا وسوادا عليه .. فليذهب !

إن كان لابد أن يذهب .. فليذهب تاركا لها فائدة صغيرة تعويضا عن كل ما ألم بها وكل ما عانته من أجله !

أربع بنات معلقات في رقبتها .. هذا كاف جدا .. أكثر من كاف بالنسبة لها أما هو فليذهب ويأتي بالولد من بطن أخري غير بطنها !

أهي قاسية .. أهي مجردة من المشاعر!

ربما لكن (كتر القسوة يعلم الجفاء) .. وقد تعلمت الجفاء منه ومن أمه .. وليس له عليها لوم ولا عتاب !

لكن الزوج في الحقيقة لم يكن منتظرا مشورة الزوجة ولا موافقتها فهو قد خطب لنفسه بالفعل .. وجد العروس المناسبة ، وقد كانت أمامه طوال الوقت ، لكنه لم يكن يراها أو يفكر بها .. إنها أخت المعلم " بدوي " على سن ورمح !

إن لديه آختا أرملة أمية لا تقرأ ولا تكتب ، وقد مات عنها زوجها ، الذي كان تاجرا بالسوق هو الآخر .. وترك لها ولدين صغيرين أخذهما أهل

أبيهما المتوفى ، وبقيت أمهما أيم في انتظار زوج جديد بعد أن رفض أخوها الثري إعالة ولدي رجل غريب ، أو الإبقاء عليهما في بيته وسط بناته .. إنها أمامه منذ سنوات فكيف لم يفكر بها من قبل ؟!

ومن ناحية أخري فهو مطمئن لها لأنها أنجبت ولدين ، ومعني هذا أن لها في إنجاب الذكور .. وأنها غالبا ، إن شاء الله ستأتي له بالولد ، ولن تتحفه بالمزيد من البنات والولايا اللائي يبقون معلقين في رقبته طوال العمر !

و" نعمة " .. ما الذي ستقوله " نعمة ؟!

فلتقل ما تقول ولتفعل ما تقدر عليه فهو لن يرضخ ولن يحن ولن يتراجع تلك المرة .. عاد إلي البيت حاملا لها القنبلة منزوعة الفتيل ليرميها في وجهها بينما هي تعد له لغما ينفجر في وجهه !

لكن الجميل أن كلا منهما لديه ما يساوم عليه تلك المرة وعنده ما يتفاوض بشأنه .. سيطلب هو أن تسمح له بالزواج ثانية ، ولا تسحب البنات على بيت أبيها مطالبة بالطلاق وتنكد عليه وتسود عيشه .. وهي ستتنازل وتقبل أن تدعه يهنأ بالعروس الجديدة ويحظي بالولد الذي يريده مقابل أن يسمح لها بالعودة إلي استكمال تعليمها !

إنه الحب والزواج حين يصل إلي مرحلة (شيلني وأشيلك وسيب وأنا أسيب) .. وهي أكثر المراحل وساخة في الحياة حقا !

كانت الزوجة الشابة تنظف المطبخ ، بعد أن أطعمت البنات ووضعتهن في أسرتهن ، وأرضعت الصغيرة وأنامتها على سريرها وسرير زوجها في غرفتهما المشتركة ، بينما في رأسها تدور معركة حامية مهولة .. لقد انتوت أن تحادثه في الأمر الليلة ليتصادف هذا بالضبط مع قراره المماثل بالتحدث إليها في شأن أخت الحاج " بدوي " بالصدفة المقدرة تماما !

أهذه صدفة أم شيء آخر؟!

ليس مهما .. دخل عليها وهي راكعة بجوار البوتاجاز تجمع بعض النفايات التي خلفتها البنات ونثرنها في كل مكان ، وتسحبها بالمقشة لتضعها فوق الجاروف البلاستيكي الصغير تمهيدا لإلقائها في صفيحة القمامة الموضوعة بجوارباب المطبخ .. تنحنح ثم هتف مصطنعا الود :

" يمسيكي بالخيريا أم " شيماء " ! "

أحست به وهو يأتي من خلفها فلم تجزع لسماع صوته المفاجئ .. ردت عليه وهي لا تزال تواصل الكنس والتنظيف :

" يسعد مساك يا اخويا .. أحطلك تتعشي ! "

لا لم يكن يريد أن يأكل فقد جعلته الفرحة يشعربالشبع :

" لا الله يخليكي .. واكل بره شوية فطيرعند الحاج " بدوي " ! "

تعمد أن يحشرسيرة الحاج " بدوي " ، الذي لم يأكل عنده ولا أي شيء من هذا ، في وسط الحوار بينهما لكي يمهد لذكرسيرته وسيرة أخته فيما هو آت قريبا :

" طاب يا أخويا بالهنا والشفا ! "

أنهت ما كانت تقوم به .. فوقفت بعد أن وضعت الجاروف والمكنسة جانبا ، وقامت تعدل الإيشارب المنزلق على رأسها وتنفض البقايا والغبارعن ذيل ثوبها :

" أعملك هبابة٦٣ شاي ولا حاجة سخنة تشربها ؟! "

رفض فورا قائلا:

" لا لا متتعبيش نفسك .. واكل وشارب .. "

كاد يكمل لائما ليقول لها أنه (واكل وشارب من كيعانه) .. لكنه رأي أن اللطافة والخفة مطلوبة في هذا الموقف أكثرمن الحدة واللوم والتنابذ :

" بس كنت عايزك في كلمتين يا أم العيال ! "

فورا أجابت :

" ده أنا اللي كنت عايزاك يا أخويا .. كلمتين كده بس أياكش ربنا يهديك ونتفاهموا كده ومنزعلوش بعض ! "

ضحك وسألها مستظرفا :

" طيب تعالي نقعدوا في الصالة نتحدتوا ٣٥ ! "

فورا اقترحت الحل الأفضل والأكثر سلامة :

" لا تعالي نخشوا أوضتنا ونحكوا هناك .. عشان بس منزعجوش الحاج والحاجة ! "

لم تكن تخشي إزعاج أحد، لكنها كانت تحاذر أن تسمعها حماتها البومة فتعطل لها خطتها وتوقف المراكب السايرة كعادتها !

لم يعارضها في شيء .. فهو مثل قطعة الزبد الليلة وما إن تقرب السكين منه حتى سينشطر نصفين تحت يدها .. كل هذا من أجل عيون العروسة الجديدة .. وهي من جانبها كانت مستعدة لأي تنازل وتحمل أي ألم مقابل أن تنفذ ما تريد وتحصل على مبتغاها !

*****

دخلا الغرفة معا .. كانت البنت الصغيرة ملفوفة في كبرتاية وغارقة في النوم بهدوء .. مال الأب عليها وقبل جبينها .. فعل ذلك بعفوية ودون تخطيط ، لكن تلك الفعلة الصغيرة صعبت الأمر عليه فجأة ولا يدري لما أحس بذلك .. جلسا متقابلين على الفراش وفتح هو الكلام .. بدأ هو المساومة فكان يجب عليه أن ينهيها كذلك أيضا :

" بقولك يا أم " شيماء " .. عايزين يا خيتي كده نقولوا كلمتين بس الله يكرمك بلاش زعيق وصويت وردح ! "

مقدمة تحذيرية لا بأس بها لكن " نعمة " لم تكن بحاجة إليها :

" لا متخافشي لا هنصوتوا ولا هنردحوا .. لقيت عروسة يا ولد الناس وعايز تتجوز ؟! "

داهمته مباشرة فترنح .. لم يتوقع منها تلك البساطة وهذه الصراحة .. قال محاذرا وقد بدأ يشعر بالقلق :

" مخبيشي عليكي .. أيوه ! "

ردت فورا وهي تعيد ربط الإيشارب :

" على بركة الله ! "

فتح عينيه لينظر إليها مبهورا مذهولا :

" أيه .. يعني أنتي مش زعلانة ؟! "

كان يستدر غضبها الآن ليشعر برجولته وحاجة زوجته له لكنه أخطأ الفهم .. فهي كانت تتألم لكن لديها ما تساوم عليه وما تطلبه في المقابل !

" لا يا خي هزعل ليه .. أنت راجل ملو هدومك وعايز الواد اللي يسند ضهرك ، وأنا ربنا ما أردش يديني الواد .. هنحبسوك ولا نمنعوك من حقك ليه .. ربنا محللك أربعة يا ولد الناس .. وأنت مش أول راجل يجيب مرة تانية على مرته .. أنا لا هزعق ولا هردح ولا هغضب .. "

صمتت للحظة ليبتلع كلماتها المرة ويهضمها ، قبل أن تطعمه بقية ثمرة المر التي تذوقتها قبله :

" بس يا واد الناس المثل بيقول الضرة مضرة وأنا يا أخويا هسكت وأستحمل وأحط شبشب في حنكي ومش هنكد عليك .. بس أنت كمان كده تعملي اللي أنا عايزاه ! "

بدأ يتوتر ويتشوش تفكيره .. فماذا يمكن أن تريد زوجته منه ؟!

أتريد بيتا مستقلا لها ولبناتها ؟!

أتريد أن يأخذ لزوجته الجديدة شقة بعيدا عنها ؟!

إنه لا يقدرعلى شيء من ذلك .. فليس معه مالا يشتري به بيتا ولا يمكنه دفع إيجارات الشقق المرتفعة ولا تحمل فتح بيتين !

" عينيا ليكي يا أم " شيماء " ! "

قالت فورا عارضة طلبها :

" عايزة أكمل تعليمي يا خي ! "

بهت .. بهت حقا فلم يكن يتوقع ذلك .. توقع كل شيء وأي شيء لكن ذلك المطلب بالذات كان غريبا جدا بالنسبة له !

" تعليم أيه يا أم البنات .. مش خلصنا إحنا من المدارس وقرفها من زمان .. عندك أربع بنتة معلقين في رقبتك .. أنت شبشوبة ٦٤ هتروحي وتيجي بالمريلة يا مرة ؟! "

كان يقرعها ويلومها ، لكنها كانت تبتسم ساخرة .. فهو يردد الكلمات التي بالضبط توقعت أن يقولها !

نفس الحجج الفارغة ونفس الأسلوب المعتاد في تكسير المجاديف وتسفيه الأحلام !

" يا ولد الناس .. أنا لا هلبس مرايل ولا هروح وهجي .. أنا هقدم على منازل وهذاكر في البيت وهروح على الامتحان ! "

حك مؤخرة رأسه وشعر بشيء يدق غاضبا في عقله :

" يا ولية أعقلي .. أعقلي يا بت الناس وشوفي صالحك وصالح بناتك .. أبقي علمي عيالنا وخليهم يطلعوا زي ما كنتي عايزة تطلعي أنتي ! "

ابتسمت له ثانية :

" ما هو شوف يا ولد الحلال .. أنت عايز تتجوز وأنا هسيبك ومش هعملك مشاكل .. وأنا عايزة أتعلم .. هتوقفلي في حاجتي هقفلك في حاجتك ..

لا أنت هتكسب ولا أنا هكسب .. خلينا حبايب وخلي كل واحد من تلاه وبلاش نعندوا مع بعض .. ملوش لزوم يا ولد أبويا ! "

فهم قصدها الآن .. إنها بالفعل تستطيع أن تخلق له مشاكل لا حصر لها .. يمكنها أن تحزب العائلة ضده وتقسم الناس نصفين .. يمكنها أن تصدع رأسه وتطفش العروس من البيت بمجرد أن تدخله .. إنه يعرف لؤم وكهن الحريم جيدا ، ويعرف ما الذي تستطيع امرأة أن تصنعه بضرتها !

أدار الأمر في رأسه بسرعة ، وهو ينظر بغيظ لوجهها الهادئ .. يري التصميم والإصرار في وجهها .. يري المشاكل التي قد تخلقها له و(الوش) الذي ستصدع به رأسه .. فعلام كل هذا ؟!

إنها لن تستطيع أن تواصل أو تواظب .. لديها أربع بنات وفوق رأسها البيت بمشاغله ومتاعبه وهمومه ، وفوق كل ذلك أمه !

ستعاند شهر أو شهرين .. ستصل بعنادها حتى الامتحانات .. ثم ماذا ؟!

سترسب حتما وبلا أدني مناقشة .. إن الطلاب المنتظمون الذي يأخذون كومة دروس خصوصية في الثانوي يرسبون .. فما بالنا بامرأة تذاكر في المنزل محاطة بأطفال ومشاكل لا حصر لها !

شعر بالإهانة لكون زوجته ، حبيبته وامرأته ، تساومه عليه هو .. تساومه أن تقبل فقدانه مقابل أن يسمح لها بإكمال تعليمها .. لكن ألم يأتيها هو مساوما منذ البداية ؟!

" طيب يا خيتي .. نشوفوا .. بس نتمموا موضوع الجوازة ده الأول ! "

" لا لا بقولك أيه .. إحنا كل واحد من تلاه أنت تروح اسم الله تخطب وتتجوز .. وأنا من بكره هروح أشوف موضوع التقديم ده .. آمال أيه يا أخويا ده له مواعيد وممكن ملحقش السنة لا قدر الله ! "

شعر بالإهانة ثانية .. ثم بألم غاص في قلبه .. إذن فهذه هي نهاية قصته مع " نعمة " التي أحبها طوال عمره ؟!

أربع بنات وضرة وتعليم وحياة تعاش بالطول أو بالعرض .. لأنه لا محيص عن أن تُعاش وليس لأي سبب آخر!

أحني رأسه مسلما مستسلما فقد أحسنت تقديم بضاعتها وأحسنت التقدير:

" طيب يا بت الناس .. بس تنبهي على ناسك ملهمش دعوة بينا .. ولا حدش فيهم يجي يقول لي كلمة .. أديني بنبهك وبعرفك أهوه عشان منعملش مشاكل ملهاش لازمة ! "

طمأنته فورا :

" لا ملكش دعوة أنت .. ناسي أنا هعرف أتصرف معاهم ! "

نهض من فوق الفراش أخيرا .. كان مضعضعا ويشعر أنه فقد شيئا هاما ، شيئا لا يعرفه ، على طرف هذا الفراش الذي شهد عرسه السعيد منذ بضع سنوات .. لم تناده " نعمة " ولم تحاول أن تستبقيه ، فهي قد أدركت مثلما أدرك أن ما سيفعله الآن هو الحل الأمثل .. مشي بضع خطوات حتى وصل إلي باب الغرفة ثم استدار لينظر إليها ويقول بهدوء :

" أنا هروح أنام في المندرة .. عشان تاخدي راحتك أنت والبت ! "

حجة فارغة لكنها تركته يذهب .. ألقي عليها نظرة أخيرة أحست منها أنه أكتسب عمرا فوق عمره الحقيقي في لحظة وأنه شاب أمام عينيها دون أن تلحظ ذلك ..

رماها بنظرة خافتة ثم ذهب لحال سبيله !

*****

في الصباح كان البيت كله قد تغير.. لم يكن هناك شيء قد فُقد وتحرك من مكانه ولم يتبدل شيء في نظام البيت ، ولم يزد عليه أحد أو ينقص منه .. لكنه مع ذلك كان قد تغير تغيرا كاملا !

انفصمت فيه عري قديمة ، وأعيد توثيق عري وصلات جديدة غيرها .. صحا " عبد الرحيم " مبكرا جدا ، هو لم ينم في الحقيقة ، فوجد أمه تجلس في الصالة تشرب الشاي باللبن ، وترمق الكون حولها بنظرة بومة خرجت ليلا لتصطاد الفئران فلم تجد شيئا وباتت ليلتها جائعة .. في الحقيقة فقد كان لدي الحماة سبب وجيه للتكدر والسخط على ما حولها .. فقد فتحت عينيها صباحا على زغاريد تنطلق من بيت جيرانهم ، الذين وضعت زوجة ابنهم تؤمين منذ قليل .. زوج من الأولاد بينما ولدها البكري محروم حتى من ولد واحد يقيم أوده !

كانت تمصمص الشراب الدافئ وتبتلعه وكأنه مرا في حلقها .. فلم تكد تري ولدها حتى قررت فورا أن تنكد عليه على غيار الريق ليرعوي ويسمع كلامها :

" صباح الخير يا أمايا ! "

" يصبحك بالخير يا ولدي يا زينة الراجل .. أسكت مش صاحبك واد " مدبولي " الحلاق جاله وادين يا واكل اللي جابوك ! "

هكذا تلطمه على وجهه دون رحمة .. لكنها كان مستعدا لها هذه المرة :

" أنا هتجوز يا أمايا .. كلمت " نعمة " إمبارح وربنا هداها ولقيت بت الحلال اللي تنفعني ! "

وضعت الأم الكوب الذي تلطخت جدرانه بدهن اللبن الدسم من يدها وأطلقت زغرودة مجلجلة :

" من صح يا واد ولا يتضحك على أمك ؟! "

بلا أي انفعال ، لا حزن ولا غضب ولا فرح ، رد عليها مؤكدا :

" لا متخافيش .. إن شاء الله هكلم أخوها النهاردة وربنا يسهل ويتمم بخيرعن قريب إن شاء الله ! "

أضاء وجهها بالفرح وهمت بإطلاق زغرودة ثانية لكنه قال مسكتا إياها:

" خلاص يا أما خلاص خلاص .. أنت ما صدقتي على الصبح ! "

كادت ترد عليه مؤنبة لأنه يريد وأد فرحتها لكن دخول " نعمة " حاملة " حسناء " الصغيرة الباكية أوقف تلك المناقشة سريعا :

" صباح الخير! "

قالت " نعمة " بوجه محايد أغمق لونه ، واكتسب سمرة غريبة في ساعات قليلة .. رد " عبد الرحيم " فورا وهو يهرع ليأخذ البنت من بين يديها:

" صباح النور .. مالها البت كفا الله الشر ! مالك يا حنونة يا حلوة .. مالك يا بطة ! "

كان يدلل الطفلة ، التي لم تتوقف عن الصراخ ، بينما تقف زوجته تنظر إليه وكأنها لا تراه أصلا .. أما الحماة فلم يعجبها شفشف الحنية الذي أندلق من ولدها فجأة ، وخشيت أن يعطل هذا مشاريعه في الزواج فهتفت مستهزئة وهي ترفع ساقها المتورمة لتضعها على الكنبة بجوارها :

" مالها يا ضنايا ما هي زي العفريت أهي .. هما الملكمين البنات دولا بيجرالهم حاجة .. يلا عن قريب تجيب الواد وتحطه على حجرك يا أمي .. بلا بنات بلا هم ! "

كانت تستعدي " نعمة " وتحاول جر شكلها ، لكن الأخيرة كانت في شغل شاغل عنها .. قالت لزوجها متجنبة النظر في وجهه :

" أنا هروح النهاردة زي ما أتفقنا إمبارح .. بت خالتي هتعدي عليا كمان شوية ونروحوا سوا ! "

شعر بغصة ولف يديه حول البنت بقوة أكثر مما ينبغي :

" على طول كده .. مش لسه بدري ! "

" بدري من عمرك يا سيد الرجالة .. لازم ألحق قبل ما يقفلوا باب التقديم ! "

انتبهت الحماة للحوار الذي لا تفهم منه حرفا فتساءلت محاذرة :

" هو أيه ده اللي هتلحقيه وتقدمي عليه ده يا مرت ولدي ؟! "

لم تهتم بها " نعمة " بل مدت يديها تأخذ طفلتها ، التي هدأت قليلا ، من بين يدي أبيها .. وقالت لحماتها دون أن تنظر إليها أصلا :

" خلي ولدك يحكيلك .. أنا رايحة ألبس وألبس " حسناء " ! "

*****

لم يمانع الحاج " بدوي " في إعطاء أخته لرجل متزوج ولديه امرأة أخري على ذمته وأربع بنات في رقبته .. أساسا فإن العروس وأهلها لا يتوقعون إن يأتيها خاطب إلا من هذه العينة .. رجل متزوج أو مطلق أو أرمل أو مسن فلن يرغب فيها الشباب ولن تصلح هي لأحدهم !

ولأن المرأة الأرملة مثلها كمثل المطلقة في هذا المجتمع تعتبر فضلة ونفاية رجل آخر ، فإن إقبال رجل على الزواج منها يعتبر تفضلا وتكرما منه عليها .. ولذلك قبلت شقيقة الحاج " بدوي " أن تتزوج ب" عبد الرحيم " ، الذي لم يرها ولم تراه من قبل .. وما إن زُفت إليه بشري الموافقة المبدئية حتى بدأ أبو البنات في التحضير للزواج !

كان هناك شقة صغيرة مغلقة في أعلى البيت محجوزة لأخيه الأصغر " عمر " ، الذي يُبقيها مغلقة لحين تجهيز نفسه والاستعداد للزواج .. طبعا لم يكن من الوارد أن تبقي الزوجتين معا في نفس المكان وإلا تمخض عن ذلك

حريقة يومية في البيت ، خاصة مع وجود البنات اللائي لن يتقبلن وجود هذه الدخيلة بينهن ، وقد يضايقنها أو يتعبنها بأي شكل ، وما أكثر حيل الصغار وألاعيبهم الخفية .. أنثني " عبد الرحيم " إلي أخيه يحاول إقناعه بإعطائه غرفة واحدة في شقته المقفلة ليتزوج فيها من أخت " بدوي " .. طبعا رفض الأخ في البداية وتخانق ، وأفتعل مشكلة واصلة إلي رب السماء .. لكنه ما لبث أن تراجع وبدأ يتساهل ويبدي استعداده للموافقة نظير شرط .. شرط صغير لكنه لن ينفذ الآن بل سيأتي موعد التنفيذ حين يصبح " عمر " على وش زواج .. فسيأخذ " عبد الرحيم " غرفة في شقته لكن هذا الوضع سيكون مؤقتا ، وليس دائما ، وعليه أن يعد غرفة أخري لزوجته الثانية بأسفل البيت .. أو أن يساعد أخيه ماديا لاستئجار شقة أخري خارج البيت حين يعن له الزواج !

وافق " عبد الرحيم " ، ووافق الأخ ووافقت الأم .. وأطلقت الزغاريد رغم أنها لم تكن قد رأت العروس من قبل ولا تكاد تتذكر حتى اسمها ، الذي أخبرها به ولدها ذات مرة ونسيته .. أما " نعمة " فلم يأخذ أحد رأيها في شيء ولم يهتم برضاها أو عدم رضاها !

من ناحيتها أخذت الأم الشابة بناتها تحت جناحيها وقررت أن تأخذ لها جانبا من المنزل ، وتضم أطفالها إليها ولا تبالي بشيء مما يحدث حولها ، ولا بأحد ممن يعيشون معها حتى بزوجها نفسه .. لقد حدث بينهما الشرخ النهائي وصارا غرباء عن بعضهما تماما .. صحيح أنها لا زالت زوجته ، كما أنه محسوب عليها رجلا وزوج، لكن كل هذا لم يعد سوي حبر على ورق .. سيلقي بنفسه بين ذراعي امرأة أخري ، وعلى كثب منها ، لا يفصلها عنهما سوي بابين وبضع درجات سلم ، سيفعل هذا من أجل الولد كما يقول .. لكنها تعرف الآن أن الرجل حينما يقرر أن يتزوج بامرأة غير زوجته فلا تهم المبررات التي يصنع من أجلها ذلك .. الزواج بأخرى قرار يتخذه الرجل بمعزل عن أية مبررات أو

حواجز أو أسباب .. فلا موانع العالم تستطيع أن تمنع رجلا من الزواج بامرأة أخري غير زوجته إذا أراد ذلك .. ولا مغريات العالم تستطيع دفعه إلي ذلك ما دام لا يريد ذلك !

إنه شيء يسري في دم بعض الرجال كجرثومة الحمى .. شيء منعزل تماما عن عوامل الجمال والحب والأولاد ، وحتى حسن العشرة وحلاوة القرب .. إنه شيء وجودي غامض كظواهر الطبيعة .. قدر مخطط سلفا والرجل هنا ليس إلا منفذ أعمي .. أم أنه أكثر من كونه منفذ وحسب ؟!

لم يعد هذا يعنيها في شيء .. فلا شيء عاد يهمها الآن .. إنها خسرته وانتهت لكن الحقيقة إن خسارة رجل لا ينظر إلي زوجته إلا كوعاء لا تُحسب خسارة أبدا !

العروس الجديدة هي الخاسرة وليست هي .. فستكون مهددة أكثر منها .. وستكون على شفا الحفرة وعلى حافة الجرف أكثر منها !

أزاحته بعيدا عنها وليشمل بخطره من يشمل ، فما من شيء باق لها الآن سوي نفسها .. ونفسها مقسومة على اثنين .. ذاتها هي الحرة وبناتها .. جزءان لا ثالث لهما ولا يقبلان التثليث ولا مزيد من التجزئة .. الثلث كسر ضعيف محلول الوسط ، أما النصف فهو الكسر الأقرب والأكثر قوة والأكثر قابلية للالتحام بسهولة !

اثنان فقط يا " عبد الرحيم " ولا ثالث سيدخل بينهما .. أنا وبناتي ومن بعدنا فليأتي الطوفان بقوته وليكتسح من يكتسح !

هل تظن أنها تبالي بك وقد سمعت زغاريد أمك تتردد ، وهم ينقلون عفش العروس وحاجياتها إلي الداخل ، وأنت واقف تشرف على ذلك وتسمع .. تسمع بأذنيك وتنصت ولا تمنع ولا تشفق يا رجل ؟!

تقدمت " نعمة " بأوراقها وشهادة إتمام التعليم الأساسي ، المرحلة الإعدادية ، طالبة قبولها للالتحاق بالمدرسة الثانوية .. لم تكن أمها راضية عن شيء مما يحدث .. دهشت المرأة لوقوف ابنتها صامتة ساكتة ، بل لعلها تكون راضية ، أمام زوجها وهو يتزوج عليها ويأتيها بمنافسة إلي عتبة بابها .. كان بإمكان والد " نعمة " وأخوتها التصدي ل" عبد الرحيم " ، وخلق مشاكل لا حصر لها له .. لكن أيديهم غُلت أمام صمت ابنتهم ، وقبولها الضمني المثير للدهشة .. وكذلك لم تكن أم " نعمة " راضية بتفكير ابنتها في العودة إلي الدراسة والمدرسة والتعليم والامتحانات .. أي دراسة وهي يجب أن تركز قواها ، منذ اللحظة ، على أن تنجب الولد .. لتسترد زوجها من ضرتها وتغيظ المنافسة وتهري كبدها !

لكن " نعمة " لم تكن راغبة في شيء من هذا .. لقد سئمت من الإنجاب عامة ، ولا رغبة لديها في أن تزرع المزيد من البذور في رحمها لتطرح لها أطفالا باتت تضيق بهم أشد الضيق ، وتشعر في الوقت ذاته أنها جنت عليهن .. كان يجب أن تفعل ذلك منذ البداية .. اخطأت عندما رضخت لهم ، وأجرمت في حق نفسها حين استسلمت كنعجة تساق إلي الذبح .. لا مزيد من هذا الآن فهي قد وضعت قدمها على أول الطريق الذي كان يجب أن تسير فيه منذ البدء !

لكن للأسف فإن عودتها إلي المدرسة الثانوية لم تكن سهلة هينة كما كانت تتمني وتحلم .. قامت في وجهها المصاعب والعقبات وحدثت تعقيدات لا نهاية لها !

الروتين الجامد لم يرحمها والبيروقراطية العفنة أخرجت لها لسانها مزدرية مغيظة .. فقد تركت المدرسة منذ بضع سنوات ، وليس من حقها العودة إلي الدراسة ثانية .. ساعدتها " سناء " بكل ما تملك وكل ما تستطيع ..

أخذت تجري هنا وهناك لتحصل على توصية من هذا المسئول ، أو توقع ورقة من هذه الموظفة الحمقاء الكريهة .. كانت " نعمة " تجري في طريق ، بينما زوجها يجري في طريقه الخاص هو الآخر .. لكن ، وبعكس طريقه الذي كان مستويا ممهدا مفروشا بالرمال ، كان طريقها هي طويلا مرهقا ملتويا مليئا بالحفر والزلط والدبش !

ورغم أن الطريقين كان متوازيان إلا أنها كانا متباعدين ويستحيل أن يلتقيا .. لكن الالتقاء حدث رغما عن كليهما ذات صباح كئيب يسبق عقد قران " عبد الرحيم " على " ثريا " ، شقيقة الحاج " بدوي " .. حينما اكتشفت " نعمة " مفاجأة غير سارة بالمرة .. اكتشفت أنها حامل للمرة الخامسة !

*****

ورغم أنها لم تكن تستخدم وسائل لمنع الحمل بشكل منتظم إلا أنها لم تتوقع أبدا أو تتصور أن يحدث هذا .. الغريب أن التباعد والتجافي الذي حدث بينها وبين زوجها في الآونة الأخيرة جعلها تستبعد تماما فرضية حدوث حمل جديد .. كانت " نعمة " تفكر بعواطفها ، وتعتقد أن الأطفال يأتون بالحب ومن الحب بين زوجين متفاهمين .. لكنها لم تكن تعرف أن الطبيعة لا شأن لها بالحب .. وأن الكيمياء هي مجرد زجاجات شفافة وسوائل ، وليست لها علاقة بالمحبة الصادقة ولا بالود الصافي أبدا !

عرفت الخبر فنزل عليها نزول الصاعقة .. " عبد الرحيم " ، الذي قررت هي إخفاء الأمر عنه ، لكن أمها سارعت بتبليغه ، أصابته صاعقة وتشوش فكره حينما أحس بالأمر .. الطفل الخامس آت بالضبط في الوقت غير المناسب !

فرحت أم " نعمة " واعتقدت أن هذا يُنهي الأمر لصالح ابنتها .. لكنها لم تكن تعرف أن ابنتها لم تعد تعتبر عودة " عبد الرحيم " لها انتصارا ، ولا ضربة قاضية لصالحها .. لقد دفعته بعيدا لتسترد نفسها وطموحها وأحلامها .. لكن دفعتها المرتدة الخائبة عادت عليها لتصطدم بوجهها .. حماتها وحدها هي التي لم تتأثر بالأمر في قليل أو كثير!

قالت لولدها وهي تزغده في صدره وتنهره بلهجة حازمة :

" مالك يا واد .. ما هتجيب بت زي كل مرة .. يعني أنت ضمنت إن فيها واد ؟! "

كانت الحماة تخشي من ضياع الزيجة ، وطيران العروس من يد ابنها .. خافت من أن يرده الحمل الجديد إلي عقله ويعيد التفكير بالأمر .. لكنها نسيت أنه قرأ فاتحة ووضع يده في يد أخو" ثريا " ، الذي يرتبط معه بمصالح متعددة ، وأن أي تراجع الآن ، ولو لمجرد خطوة واحدة ، يعتبر إهانة له وتقليلا من رجولته وحطا من قيمة الكلمة التي بذلها .. والتي خرجت من لسانه فعلا ولم يعد ابتلاعها واردا أصلا !

إنه لم يفكر في التراجع عن الزيجة الجديدة .. أبدا .. لكن عقله بدأ يتشتت ويهيم هنا وهناك .. ستلد " نعمة " له من جديد ، ولدا أو بنتا ، لا يهم هذا الآن ، لكنها ستلد في البيت وزوجته الجديدة فيه .. ولادتها لطفل جديد ، هو ابنه وابنها في نفس الوقت ، ذكره بأنها لا تزال زوجته .. لا تزال في عصمته ولا يمكنه التنصل من مسئولياته نحوها ولا نحو بناته ولا نحو العروس الجديدة !

أهو قادر على الوفاء بكل تلك المسئوليات .. سبع نساء معلقات في رقبته فهل هو قدر المسئولية وهل هو (قد الشيلة) .. هل سيستطيع أن يشيل أم سيكب على وجهه ويفتضح أمره أمام الناس !

شعر بنبي يزعق في رأسه .. لحظة إفاقة ، وربما ندم ، صغيرة سريعة .. لكنها سرعان ما تبددت .. فهو قد قرأ فاتحة وأعطي كلمة .. وفاتحته وكلمته أغلي عنده من كل ما بالعالم من نساء وبنات وزوجات وحبيبات !

انزوت " نعمة " على نفسها حزينة مكلومة في صدرها .. شعرت بأن الطفل القادم جاء خصيصا ليحطم أمالها ويقتل أحلامها فكرهته .. كانت تلك أول مرة تشعر بكراهية نحو جزء منها يسكن أحشائها ، وكم استهجنت هذا الإحساس وتعجبت منه .. لكنها كانت الحقيقة !

آمنت بأنه (عيل فقري) .. سواء أكان فقري أم فقرية فهو طفل لعين جاء في الوقت الخطأ ليجعل كل الأوضاع تعود إلي مرحلة الخطأ مرة أخري .. سرعان ما داهمها المرض ولزمت الفراش عقب معرفتها بأمر الحمل بيومين اثنين .. هرعت إليها أمها تحمل عنها عبء البنات ، لكنها أعلنت لها رغبتها في أن تبقي في بيت أبيها فترة حتى تشفي وتسترد صحتها .. ظنت والدة " عبد الرحيم " أن زوجة ابنها تتمارض وتتماوت لكي تهرب من البيت ولا تشهد بعينيها دخول العروس فيه لتكبس على أنفاسها فقالت لولدها غير مبالية بشيء :

" يلا المركب اللي تودي .. ده أنا هكسروراها قلة ! "

غضب " عبد الرحيم " لكلمات أمها ونهرها بعنف قائلا لها لائما مؤنبا :

" ليه بقي هي كانت عملتلك أيه يعني .. وبعدين متنسيش أن دي مرتي وأم بناتي ولا عمريش أستغني عنها ! "

رفعت المرأة الأريبة حاجبيها ، وعقدتهما في منتصف جبينها .. ولمعت نظرة سخرية في عينيها الواسعتين اللتين ملأتهما بطن من الكحل الذي ساح حتى كاد يغطي أنفها :

" طاب على مهلك يا دوهل .. على مهلك يا أخويا على نفسك .. خليك وراها لما تبليك بدستة بنات يقعدوا في رقبتك ولا يتخلعوش منها أبدا ! "

ثم غضبت وتعصبت ، وأخذت تعنفه بقسوة وبصوت مرتفع غير مبالية بوصول صوتها إلي أذان " نعمة " وأمها ، اللتين كانت مشغولتين بجمع بعض حاجياتها وحاجيات البنات ليذهبوا إلي بيت الجد كما أرادت الزوجة :

" مالك يا واد ما تصلب طولك وتشد حيلك كده وبلاش نحنحة وسهوكة يا حيلة أمك .. حنيت يا حنين .. مشبعتش من خلفة البنات يا أبو البنات .. ملت لك السرير بنته وكسرت رقبتك قدام الرجالة .. إن شاء الله أعدمها وأعدم بناتها يا رب في ساعة واحدة خليني أرتاح ! "

شعر " عبد الرحيم " بالحزن الشديد لكلمات أمه التي نكأت جرحه .. لكنه لم يجد في نفسه القوة اللازمة للرد عليها .. فقد كان يعتقد أنها لا تقول إلا الحق ، ولا تتفوه إلا بما يريد سماعه ليرتاح ويريح ضميره المعذب .. تنفس بغضب للحظة ثم هب تاركا لها المكان .. لائذا بالفرار إلي أقرب مهرب بعيدا عن البيت المشحون بالحزن والغضب والألم !

*****

بقيت " نعمة " في بيت أبيها بضعة أيام .. تنفست الصعداء وأخذت بناتها تحت جناحها .. كانت تتظاهر بالهدوء النفسي والاطمئنان لكن عاصفة كانت تضرب تحت جمجمتها المغلقة .. فهي تري بعيني خيالها العروس الجديدة تدلف ، في ثوب الزفاف الأبيض ، إلي داخل بيتها .. لتأكل خبزها وتأخذ رجلها وتحل محلها .. كانت تظن أن الأمر سيكون سهلا عليها لكن في الحقيقة ما أصعبه !

ليس فقدان الشخص بالموت بأصعب من فقدانه بالحياة .. بل لعل الأخيرة أوجع وأكثر إيلاما !

لو مات " عبد الرحيم " لأستعوضت الله فيه ، وبكته حتى عميت عيناها وظلت ذكراه حية في قلبها وعقلها .. لكنه لا يزال حيا .. حيا يرزق وعلى بعد خطوات منها لكنها تشعر أنه ميت !

مات بالنسبة لها .. مات في اللحظة التي رضي فيها بأن يضم امرأة غيرها بين ذراعيه ، ويكون رجلا لها مقسوما بالنصف بينهما .. مات وشبع موتا مع أنه لا زال حيا يشبع حياة وخيانة !

لم تكن تعرف أن البشر يتألمون بهذا الشكل .. الذي أوجعها أكثر أنها اختارت برضاها أن تدفن " نعمة " القديمة من أجل " نعمة " الجديدة ، التي تعود لتحاول تحقيق حلمها على مقاعد الدراسة والأمل .. لكن للأسف فهي لم تقطف عنب الشام ولا بلح اليمن .. فقدت زوجها ولم تكسب حلمها فخسرت الاثنين معا وخسرت نفسها معهما !

أتسمع زغاريد آتية من ناحية بيت زوجها ؟!

أيترأى لها هذا حلما أم أنه حقيقة واقعة .. لا تثريب عليه ولا على أهله فقد رضيت بهذا ونالت جزاءها ورضي هو وسينال جزاءه قريبا وربما مؤلما أكثر مما يتوقع أو يتمني !

أتسمع زغاريد ؟!

لا .. بل يُخيل إليها كما خيل للناس المفتونين أن حبال وعصي سحرة موسي تسعي من السحر!

حية تسعي في صدرها .. فتمد يدها لتخنقها !

تعثر حلمها وصعب عليها العودة إلي الدراسة الثانوية .. وقف الروتين كحائط صلد قاسي أمامها وتعلقت بدابرها الأيام معيقة إياها عن الحركة !

أي حياة هذه يحياها المرء ، وأي سعادة مفترض أن يتظاهر بها .. تبقي طوال عمرك مطية ، دمية ، يحركونها كيفما شاءوا ويمتطونها متى شاءوا، ولابد من أن تتظاهر بالبهجة والسرور وإلا اتهموك بالجنون .. وربما التمرد والجحود والكفر بالنعمة ؟!

نظرت " نعمة " إلي بناتها ، اللائي جلسن حولها ، صامتات هادئات لأول مرة في حياتهن ، وكأنهن يشعرن بالآلام التي تعصف بأمهن .. خشين تكديرها وجئن ليقلن لها بألسنتهن الناطقة وبألسن من لم تنطق منهن بعد :

" إحنا جنبك أهوه يا ماما ! "

الابنة التي تأتي لتكون ليس جزءا من أمها بل تعويضا لها وإكمالا لوجودها .. ليس الولد هو الذي يمنح الأم كمالا بل البنت .. فالبنت ليست جزءا من أمها مثل أخيها .. إنها أمها نفسها !

صورة مصغرة منها ، بوجه جديد وملامح مختلفة ، وربما عقل كامل مناقض ، لكنها لا زالت هي .. لا زالت نسخة مصغرة من الأم ، مثلما تكون صورة الوثيقة هي الوثيقة نفسها لكنها مطبوعة على ورقة جديدة وبحبر جديد .. لذلك تخرج البنت من بطن أمها أما صغيرة .. يمكنها أن تكون أما لدمية ميتة ، أو لأخيها الأصغر منها ، يمكنها أن تحنو على من هو أكبر منها ، لأنها ولدت أما .. ليس مجرد استعداد طبيعي فقط بل لأنها تشربت الأمومة وهي داخل رحم أمها .. إنها ابنة الرحم وصاحبته ومالكته .. إنها الرحم نفسه والرحمة وهبة الرحمن وميزان الرحمة في الأرض !

كانت " نعمة " أما وكانت بحاجة إلي أم .. أمها موجودة لكنها لن تفهمها أبدا .. لكنها ، وإذ تنظر حولها حائرة ، وجدت أن هناك أربع أمهات صغيرات خرجن من بطنها هي .. كانت بحاجة لواحدة فوجدت بدلا من الواحدة أربعة

.. أربع أمهات يفهمنها ويشعرن بها .. يلتففن حولها ويشاركنها حزنها الصامت .. ضمتهن إليها .. ضمتهن تمنحهن الأمان وتطلب منهن أن يمنحنها الأمان !

ثملت بالأمومة المتدفقة فوقها من بناتها وشعرت بالطمأنينة .. نامت أخيرا قريرة العين وقد أدركت إن لديها ، مهما حدث ومهما كانت حجم خسائرها ، لديها ما تقاتل من أجله وعندها ما يستحق العيش لأجله !

ستعيش إذن .. ستعيش مع " عبد الرحيم " أو بدونه .. ستعيش إذا نجحت في العودة إلي التعليم وإذا فشلت .. ستعيش في كل الأحوال !

تحرك الجنين في رحمها في تلك اللحظة وركلها .. ركلها بقسوة وعنجهية .. إنه يركل مطالبا بحقه في الاعتراف به .. شعرت بضربته في جدار بطنها فأحست ، يقينا ، إنه ليس أما خامسة لها .. إنه ولد آت أخيرا بعد أن ملت انتظاره ولم يعد لمجيئه ، أوعدم مجيئه ، أي معني أو طعم !

*****

مرت شهور ووجدت الأم الشابة نفسها على أعتاب أمومة جديدة .. كانت زوجة " عبد الرحيم " الجديدة تقبع في زنزانتها الانفرادية بالطابق العلوي لا تحادث أحدا ولا يحادثها أحد .. دخلت البيت وهي تتأبط ذراع " عبد الرحيم " وتنتظر أن تفرض سطوتها عليه .. فعلت ذلك في الأيام الأولي ونجحت في جعله لا يكاد يفارق جحرهما ليلا ولا نهارا .. مضت أيام عسل رشف فيها الزوج من العسل الملوث بالسم .. فقد أدرك أن زوجته الجديدة ليست سهلة أبدا !

أخت الحاج " بدوي " لا تكاد تفرق عن أخيها " بدوي " في شيء .. لا ينقصها سوي شارب وكرش ممتد أمامها ، وجوزة مدلاة من فمها لتصير معلما وتكرع المعسل مثل الرجال .. كانت حسنة الوجه في الحقيقة رقيقة

الملامح ، بيضاء ، بأنف صغير وفم معتدل ، تسر الناظرين .. لكنها على المستوي الحسي كانت جامدة بلهاء .. لا تحس ولا تشعر ولا تتألم ، ولا تحب ولا تكره .. كانت موءودة أخري جاءت لتكمل بيت الموؤودات وتجبر نقصهن ، أو لتنقص جبرهن في الحقيقة .. أخذوا منها عيالها وانتزعوهم من حضنها انتزاعا ، ولأنها أرملة ، ولأنه لا رجل لها يحميها أو يسد عنها ، ولأنها بلا علم ولا عمل ولا دخل ولا راتب فقد قيل لها بمنتهي القسوة :

" العيال لأهل أبيهم .. ولينكسر قلبك ولتذهب أمومتك إلي الجحيم ! "

أنكسر قلبها فعلا ، لكنها أرادت أن تسوق الجميع إلي الجحيم الذي رموها فيه .. وفي بيت أخيها بقيت كلبوءة مجروحة تتحين الفرصة للانتفاض والانتقام لنفسها .. لكنها عجزت عن أن تفعل ذلك في مواجهة أخيها ، الذي يرعب السوق كله بسطوته وجبروته وبرأسه الغليظة وأتباعه وعصاه ، وكفيه اللذين يشبهان كفى الدب .. لذلك فما إن خرجت من تحت جناحه ودخلت تحت جناح رجل ، محسوب عليها رجل ومحسوب عليها زوج وحامي حمي ، حتى بدأت تسفر عن جرحها العميق وتغرف صديدا وترمي في وجوه الجميع .. وبمنتهي البساطة طلبت من " عبد الرحيم " ، عقب دخلتهما بأيام قليلة ، أن يطلق " نعمة " !

أشارت إلي بطنها إشارة موحية وقالت له مستهجنة :

" وتخليها ليه يا أخويا على ذمتك .. لازماك في أيه تاني .. الواد أنا اللي هيبجيهولك إن شاء الله عن قريب .. والبنات أهم يفضلوا معانا هنا ! "

كانت في الحقيقة تخطط لانتزاع البنات من أمهن .. إنها لا تريد البنات بل تريد أن تفعل بضرتها كما فُعل بها من قبل !

أغمقت ملامح العريس السعيد وقال لها محاولا عدم إغضابها :

" يا بت الناس دي مرتي ومستغناش عنها .. والكلام ده قولناه قبل كده وشهد عليه الناس وشهد عليه أخوكي الحاج بدوي .. " نعمة " وبناتها ملزومين مني طول ما أنا حي ! "

لوت شفتيها مزدرية :

" يا سلام .. شوف شوف الحنية .. ولما هي غالية عليك قوي كده جبتني عليها ليه يا ولد الحلال ؟! "

كانت تعرف بالضبط لما جاء بها على نعمة "، لكنها كانت (تستعبط) بمنتهي البساطة .. فقد سرها أن تعتقد أن تزوجها إعجابا بها ومحبة لها ، وليس لتكون (معونا) آخر بعد أن فشل المعون الأول في أداء مهمته .. أراد أن يخرسها تماما ويلقمها حجرا تسكت بعده ولا تتفوه بكلمة أخري فقال لها :

" أديكي قولتيها .. يعني أنت اللي جيتي عليها مش هي اللي جات عليكي .. لزومها بقي أيه غيرة النسوان دي يا بت الناس ! "

أغضبت تلك التهمة العروس الجديدة النكدية ، فردت بقسوة وقد لمعت نظرة مخيفة في عينيها جعلت " عبد الرحيم " يشعر بالرعب :

" غيرة أيه دي يا عمر ؟! اسم الله .. هلا هلاله هغير منها ليه بقي ؟! أحسن مني هي .. ولا تكونش أحسن مني ؟! "

شعر الزوج برغبة حارة في كتم أنفاسها لكنه تذكر الولد (الفقري) الذي أتعبه خلفه حتى من قبل أن يأتي فقال محاولا تهدئة عروسه :

" لا برضه يا ست البنات ؟! هو أنت فيه زيك .. جمال وأصل ومال ونسب عالي .. تروح فيكي أيه هي ؟! "

أي والله !

كان " عبد الرحيم " قد أدرك أخيرا أنه صارزوج اثنين .. ولكي يستطيع أن يكمل حياته ، دون أن يصيبه الفالج أو يموت بأزمة قلبية مفاجئة ، فإنه وجب عليه تعلم شيئين مهمين جدا بالنسبة له : النفاق والتلون من ناحية والبرود التام من ناحية أخري !

سكتت " ثريا " على مضض .. لم تنس الموضوع أو تتناساه أو تلغيه من ذاكرتها لكنها فقط كانت تتحضر لجولة أخري .. بعد أسبوعين من الزواج السعيد عادت الزوجة الأولي وبناتها إلي البيت !

*****

كانت " نعمة " في شهرها الرابع من الحمل وكان حجم بطنها صغيرا جدا لدرجة يصعب معها تصديق كونها حاملا من الأساس .. إنها شاكرة لتلك المنة فهي لا تريد أن تتذكر ذلك أصلا !

كان وجود الزوجة الجديدة هواء بالنسبة لها فقد قررت ، درأ للمشاكل التي لا تريدها ولا تشتهيها ، أن تعتبرها كأن لم تكن .. ليس تجاهلا فحسب بل تعاملت وكأنها لا تراها فعلا .. وكأن على عينيها نظارة سميكة تسمح لها برؤية كل الكائنات والأشياء التي خلقها الله ، بما فيها هوائم الأرض ودوابها .. ما عدا تلك المخلوقة المسماة " ثريا " !

من ناحيتها كان هذا التجاهل نارا تكوي الزوجة الجديدة .. إنها تشتهي مشاكل وخلافات وخصامات ومعارك مشتعلة في البيت ليلا ونهارا .. والقديمة اللعينة تحرمها من تلك المتعة وتفوت عليها تحقيق تلك الرغبة .. في أول أيام عودتها إلي المنزل افتعلت " ثريا " مشكلة من لا شيء .. اختلقت معركة من الهواء ، كانت في الشقة السفلية تجلس بجوار حماتها تتبادلان حديثا هامسا متآمرا ، عندما خرجت " نعمة " من غرفتها حاملة الصغيرة " حسناء " التي

بقيت طوال اليوم ، على غير عادتها هادئة ساكنة كعصفور مريض محبوس في قفص .. ورغم ذلك فبمجرد أن وقعت عينا البنت على ضرة أمها حتى انفتحت في البكاء فورا .. كان صوت البنت بطبيعتها عاليا مرتفعا فلوت الجدة شفتيها وقالت :

" سبحان الله الحس عالي والجسد بالي ! "

كانت الجدة تستهزئ بالطفلة كنوع من الاستهزاء الضمني بأمها .. التي ربطت رأسها بمنديل أسود وصل حتى غطي الحاجبين ، فبدت كالحزانى المقيمات على عزاء .. التقطت " ثريا " ، التي لا دخل ولا ناقة لها ولا جمل في الأمر كما يفترض ، طرف الكلام وقالت وهي ترمق ضرتها بنظرة واضحة المعني:

" يا أختي .. بنات فقرية .. يقوقوا ٦٥ في البيوت زي البوم .. كتر خير ربنا اللي بيطعم البنات دي والحريم اللي بيولدوها ! "

كانت العبارات مختارة بعناية بحيث تثير حفيظة " نعمة " ، وتدفعها إلي الاشتباك في خناقة ضارية كانت " ثريا " واثقة أنها هي التي ستخرج منتصرة منها .. لكن الزوجة الأولي فوتت على كليهما ، ضرتها وحماتها ، الفرصة .. بمنتهي البساطة تظاهرت بأنها لم تسمع شيئا ، وأخذت ابنتها إلي الحمام لتشطفها .. ثم عادت بها فورا إلي غرفتها وأغلقت الباب .. دون أن تلقي ولو نظرة عابرة على المرأتين اللتين كادتا تنفلقان لنصفين من شدة الغيظ في تلك اللحظة !

باءت محاولة جر الشكل الأولي بالفشل .. كانت الزوجة الثانية تمني نفسها بمزيد من الجولات والفرص السانحة .. لكن إصرار " نعمة " على تجاهلها صعب الأمر عليها وجعلها تُبقي رغبتها المحرقة دفينة حبيسة صدرها .. حتى كادت هي في النهاية التي تصاب بالفالج الذي أرادت أن تصيب به ضرتها وعدوتها !

تكررت المحاولات من الضرة الجديدة .. كانت في البداية ترغب في إحداث مشاكل كنوع من الرغبة الطبيعية عندها في الإمساك بخناق المرأة الأخرى التي تقاسمها زوجها .. المرأة الأخرى التي بني بها " عبد الرحيم " قبل أن يبني ب" ثريا " نفسها .. وشاركته كل شيء وحملت منه أربع أجزاء من لحمه ودمه في رحمها .. المرأة التي عاش معها لحظات سعادة ولحظات شقاء ، وتقاسما اللقمة والفراش والضحكة والحزن .. ورغم أن " ثريا " كانت هي الدخيلة المستعمرة التي هبطت بباراشوت على رأس (أم البنات) ، إلا أنها كانت أكثرعدائية ورغبة في الخلاف والخصام ممن نزلت فوق رأسها ، وممن قبلت أن تشاركها في زوجها وحبيبها وأبو بناتها .. لم يكن شعور الزوجة الجديدة مبررا خاصة وهي تري حجم الجفاء الذي ترسب وتكوم كتلا من الحجارة بين زوجها وبين إمراته الأولي !

لم يتبادل " عبد الرحيم " و" نعمة " جملة كاملة معا بعد عودتها إلي البيت عقب زواجه .. كان يحتكان ببعضهما بالطبع بحكم وجودهما ، ووجود البنات ، تحت سقف واحد بينهما .. لكنه كان احتكاكا كاحتكاك قطعتين معدنيتين أُسرف في تشحيمهما بالزيت ولم يعد هناك إمكانية لأن يحتك السطحين ببعضهما احتكاكا ملموسا حقيقيا .. إنهما يمران من جوار بعضهما فقط !

يمر من جانبها وتمر من جانبه .. يعبركل منهما من فوق رأس الآخر، لكن ثمة ساتر من قماش رقيق يفصلهما عن بعضهما ، فيري كل منهما الآخر ولا يراه في نفس الوقت .. أصبحت " نعمة " بالنسبة له المرأة التي خسرها ، وأصبح لها الرجل الذي تزوجت واحدا شبيها به منذ سنوات .. ليس هو على وجه اليقين بل آخر يشبهه إلي حد بعيد .. مجرد شبه كما يتشابه تواءمان لكن هل هذا يجعل منهما شخصا واحدا !

أحيانا كان يداهمها شعور غريب لا تعرف كيف تصفه .. تتساءل ، بينها وبين نفسها ، هل هذا الرجل الذي يجلس بالخارج بجوار أمه هو نفسه الذي تزوجته وأزاح الطرحة عن وجهها في ليلة جلوتهما منذ سنوات !

هل هو نفسه الذي أنجبت منه أربع بنات .. هل كان هو نفسه ؟!

آخر يشبهه إلي حد بعيد ربما .. لكن هو نفسه مستحيل !

تباعدا حتى صارا كأنهما غريبان .. لكن حتى تلك الغربة النفسية لم تعفها من الألم !

كان هناك ألم غريب يداهمها كلما رأته .. نعم أقسمت على تجاهله ، ونعم أصرت على أن تتصرف وكأنها لا تراه ، وكأنه لا وجود له مطلقا .. لكن الألم الذي كانت تشعر كلما وقعت عيناها عليه كان مختلفا تماما عن أي شيء أحست به من قبل في حياتها .. كانت تحس أمام وجهه برغبة حارة في البكاء !

لم تكن تعرف لماذا .. لكن حزنا ووجعا غريبا كان يداهمها ويمسك بتلابيبها .. إحساس شبيه بما يحسه أي إنسان في حضور صديق عزيز ، كان عزيزا جدا يوما ما ، لكنه لفظه وتخلي عنه في أحلك لحظة في حياته .. يمكن جدا لهذا الإنسان أن يتجاهل وجود هذا الصديق ويعامله كأنه لم يكن بالنسبة له .. لكن ثمة ألم يحز قلبه دائما في حضوره ، ألم يرافقه سؤال دائم يتمني أن يطرحه على معذبه لا ليعرف إجابته ، بل لكي يلقيه عليه ويستريح :

" لماذا فعلت ذلك ؟! لماذا تخليت عني بينما كنت في حاجة إليك ؟! "

سؤال لا يحتاج إلي جواب .. وإنما يحتاج لكي يُلقي فقط كدمعة حبيسة في العين والصدر لا يشفيان إلا بطرحها وتركها تسيل !

لكنها لن تبكي أمامه ولن تسأله عن شيء .. ومع ذلك فما أكثر ما بكت على وسادتها وحدها !

كانت البنات الأربع ينمن برفقتها الآن في نفس غرفة زواجها القديمة ، وعلى نفس الفراش .. كانت تضعهن بجوارها وتدثرهن بالأغطية وتتدثر بهن وتضع رأسها على الوسادة .. حين ذاك فقط كانت تتذكرزوجها وتبكيه !

الحقيقة أنها كانت تبكي نفسها أكثر مما كانت تبكيه هو .. لكن وجوده على بعد أقدام فوقها لم يكن يقلل من حزنها بل كان يزيده حدة وضراوة !

ليته مات .. ليتها دفنته وتلقت فيه العزاء كان الأمر سيكون أهون عليها عندئذ فقضاء الله لا يُشتكي منه .. قضاء الله أرحم وأكثر عدلا بينما قضاء الناس لا رحمة ولا عدل فيه !

مضت أيامها الآن بحلوها ومرها .. ارتدعت " ثريا " بعد أن ملت محاولاتها المضنية وتعبت منها .. انثنت وتركت " نعمة " في حالها ، وبدأت تهتم بالموضوع الأهم .. الحمل والولد !

مرت شهور على دخولها إلي البيت ، ولم تحل ثمرة في رحمها بعد .. كان " عبد الرحيم " ذاهلا ضائعا ملتاعا حتى أنه كاد ينسي الشيء الذي جعله يتزوج من ثانية أصلا ، ويخسر حبيبته وزوجته .. أما الحماة فقد كانت تترقب كالصقر وتنتظر خبر حمل " ثريا " على أحر من الجمر .. وبالرغم من أن زوجة ابنها الأولي كانت حاملا بدورها لكن أم " عبد الرحيم " كانت لديها عقيدة تؤمن بها ، ولا شيء في العالم يقدر على زحزحتها عن الاعتقاد بها .. ف " نعمة " لا تحمل ولا تضع سوي البنات !

أنتهي الأمر بالنسبة لها ، لكن من قال أنها تملك مفاتيح الكون ومن قال أنها مطلعة على علم الله وغيبه .. ومن قال أن " نعمة " تبالي أصلا بنوع الجنين الذي تحمله في أحشائها ؟!

لقد رفضت طلبات أمها المتكررة بالذهاب إلي الطبيب لمتابعة الحمل والكشف بالسونار لمعرفة نوع الجنين .. كانت الأم ، والدة " نعمة " ، تأمل في أن تكون ابنتها حاملا بولد هذه المرة .. كان لدي المرأة العجوز حلم أو أمل أو وهم في أن إتيان ابنتها بالولد قد يحسم الأمر لصالحها ، ويجعل " عبد الرحيم " يعود لها صاغرا .. وربما ، بإذن الله ، ينهي زواجه الثاني ويطلق تلك المرأة الدخيلة لتعود ابنتها لتتربع على قلبه وفي بيته مرة أخري .. كانت هذه كل أحلام الأم وطموحاتها لكنها لم تدرك أن " نعمة " لا تريد ولا تحلم بشيء من هذا !

إنها لا تريد أن تعرف نوع الجنين الذي تحمله ، ولا تشعر بأي شغف لذلك لأنها أصلا لا تريده .. ولدا كان أم بنتا .. لا تريده ولا تريد " عبد الرحيم " نفسه .. فلم يعد هناك رجل يدعي " عبد الرحيم " لتريده !

لقد مات زوجها ليلة أن تزوج بامرأة غيرها ، وطعنها في قلبها .. مات ودفن وأهيل عليه التراب وما بقي الآن ليس إلا رجلا غريبا يشبهه .. يحمل نفس اسمه ونفس ملامحه ويأتي نفس حركاته وسكناته لكنه ليس هو .. ليس هو ولن يكون !

إذن كيف تحلم بأن تسترد رجلا غير زوجها الذي أنتهي فعليا بالنسبة لها .. إنها تعتبر هذا خيانة لنفسها وللصورة القديمة التي لا زالت تحتفظ بها!

لذلك رفضت كل محاولات تقربه لها .. رفضت أن يقربها أو يكون معها أو أن يجمعهما مكان واحد بمفردهما .. فهو لم يعد زوجها .. إنه رجل غريب لا تسمح لنفسها بمجرد التفكير في أن تمنحه حق تجاوز حدوده معها !

لذلك ما إن حن إليها ذات ليلة وآتي إلي غرفتها ، حتى كانت تطرده بعد دقائق قليلة .. لم تفعل ذلك بعقلها الواعي بل فعلته بلحمها ودمها .. فعلته

بالضبط مثلما كانت ستفعله لو أن رجلا غريبا تسلل إلي غرفتها عارضا عليها نفسه !

كان الزوج يمر بأسوأ لحظات حياته في تلك الأشهر الثقيلة الصعبة .. داهمه الندم وألقاه أرضا ، ثم دهسه بقدم غليظة ليسحقه بلا رحمة .. لم يجد في " ثريا " ، الزوجة الجديدة ، مودة ولا سكنا ولا رحمة .. بل وجد قطة شرسة تخمشه بأظافرها مذكرة إياه كل لحظة بحقوقها .. حقوقها حقوقها ولا كلمة عن حقوقه هو ولا حقوق زوجته الأولي وبناته الصغيرات !

أرادت أن تهيمن على البيت وفشلت ..

أرادت أن تهيمن على " نعمة " وبناتها وتذلها وتذلهن وفشلت !

أرادت أن تعطيه الولد .. وفشلت في ذلك أيضا !

الغريب أنها كانت سريعة الحمل جدا في زيجتها السابقة التي انتهت بالترمل .. جاءت بالولدين في ثلاث سنوات فما الذي حدث لها هذه المرة ؟!

فكرت الزوجة الجديدة وأتعبت نفسها ، ودارت على الأطباء .. وقيل للزوج أدفع لتحصل على الولد .. أدفع لتحصل على السند .. فدفع ودفع ودفع ، بينما كان بطن " نعمة " يكبر ويكبر .. وأيامها تتقارب والدوامة تبتلعه في خضمها أكثر وأكثر كل يوم !

جزية الأطباء والعلاج ومرض القلب ووجعه ، وألم الفقد والهجران والموت بالحياة .. أهذا جو يعيش فيه أي إنسان عادي دون أن يٌصاب بالجنون أو يلحق به الموت ؟!

(٩)

عندما كان شهر إبريل يزحف مبتعدا تاركا (مايو) يفرش عباءته الحارة الجافة على الأرض التي تضم فتاة صغيرة تدعي " مروة " بين جنباتها بدأت الرياح المحملة بالتراب والزوابع تضرب في كل مكان حولها .. كان هذا آخر شهر قبل الامتحان .. امتحانات المرحلة الأولي من الثانوية العامة المخيفة .. آخر شهر وآخر فرصة وآخر مهلة لتجمع أشتات نفسها وتعيد رص الطوب وتسوية الجدران في بيت عقلها الخرب المتهاوي !

كانت " مروة " قد قضت شهرين في الجحيم منذ أن أفاقت على صفعة (مارس) الباردة فوق وجهها .. صفعها الشهر الثالث على صفحة وجهها مذكرا إياها بأنها شارفت على دخول عرين الأسد بقدميها .. رحل الثالث ليأتي الرابع ويناولها بالصفعة الثانية .. ثم أتي (مايو) طروبا راقصا لينهال فوق رأسها بعصاه الغليظة !

أدركت الآن أي ورطة علقت فيها وأية أيام سوداء تنتظرها .. باءت كل محاولاتها لجمع شتات نفسها وروحها بالخسران المبين والجهد الضائع المسبب للإعياء !

أصيب الطلاب والمدرسون بما يشبه الحمى حين داهمتهم هبة (مايو) التي بدت للجميع وكأنها مفاجأة ، وكأنهم لم يكونوا يعرفون أن ثمة شهر يحمل اسم (مايو) ينذرهم باقترابهم رافعا خمسة ، درأ للحسد في وجوههم .. إن قدوم (مايو) لا يعني سوي شيئا واحدا .. أن الامتحانات صارت على الأبواب !

أخذت مجموعات الدروس الخصوصية تتزايد عليها الضغوط .. وكثف المدرسون حصص المراجعة وسارعوا بإنهاء الأجزاء التي لم تنتهي بعد من

المنهج ، وبدأ الطلاب يكونون مجموعات مغلقة للاستذكار والمراجعة .. وأخذت البنات ينتظمن في ثنائيات أو ثلاثيات ويعكفن على الاستذكار بجد واجتهاد ورغبة مرهقة جنونية في التحصيل والحصول على أعلى الدرجات .. وفي بدايات شهر (مايو) أيضا بدأت " مروة " تعاني من أعراض غريبة !

كانت قد ألتزمت تماما بالوعد الذي بذلته ل" ماريان " المخلصة ، التي لم تألوا جهدا في متابعة البنت وموالاتها بالنصح والإرشاد ، وطمأنتها لوقوفها بجوارها .. فأخذت تتصل بها مرتين يوميا بشكل منتظم ، صباحا ومساء ، بعد أن أنقطع الطلاب عن الذهاب إلي المدرسة وخلت الفصول الدراسية من الطلبة والمدرسون جميعا .. كان مكالمات " ماريان " الهاتفية ولطفها الزائد تتنزل كلها بردا وسلاما على قلب " مروة " .. لكن تلك الدقائق القليلة التي تقضيها البنت في رحاب من تفهمها وتقدر ما تمر به كانت تنتهي فور أن تضع السماعة تلتفت لتجد أمها أو أبيها واقفين بقربها بابتسامة واسعة وبنظرة صريحة في العيون تقول :

" يلا بقي يا ست الدكتورة .. خلينا نفرح ! "

حين ذاك كانت أعراض المغص تداهم البنت على الفور .. لم يكن مغصا عاديا بل كانت تقلصات موجعة تهاجم معدتها ، وعانت أول نوباتها في ثاني ليلة من شهر مايو ذو السحنة الجافة .. كانت تذاكر دروسها حتى منتصف الليل .. بدأت باللغة العربية ووجدت نفسها في حالة مزاجية طيبة ، إلا أنها وبمجرد أن وجدت نفسها وجها لوجه أمام الرياضيات المعقدة الثقيلة حتى شعرت بحرقان وألم في فم معدتها .. لم تكن قد عانت شيئا مماثلا من قبل فلم تفهم ماذا يكون بالضبط .. نامت أخيرا تلبية لرجاء أمها لكنها ، بعد ساعة واحدة ، كانت تهب من مرقدها صارخة مولولة !

جزت على أسنانها ووجدت نفسها غارقة في العرق الذي نبت على جبهتها وسال على خديها .. خبرت " مروة " المغص وانتفاض الأحشاء من قبل ، لكن ليس بهذه الطريقة القمعية المفاجئة .. نهضت بصعوبة من فراشها ونزلت على السلم وهي تئن .. ذهبت إلي المطبخ وأشعلت البوتاجاز ووضعت (كنكة) متوسطة الحجم ملأتها حتى ثلثها بالماء .. انتظرت لحظة ثم ألقت في الماء بقبضة صغيرة من الحلبة الحصا والنعناع المجفف .. كانت تعتقد أنه مغص مرافق لعذرها النسائي الشهري ، وتعتقد أن مغلي الحلبة والنعناع كفيل بالقضاء عليه وتسكين آلام أحشائها القوية .. داخت واستندت إلي الحائط ، وفشلت في الاستمرار في الوقوف على قدميها ، اللتين بدأتا في الارتعاش بسبب قوة الألم والبرودة التي تسري في أعطافها .. فألقت بنفسها على كرسي خشبي صغير تستخدمه أمها عند تنظيف الطيور ونزع الريش عنها ، أو غسيل المواعين وهي جالسة أحيانا .. أغمضت عينيها مستسلمة لنوبة الألم الجارفة وشعرت بشبه غيبوبة لم تفق منها إلا على صوت فوران سائل وانطفاء شعلة البوتاجاز بعد أن فارت الحلبة وطفت خارج الكنكة وأطفأت النار المشتعلة تحتها .. قامت " مروة " مرة أخري بصعوبة وبدأت تصب السائل الأصفر الرائق في كوب يحوي ملعقة سكر ، مستخدمة مصفاة لحجر بذور الحلبة وثفل النعناع عن السقوط في الكوب .. حملت كوبها الساخن ، بعد أن أطفأت النار بعناية ، وخرجت إلي الصالة الواسعة المظلمة .. ألقت بنفسها على كنبة بلدي مغطاة بفرش من القماش الكتاني السميك ووضعت الكوب على منضدة قصيرة بجوارها ثم ذهبت في شبه غيبوبة .. مضت تحلم وتعرق وتتألم برهة .. ثم أفاقت لتحاول شرب الحلبة التي تعلق عليها أملا في التخلص من مغصها وآلامها .. ورغم أن نفسها كانت صادفة تماما وكانت تشعر بصخرة صغيرة تتحرك سائبة في بلعومها ورغبة قوية في القيء لكنها

تحاملت على نفسها وشربت الحلبة الساخنة بالنعناع .. أنهت الكوب ووضعته جانبا فقط لتبدأ في التقيؤ على الفور !

تحركت الصخرة وسدت حلقها للحظة ثم شعرت بشيء كتيار بارد يندفع منتزعا حشوة كانت معلقة في معدتها وأندفع القيء من فمها قبل أن تتدارك الأمر وتسرع إلي الحمام ،تاركة خلفها بقعا وخطوطا من اللونين الأخضر والبني تلطخان أرضية الصالة وأماكن متناثرة من السجادة السمكية المفروشة هناك .. أكملت " مروة " إفراغ معدتها وشعرت بدوار قوي جدا وأحست بأنها ستسقط من فرط الوهن والضعف والدوخة .. تحاملت على نفسها وخرجت إلي الصالة !

كان القيء ، فيما يبدو ، مفيدا لها وقد بدأت تحس بأنها أحسن حالا قليلا .. خفت درجة الألم وبدأت معدتها تتوقف عن التقلص والانتفاض .. ألقت بنفسها مرة أخري على الكنبة في نفس اللحظة التي كانت أمها تقترب منها !

استيقظت الأم شاعرة بأن شيئا ألم بابنتها وقد صدقها قلبها .. فزعت لمنظر القيء على السجادة والأرضية ، وأفزعها أكثر منظر ابنتها بعينيها الغائمتين وشعرها المبتل المنكوش ووجها المصفر وصدرها الذي يعلو ويهبط .. نظرت إلي يدي ابنتها اللتين تعتصران معدتها وأسفل بطنها وهتفت وهي تخبط على صدرها متفجعة :

" مالك يا أمي كفا الله الشر ؟! "

بصعوبة خرج الصوت من " مروة " قائلة وهي لا تستطيع التحكم في أنفاسها المتلاحقة :

" بطني يا ماما .. بطني بتوجعني قوي ومعدتي هتموتني ! "

قالت الأم فورا وكأنها تملك العصا السحرية التي ستزيل آلام ابنتها بمجرد لمسها :

" اسم الله يا عين أمك ! هروح أغليلك شوية حلبة ونعناع وهتبقي زي الفل إن شاء الله ! "

استوقفتها " مروة " بيدها بصعوبة وقالت محاولة أن تخرج كلماتها واضحة ومفهومة :

" عملت دلوقتي .. عملت وشربت وبقيت أحسن ! "

لكنها لم تكد تنهي جملتها حتى أندفع القيء من فمها كإعصار جارف مرة أخري !

جرت إلي الحمام وجرت خلفها أمها التي أخذت تردد بخوف :

" كفا الله الشر.. كفا الله الشر يا أمي ! "

تقيأت " مروة " مرة أخري بعنف أكثر من المرة الأولي .. وساهم خلو معدتها تقريبا هذه المرة في جعل القيء أعنف وأكثر ألما ، وأحست بأن جذور روحها الطويلة ، لو كان هناك جذور للروح ، تُنتزع بوحشية من داخل أمعائها .. وكأن سيخ محمي يدخل جوفها ويخرج بعد أن يكوي أمعائها من أولها وحتى آخرها .. قضت الأم والابنة بقية ساعات الليل في كرب مقيم !

أخذت الفتاة تتقيأ مرارا وتكرارا .. والأم استدعت كل خبرتها الشعبية ووسائلها المحفوظة في محاولة التغلب على ما أصاب ابنتها .. فأعطتها حبوبا للمغص .. لم تجدي نفعا لأنها لفظتها من جوفها بعد ابتلاعها بدقيقة واحدة .. ثم صنعت لها نعناعا منفردا مخففا .. وأعطتها ملعقة من دواء تقلصات تستخدمه الأم على فترات متباعدة .. كل تلك الأشياء لم يصمد منها واحد في معدة الفتاة التي كادت تنفلق وتتمزق وتخرج من فمها !

أخيرا قرب الفجر بدأت البنت تهدأ قليلا بعد أن امتلأت الصالة حولها بالبقع الخضراء البنية ، وكادت تفقد الوعي من الدوار والدوخة الناجمان عن الألم وعن شدة الغثيان وعنف القيء .. مضت نصف ساعة هادئة ثم صحا الأب على صراخ ابنته !

كانت " مروة " تدفن رأسها في الوسادة تعضها بقوة وتمسك بطنها وتصرخ .. سمعها الأب فأستيقظ مفزوعا معتقدا أن هناك مصيبة تحدث في البيت .. صراخ ابنته روعه ، فهرع محاولا الاطمئنان عليها ولما رأي الحال بعينيه أتصل بطبيب باطني يعرفه جيدا في المركز المجاور فلم يرد عليه إذ كان الرجل نائما والدنيا ظلام لا زال لم يتبدد بعد :

" نوديها المستشفي ! "

قالت الأم وهي تضرب على صدرها فنهرها الأب بقوة قائلا :

" مستشفي أيه وزفت أيه .. هما دول بيسعفوا حد ولا بيرحموا حد .. أنا هروح أشوفلها حاجة في الصيدلية ! "

ولكن أي صيدلية مفتوحة في مثل تلك الساعة ؟!

أستقل الأب سيارته ، ولحسن الحظ أن لديه سيارة ، وهرع إلي أقرب مكان يمكن أن يعثر فيه على صيدلية مفتوحة في مثل هذا الوقت .. لف عدة شوارع كانت أغلبها صامتة ساكنة ، حتى عثر أخيرا على ثعبان منير يعلو صيدلية يبدو أنها تقدم خدماتها أربعا وعشرين ساعة على مدار اليوم .. أوقف السيارة بالقرب ودخل مسرعا حيث وجد في استقباله صيدلانيا شابا نحيلا تبدو عليه سيماء الجد والذكاء .. متسرعا ملهوفا طرح عليه الأعراض التي تعانيها ابنته ووصف له حالتها بدقة فقال الصيدلاني بفطنة :

" دي عندها تقلصات في معدتها وغالبا عندها ارتفاع في نسبة الحموضة كمان .. هدي لحضرتك حاجة تهدي الألم وتنيمها بس يا ريت تحاولوا تكشفوا لها عند طبيب باطني في أسرع وقت ! "

أخذ الأب الحبوب الصغيرة التي منحها له الصيدلاني وهرع خارجا ناسيا حتى أن يدفع ثمن الدواء من فرط اللخمة التي يعانيها .. ناداه الصيدلاني بلطف ورقة فعاد إليه بسرعة ونقده ثمن الدواء :

" متأخذنيش يا ولدي دماغي مقلوبة والله من ساعة ما شوفت البت بتتلوي وتصرخ ! "

ابتسم له الشاب متفهما وقال بكرم :

" لا ولا يهمك يا حاج .. ربنا يشفيها ويعافيها ! "

" اللهم آمين ! "

ردد الأب وهو يسرع نحو سيارته حاملا الدواء لابنته متصببا عرقا بسبب شدة جزعه وخوفه عليها !

*****

في الصباح كانت " مروة " التي نامت ساعتين تحت تأثير الدواء الذي صرفه لها الصيدلاني ، تخرج مستندة على كتفي أمها وأخيها خلف الأب الذي يقودهم جميعا إلي السيارة .. كان قد حجز لها عند طبيب باطني ممتاز يرن اسمه كالطبل وأخذها عنده .. ظلت الفتاة تعاني الآلام المبرحة التي عادت أقوي مما كانت طوال الطريق ، وحتى وصلوا إلي العيادة الكائنة في عمارة حديثة البناء فاخرة الطراز.. وفي العيادة ، وفي غرفة الانتظار، تقيأت " مروة " مرتين وكادت تفقد الوعي .. قبل أن يرأف المرضي ، الذين يسبقونها في أولوية الحجز بحالها ، ويسمحوا لها بالدخول قبلهم في غير دورها .. كان

تشخيص الطبيب حاسما .. تقلصات وحموضة وسأل البنت عما إذا كانت تعاني قلقا مزمنا يؤثر عليها ؟!

فهمت الأم الأمر على الفور وأجابت عن ابنتها التي لا تكاد تحس بشيء مما يدور حولها :

" أصلها عندها ثانوية عامة يا دكتور وقلقانة عشان اسم الله أبوها عايزها تجيب مجموع وتخش الطب ! "

ابتسم الطبيب متفهما وقال للأم ناصحا :

" مش مهم يا حاجة تخش طب ولا متخشش .. المهم أنكم متضغطوش عليها زيادة عن اللزوم .. كل ميسر لما خلق له ومش كل الناس لازم تطلع دكاترة يعني ! "

لم تتفهم الأم هذا الكلام ولم تستوعبه .. وليتها فعلت !

*****

عادوا بها حيث عكفت الأم على إطعامها فولا نابتا ، لأن الطبيب طلب أن يعطوها أطعمة خفيفة ، فأكلت " مروة " لقمة واحدة وتركت البقية .. لم تكن لديها شهية للأكل مطلقا !

أخذت الدواء وأحضروا لها امرأة تجيد ضرب الحقن لتعطيها الحقن التي قررها لها الطبيب .. ثم تركوها لتنام !

نامت بضع ساعات تحت تأثير التعب والإرهاق ، ولم تفارقها خلالها الأحلام المزعجة والكوابيس .. لكنها صحت في حال أفضل !

وخلال الأيام التالية كانت تلتزم بما وصفه لها الطبيب من علاج وأدوية ونظام أكل .. وبدأت تعود للاستذكار!

لكن الغريب أنها لم تكن تفتح كتب الفيزياء أو الرياضيات أو الكيمياء حتى تداهمها آلام معدتها ، وإن كان بشكل أخف كثيرا ، فورا .. استمرت تتظاهر باستذكار تلك المواد رغم أن عقلها الكاره وآلام معدتها جعلا صدرها ضيقا حرجا أمام أية فرصة لتحصيل تلك المواد التي لا تحبها .. ولم تستطع أن تجبر نفسها على ذلك !

زارتها " ماريان " في الأسبوع نفسه ، حينما سمعت أن البنت قد مرضت وأخذوها إلي الطبيب .. أخذتها " مروة " إلي غرفتها حيث حكت لها حقيقة ما يحدث معها وشكت لها خوفها الشديد من أبيها والكوابيس التي لا تلبث تداهمها كلما وضعت رأسها على الوسادة !

قدمت لها أستاذتها روشتة علاج ونصحتها ببساطة أن تحاول تحصيل ما تقدر عليه من تلك المواد لتحقق درجة النجاح على الأقل ولا تهتم بما يريده أبوها أو ما تريده أمها .. نفس النصيحة القديمة لكن " مروة " تدرك الآن أن أباها لن يتسامح معها أبدا إن هي فشلت في تحقيق حلمه له !

تركتها " ماريان " وهي في حيرة من أمرها لا تدري كيف ، ولا بأي وسيلة تساعدها .. وبدأت الأيام تكر كرا جنونيا والمواعيد تطبق على حنجرة البنت إطباقا رهيبا .. تراقصت أشباح الامتحانات أمام عينيها ورقصت عفاريت مسربلة بأوراق امتحانات مشطوب عليها باللون الأحمر في مخيلتها ، كلما صحت أو نامت .. فبدأت تنجرف نحو دفاعات غريبة عن نفسها !

لم تكن " مروة " ممن اعتدن على قرض أظافرهن لكنها ضبطت نفسها متلبسة ، أكثر من مرة أثناء الاستذكار ، تقرض أظافرها بقوة حتى أدمت بعض أطراف أصابعها نتيجة تقشير ونزع الجزء السفلي من الظفر بدون وعي منها .. زاد الأمر معها جدا بعد أن شاءت الصدفة السيئة لها أن تسمع حوارا قصيرا مبتورا بين أبيها وأمها وعمتها ملأ قلبها رعبا !

كانت تمر بالقرب من غرفة الجلوس بأسفل حيث يجلس أبيها مع أمها وعمتها " محاسن " التي لديها ولد يدرس في كلية دراسات إنسانية بجامعة الأزهر.. كانت أم " مروة " هي المتحدثة :

" ومالوا يعني يا أخويا .. ما هي كلية برضه واسمه علام عالي ! "

كان ابن " محاسن " هو المشار إليه في تلك العبارة لكن رد والد " مروة " كان مخيفا بحق :

" يا عمي بلا علام عالي بلا بتاع .. بصي هو مفيش تعليم يشرف صح غير الطب والهندسة والصيدلة غير كده كله هتش٦٦ وكلام فاضي ! "

ويبدو أن العمة غضبت لاتهام ولدها الخفي بالخيبة والفشل في الالتحاق بإحدى كليات التعليم الذي يشرف فقالت بلهجة معسولة :

" ويعني اسم النبي حارسها بتك ضامنها تخش طب .. طيب دي حتى شكلها يعني ملهاش في الحاجات دي ومكانتش عايزة تدخل علمي أساسا يا حبة عيني ! "

صدقت العمة .. لكن الأب أجاب بقسوة :

" ومتخشش ليه إن شاء الله ؟! دي تخش غصبن عنها وعن اللي خلفوها .. طاب خليها هي بس كده تخيب ومتجبش المية في المية .. ده أنا بديها دروس بدفع فيها دم قلبي .. ده أنا كنت أحش رقبتها وأطلعها من المدارس خالص وأخليها تقعد في البيت تحلب الجاموسة .. قال متخشش قال ! "

كانت نبرة الأب ، رغم لطفه في محادثة أخته ، عنيفة للغاية .. فما بالنا لو أن هذا حدث فعلا ؟!

ماذا هو صانع لو جاءته ابنته بشهادة درجات لا تحقق حلمه ولا تلبي طموحه ؟!

شعرت " مروة " بغمزة ألم قوية تسري في معدتها .. وطفا الحجر الصغير عائما في بلعومها حتى كاد يسد مجاريها التنفسية .. شعرت بالألم والاختناق .. ثم تقلصت أمعائها وتوترت أحشائها فذهبت إلي الحمام تدافع إسهالا مفاجئا ورغبة حادة في القيء !

*****

بدأت الآن أصعب أيام في حياة الفتاة الصغيرة .. فالامتحانات لم تعد تدق الأبواب .. بل دفعت الأبواب ذاتها وفتحتها وصارت تطل برأسها منها .. لم يتبقي سوي عشرة أيام على بدء امتحانات الثانوية العامة !

بدأت حالة هستيرية تسيطر على البيت .. ورغم أن الأب قد أضطر للذهاب إلي القاهرة من أجل متابعة أعماله هناك إلا أنه كان ينق عبر الهاتف عدة مرات في اليوم .. يتابعها ويشعرها أنه يقف فوق رأسها كما البومة الناعقة .. لم يكن الأب قاسيا وبالطبع كان يريد مصلحة ابنته وسعادتها ، لكنه لم يدري في أي جحيم يلقيها بتصرفاته التي فاقت كل حد في الضغط والقسوة !

لم تكن " مروة " تشعر أنها كائن حي في تلك الأيام بل مجرد آلة بلا روح .. كانت تصحو مبكرا جدا لتستذكر دروسها ، تصلي الفجر وتقرأ أوراد الصباح وتدعو الله بحرقة أن ينجحها وينجيها .. وكأنها غريق بحاجة إلي يد تنتشله كانت تحس وتشعر .. الأم جندت البيت كله لصالح ابنتها طالبة الثانوية العامة ، وصار محرما على الأخوة الصغار اللعب في البيت ، أو تشغيل التليفزيون أو المشاجرة بأصوات مرتفعة أو حتى إحداث صوت مرتفع بأقدامهم وهم يدبون نازلين أو صاعدين على السلم .. هذه الإجراءات التي كان من المفترض أن تطمئن البنت وتدفعها إلي التركيز في الاستذكار والتحصيل

كانت ، بالعكس ، هي التي زادت من الطين بلة .. فقد جعلتها تشعر أنها في معسكر وليست في بيت !

معسكر أقيم خصيصا لكي تذاكر فيه وتحصل على المجموع الذي يؤهلها لكلية الطب .. وكانت أمها هي الحارس الأمين الطيب .. أما أبوها فلم يكن إلا السجان وآمر المعتقل !

وماذا سيعتبر أبوها فشلها في الحصول على المجموع المطلوب .. تمرد طبعا وجحود ونكران للجميل وسيعاملها مثلما يتعامل مأموري السجون مع المتمردين من المساجين الذين تحت إمرتهم !

عادت تقضم أظافرها بشراهة .. ثم بدأت ، بطريقة لا شعورية ، تؤذي نفسها .. ضبطت نفسها أكثر من مرة تخز لحم يديها بسن القلم بقسوة .. الأعجب هو ما حدث في أحدي حصص الفيزياء حيث لحظها المدرس ، بينما هو منهمك في الشرح وهي تتظاهر بالإنصات والمتابعة ، تمسك ما يشبه عود أسنان صغير وتنخس به شفتها السفلي الجافة نخسا متواصلا .. كانت خلة أسنان تحتفظ بها في حقيبتها وقد هشمتها بين يديها دون وعي ثم أخذت عودا رفيعا من حطامها وأخذت تؤذي به شفتها دون أن تدري أو تحس .. الغريبة أنها عندما تحسست شفتيها وجدت نقط دم صغيرة للغاية رغم أنها لم تكن تشعر بألم نهائيا !

*****

عكفت على اعتصار خلايا مخها الآن .. كانت تجلس لتذاكر بالساعات الطويلة .. ومع ذلك فما أقل ما كانت تستطيع أن تحصله في النهاية !

فما عدا مواد اللغة العربية والإنجليزية ومجموعة المواد غير ذات الطابع العلمي كان عقلها شبه موصد أمام تلقي أي دفق من المعلومات مهما بلغت قوتها .. حاولت كثيرا ، وبذلت جهودا جبارة ، كانت تجلس أمام الكتاب

وتركز في الصفحة وتعتصر جبينها بيديها وتغلق عينيها بقوة ، ثم تفتحهما مبحلقة باحثة عن خيط ، عن طرف خيط ، يربط تلك المعلومات ببعضها .. عن كلمة سر أو تعويذة ترددها فإذ بطلاسم الفيزياء والكيمياء والرياضيات تنفك وتنفتح مفسرة كل شيء ، موضحة كل شيء .. لكن ما من سبيل لتحقيق ذلك !

ازداد عقلها انغلاقا وانغلاقا كلما داهمها الوقت أكثر وأكثر .. ثم بدأ نعاس ثقيل يجثم عليها كلما فتحت كتاب احدي تلك المواد لا تستيقظ منه إلا على ألم مبرح يلوي معدتها !

ثم بدأت تعاف الطعام وتكرهه .. كانت قد قللت من طعامها إلي حد كبير بعد إصابتها بالتقلصات المفاجئة ، أما في تلك الأيام فلم تعد تأكل شيئا تقريبا .. ليس دلالا ولا ممانعة واستدرارا للعطف والشفقة .. بل لأنها فعلا لم تعد تشتهي الطعام مطلقا حتى الأطعمة التي كانت تحبها سابقا لم تعد تستطيع أن تقربها أو تفتح شهيتها !

في آخر حصة كيمياء أعطتها قريبتها وزميلتها " بسنت " باكو شيكولاته من النوع المفضل لها قائلة بضحك وسخرية بريئان تماما :

" خدي خدي أسندي قلبك .. شكلهم بياكلوا أكلك يا حزينة ! "

كانت الفتاة تمزح بالطبع ، وتقبلت منها " مروة " كليهما ، قطعة الشيكولاتة والمزاح .. لكن الشيكولاتة بقيت بورقتها مغلفة في حقيبتها حتى ذابت بسبب حرارة الجو النسبية وسالت داخل الورقة المصقولة والتصقت في ركن الحقيبة حتى نُسي أمرها تماما .. كانت الأم أول من لاحظ أن ابنتها لا تأكل فعليا أي شيء !

لاحظت ذلك على الغداء ذات يوم .. حين كانوا يتناولون طبيخ بطاطس ومكرونة وحماما محشوا بالفريك .. قسمت الأم المنابات وأعطت للطالبة

المجتهدة حمامة سمينة حُشي جوفها بالفريك حتى كادت تنشق حصولتها * من كثرة الحشو.. بقيت الحمامة فوق طبق المكرونة صحيحة كما هي بينما " مروة " تتظاهر بأنها تأكل وهي لا تفعل في الواقع !

لاحظت الأم ذلك فسألت " مروة " عما بها :

" مالك يا بتي .. مش عاجبك الأكل أجبلك حتة مخلل تفتح نفسك ! "

نفت " مروة " بوهن :

" لا يا ماما .. تسلم أيديكي الأكل أهوه زي الفل ! "

" آمال مالك بس يا أمي مش بتاكلي ليه .. خسيتي وعدمتي ووشك صفر يا ماما ! "

كانت الأم تعدد ما ألم بابنتها من تغيير شكلي ظاهر للغاية .. لكنها أرجعت كل ذلك في النهاية إلي الخوف والجزع من الامتحانات .. لكنها لم تتوقع أن شيء أكبر من هذا يمكن أن يحدث .. لم تتخيل أصلا إمكان وقوع شيء أكبر وأخطر من كل هذه الأعراض البسيطة !

*****

وجاء يوم السبت الأسود الثامن من شهر يونيو ، حيث كان اليوم الذي يحوي الليلة المخيفة ، ليلة الامتحان .. ولم تكن مخيفة حقا فمواد اليوم الأول لم تكن سوي اللغة العربية والتربية الدينية ، وهما مادتين محببتين كقطعة الشيكولاتة ل" مروة " .. ذهبت إلي الامتحان واثقة من نفسها وأدت أداء طيبا للغاية ، أداء جدير بطمأنة فؤاد البنت المروع الخائف .. عادت من الامتحان لتنام نوما عميقا استمر عدة ساعات .. صحت بعدها بحالة جيدة وهمت بالخروج من الغرفة لتغسل وجهها وتأكل ، وتبدأ في استذكار مادة اللغة الإنجليزية ، التي ستؤدي امتحانها بعد يومين فقط ، لكنها لم تكن

جزعة ولا مرعوبة كذلك .. كانت على ثقة من أنها ستؤدي جيدا في تلك المادة الهينة على قلبها .. وبالفعل أخذت حماما منعشا وأزالت عن نفسها وخم النوم وثقله ثم خرجت من الحمام لتسمع صوت أبيها يرن بأسفل :

" حمدا لله على السلامة يا أبو " عمر " .. نورت بيتك يا أخويا ! "

كان هذا هو صوت الأم مرحبا مهللا .. الغريب أن " مروة " لم تكد تسمع صوت أبيها حتى تمشي الألم في معدتها بطريقة مفاجئة !

أجفلت للحظة لتفيق على صوت أبيها وهو يناديها بمرح :

" يا بت يا " مروة " ! "

أخذت تنزل السلم على الفور وهي في حالة خوف ، لا تعرف سببه ، وكادت تزل قدمها وتسقط مرتين فوق الدرجات لكنها لحقت نفسها في آخر لحظة .. وجدت نفسها وجها لوجه أمام أباها أخيرا !

كان يبدو عليه التعب والإرهاق لكنه أحد بصره ورمقها بعينان كعيني الصقر وهتف متظاهرا بالمرح :

" أزيك يا دكتورة .. وحشتي بابا يا بت ! "

أخذها بين ذراعيه وقبلها .. كانت قبلته دافئة ، وربما ساخنة ، نتيجة سخونة جسده لكنها أحست بها باردة كالثلج على خدها لدرجة جعلتها ترتعش ، وكأنها موضوعة في حوض مليء بالثلج .. حيته وسألها عن الامتحانات فأجابته مطمئنة .. مرة أخري أكد على مسألة المجموع وكلية الطب وخلافه ، فصعدت الصخرة الصغيرة من أعماق أمعائها وأخذت تطفو متراقصة في بلعومها .. وكادت تدفعها للتقيؤ لولا أنها حبست نفسها وتماسكت أمام أبيها !

فرت من أمامه بعدها معتذرة بالمذاكرة والمادة التي تنتظر مراجعتها .. وبمجرد أن دخلت الغرفة بدأت تمشط شعرها المبتل .. لاحظت فورا شيئا غريبا فقد بدأت خصلات غزيرة من شعرها تنسحب وتخرج متساقطة بين

يديها .. وخلال ثوان كان المشط الذي تستخدمه لترجل به شعرها قد امتلأ بكومة من الشعر الأسود اللامع المتساقط !

ألقت " مروة " المشط من بين يديها ، وضفرت شعرها بإهمال ثم جلست إلي مكتبها الصغير.. لم تكن قد أكلت شيئا فسمعت أمها تناديها من الطابق السفلي لتأتي وتتناول الطعام مع أبيها وأخوتها .. شعرت بشبع مفاجئ وامتلاء غريب لكنها لم تكن تستطع أن ترفض الأكل في حضور أبيها !

نزلت فورا والتفوا حول المائدة التي أعدتها الأم .. جلست " مروة " قبالة أبيها بجوار أختها الصغيرة وبدءوا يأكلون .. كان هناك مليون موضوع وموضوع يمكن أن يتحدثوا فيها لكن الأب ، الذي تولي توجيه دفة الحديث ، أنصب اهتمامه وتركيزه على موضوع واحد فقط لا غير:

" ها يا " مرمر " وعاملة أيه كده في الامتحانات .. أياكش تكوني بتحلي مية في المية ! "

بصوت ضعيف خائر القوي أجابت البنت متلعثمة :

" الحمد لله .. الحمد لله يا بابا ! "

رفع سبابته ، منذرا ربما أو مشجعا ، وهتف مصرا على كل حرف يقوله :

" أنا خلاص عملت حسابي على طب إن شاء الله .. وبإذن الله احتمال أخدك تكملي في مصر جامعة سوهاج دي تعبانة ! "

غصت " مروة " باللقمة الصغيرة التي وضعتها في فيها تحايلا وتصنعا ، وشرقت فناولتها أختها كوب ماء فورا :

" مالك يا بت كفا الله الشر ؟! "

سألتها أمها فاتسعت عينا الأب وقال وهو يرمقها بنظرة حادة :

" لا لا شدي حيلك آمال .. وخدي بالك أنا قولت مية في المية يعني مية في المية .. اعملي حسابك على كده ! "

سارعت الأم لتلطيف الجو الذي سخن فجأة وقالت وهي تبتسم بمداهنة :

" يا أخويا قول إن شاء الله .. أهم حاجة نفرح بنجاحها ! "

كانت الأم تحاول ، بعد أن بدأ قلبها يحس بما تعانيه ابنتها ، أن تخفض شروط الأب وتضع حدا للتنازل والتفاهم لكن الأب الصلد كان رافضا لأي تنازل :

" لا لا نجاح أيه .. النجاح ملوش قيمة من غير المجموع العالي .. دي ثانوية عامة مش دبلون ! "

الآن لم تعد " مروة " تستطيع أن تأكل شيئا بالمرة .. قامت من مكانها ببطء فاستوقفتها أمها قائلة بقلق :

" أيه ده .. يا بت أنتي لحقتي أنتي لسه كلتي حاجة أصلا ! "

أبدي الأب قلقا مماثلا على شهية ابنته المفقودة .. لكنها اعتذرت بالاستذكار وأنسلت هاربة !

جرت إلي غرفتها وأغلقت الباب على نفسها .. جلست إلي مكتبها وهي تلهث وكأنها كانت تجري في سباق الخيل .. وأحست بشيء ثقيل يكتم أنفاسها ويفتر عزمها وبشيء آخر كحبل واهن يتمزق داخلها !

وضعت يديها على رأسها .. انتحبت للحظة ثم تمالكت نفسها أخيرا وقررت أن تحاول التركيز والاستذكار .. لكنها عندما رفعت يديها وجدت المزيد من الشعر المتساقط في كفيها وبين فرجات أصابعها !

*****

تتابعت أيام الامتحانات التي وقعت بحضور الأب .. كانت " مروة " واثقة من نفسها جدا في مادة اللغة الإنجليزية .. استذكرت المادة جيدا ، وراجعتها جيدا ، وبإضافة المراجعة النهائية الممتازة التي قام بها مدرسهم في الدرس الخصوصي ، أصبحت تشعر أنها متأهبة تماما للحصول على أعلى الدرجات و(تقفيل) الورقة الإمتحانية بامتياز..

صبيحة يوم امتحان اللغة الإنجليزية استيقظت أفضل حالا .. كان جميع من بالبيت نائمون ، فلا تزال الساعة الثالثة فجرا ، والكون من حولها هادئ ساكن تماما .. صحت لتراجع المادة كاملة ، كما تفعل عادة ، في يوم الامتحان ، وتسترجع كافة تفاصيلها .. كانت " مروة " في الحقيقة تعتمد على مجموعة المواد الأدبية والعامة في منع نفسها من الرسوب !

خامرها أمل ، وربما وهم ، أنها إذا تمكنت من تسجيل أعلى الدرجات في اللغتين العربية والإنجليزية وبقية المواد البعيدة عن الفيزياء والكيمياء وعفاريت العلمي ربما يمكنها النجاح ، ولو بمجموع بسيط ، مجموع يضمن ألا ترسب وتسقط .. لكنه لن يضمن لها ، بطبيعة الحال ، أن تحقق لأبيها حلمه .. كما أنه لن يعفيها من عقابه !

حاولت البنت نفض رأسها وإبعاد كل تلك الأفكار المثبطة للهمم عن رأسها .. لكن الكوابيس ما لبثت أن بدأت تنفرد بها في ليل وحدتها المرهقة الطويل !

كانت تغفو على كتابها لتري أباها يضربها بقسوة .. لم يحدث من قبل أن مد الأب يده عليها ، باستثناء مرات قليلة جدا تعد على أصابع اليدين ، أقربها وأكثرها قسوة المرة الأخيرة التي حدثت بينما هي في الصف الثالث الإعدادي حين ذهبت إلي سوهاج مع عمتها دون علمه أو رضاه .. لكن الكوابيس المتلاحقة ، التي بدأت " مروة " تخلط بينها وبين الوقائع التي مرت بها في

حياتها ، جعلتها تعتقد ويترسب وهم سام غريب في أعماقها ، أن أباها ضربها بقسوة مرات عديدة .. وأنه جاهز تماما لتكرار هذا الأمر عند أي بادرة عصيان أو تمرد منها !

لذلك ، وفي صبيحة يوم امتحان اللغة الإنجليزية ، وبينما كانت تهيأ نفسها للذهاب والخروج ، وفوجئت بأبيها أمام وجهها باسما ببيجامة بيضاء بسيطة خارجا من الحمام ، بدأت ترتعد فور أن وقعت عيناها عليه .. ناداها بلطف وسألها إن كانت تريد نقودا أو أي شيء فردت عليه متلعثمة متجنبة النظر في عينيه اللتين بدأت تخافهما وتخاف النظر مباشرة فيهما .. ولا تدري السبب في ذلك !

الغريب أنها مرت بتحول كامل وبدأت تشعر بأنها نسيت كافة ما استذكرته وحفظته من دروس اللغة الإنجليزية .. بل أحست بما هو أعجب حينما كانت تتناول كتبها وكراساتها تمهيدا للخروج من البيت ، وأنشأت تراجع مع نفسها أبسط القواعد والأساسيات الخاصة بلغتها الأجنبية الأولي .. وحاولت عبثا تذكر حروف الأبجدية الإنجليزية ، التي تحفظها عن ظهر قلب ، فإذ بعقلها يتصلب عند حرف الكيو وتعجز تماما عن تذكر الحرف التالي له وهل هو آر أم إس !

موقف تافه غريب لكن الصداع القوي ما لبث أن هاجمها .. شعرت بزغللة مفاجئة وإنحياد بصري غريب واندلع ألم في مقدمة رأسها وأمسكت جبهتها بيدها مترنحة !

أكلت لقمة واحدة نزولا على إلحاف أمها وإصرار أبيها ، ثم غادرت البيت محملة بدعواتهما القلبية المخلصة لها .. وبكثير من الخوف والجزع والإحساس بالفشل المسبق المؤكد !

جلست في اللجنة كما تجلس كل يوم .. لكن الأشياء كانت أكثر غيمة وأقل وضوحا أمامها .. وأثناء توزيع أوراق الإجابة عليهم دهمها ألم شق رأسها نصفين فكادت تصرخ مستجيرة مستغيثة لكنها لحقت نفسها وأطبقت فمها في اللحظة الأخيرة !

أخيرا وجدت أوراق الأسئلة أمامها .. في يوم آخر وفي ظروف أخري ، كانت ستجده امتحانا متوسطا لذيذا يمكنها حله كاملا في أقل من نصف الوقت المحدد للإجابة .. لكنها الآن تري عجبا يحدث معها وبها !

تحدق في ورقة الأسئلة فتري صفوفا تتلو صفوف من الأسئلة المصاغة بمهارة وبقليل من الدهاء .. أسئلة من صلب المنهج وصميمه ، ولا عيب فيها إلا أن " مروة " تشعر أنها لا تعرف شيئا مما تقرؤه ولا تملك إجابة سؤال واحد منها !

كان السؤال الأول حوارا بين طالب ومعلم .. كان سهلا في فحواه ومسالكه ليست عسرة إلي هذه الدرجة لكن خيال " مروة " الهائم رعبا غير صيغة الحوار أمامها لتجد أنها تحادث أبيها :

" وليه مجبتيش درجات كويسة ترفع مجموعك يا خايبة يا فاشلة ؟! "

" بكاء "

" ما تنوحيش يا بت وردي عليا ردت المية في زورك ! "

" أنا آسفة والله يا بابا .. بس أصلي معرفتش أحل كويس في الفيزياء والكيمياء ! "

الأب زعيق غاضب :

" ومعرفتيش ليه يا فاشلة .. أحسن منك العيال اللي جابت مية لمية .. أحسن منك " بسنت " ؟! ليه يا " مروة " .. دا أنا صرفت عليكي دم قلبي ومحرمتكيش من حاجة أبدا ؟! "

" بكاء "

" بس يا بت لحسن أقوم أكسر رقبتك .. والله لتعيدي السنة وتجيبي المجموع اللي أنا عايزة ، وإلا هطلعك من التعليم وأقعدك زي الجهلة في البيت تخدمي أمك وأخواتك ! "

" لا يا بابا .. لا والنبي .. أنا مش بحب العلمي .. أنا هروح أدبي وهذاكر وهنجح وهجيب مجموع عالي وهدخل أحسن كلية وأطلع حاجة حلوة وأشرفك والله .. "

لم يعطها الأب الفرصة لإكمال دفاعها عن نفسها نهض ساخطا بعد أن شخط فيها بقوة .. مد يده وصفعها بقوة على وجهها فتراجعت إلي الخلف لتجد نفسها تهوي في فراغ أسود عميق بلا قرار ولا نهاية له !

أفاقت على يد توضع على كتفها .. كانت إحدي المراقبين في اللجنة وقد لاحظت أن الفتاة لا تكتب ولا تجيب عن شيء في الامتحان رغم أنه بدأ منذ نحو ربع ساعة :

" مالك يا ماما تعبانة ؟! "

سألتها مشفقة ، فردت " مروة " التي شعرت بالعالم باردا متموجا بألوان متداخلة بعد أن رُدت إليه قسرا من رحلتها التي كانت تهيم فيها تحت عظام جمجمتها الساخنة :

" لا لا أنا كويسة ! "

" آمال مش بتحلي ليه ؟! "

سألت المراقبة بأمومة واضحة فقالت " مروة " تسوق حجة تقليدية أكل عليها الزمان وشرب ونام أيضا :

" لا بس أصلي .. بركز في الامتحان وبقرا السؤال كويس ! "

ربتت المراقبة على كتفها برفق وحنان ، ثم انصرفت عنها لترعي بقية الأولاد المشدودين عصبيا والذين كانوا كلهم ، تقريبا ، في حاجة إلي يد حانية اللحظة لترعاهم وتخفف رعبهم وقلقهم !

بقيت البنت وحدها وجها لوجه أمام ورقة الامتحان .. ومرة أخري باغتتها ذكري حرف الكيو فارتجفت !

أخيرا حاولت جمع شتات نفسها وبدأت تكتب وتجيب على بعض الأسئلة .. بكثير من الجهد تمالكت نفسها ، وأجابت على الحوار ثم انتقلت إلي السؤال الذي يليه .. لكن ورقة الأسئلة مع ذلك امتلأت بأفكار غامضة ومقصوصات من أشعار تبدو كندف من نسيج ألم غير كامل .. ألم شتته الألم وجعله غير قادر حتى على أن يضم نفسه ويتشكل في صورة واضحة ملموسة لها معني ويمكن التفاوض معها !

*****

مرت أيام عصيبة وبدأت " مروة " تخوض معركتها الضارية مع أعدائها وأصدقائها اللدودين ، المواد العلمية الثقيلة .. كانت معركتها معهم صامتة وتخلو من قعقعة السلاح وأصوات الضربات المتبادلة ، لكن مع ذلك فما أكثر الجثث التي كانت تتخلف في ساحة المعركة بعد نهاية كل يوم طويل لها مع إحداها .. على أرضية غرفتها تناثرت أوراق الدروس ، وقصاصات من أوراق ممزقة أفرغت فيها البنت مخاوفها على هيئة مسائل وعمليات كيميائية غير كاملة .. محاولات حل عقيمة باءت أغلبها بالفشل الذريع ، فقد كانت تجد نفسها عاجزة بصفة مطلقة عن حل أي مسألة ، أو إنهاء أية معادلة ، ما لم تضع الكتاب المدرسي أو مذكرة الأستاذ الخارجية أمامها وتنقل منها طريقة الحل نقل مسطرة .. أبي عقلها الكاره أن يحفظ شيئا من

قوانين الفيزياء الجامدة أو معادلات الكيمياء السائلة السامة التي كانت تنفث دخانا قاتما بوجهها .. وجدت نفسها محصورة بين الرمضاء والنار ولم تعرف أيهما أقل حرا وأكثر رحمة .. وجدت نفسها محاصرة في الركن فهرع خيالها لإنقاذها !

كان خيالها هو معين الحماية الوحيد لها في تلكم الأيام الصعبة فلاذت بحماه تاركة له أمر ابتداع ما شاء من وسائل دفاعية لصد الهجوم العلمي الثقيل عنها وإحاطتها بطبقة عازلة تقيها شر العالم المعادي المحيط بها من كل ناحية .. بدأت " مروة " تعاني من نوبات أحلام يقظة عميقة مستغرقة بقوة ، لا تستفيق منها إلا بصعوبة بالغة .. ثم بدأت صورة ما ترتسم في خيالها !

كانت صورة باهتة ملتفة بعباءة اللاوعي السوداء ولا يكاد يظهر منها إلا عينان صغيرتان مشفقتان .. كانت " مروة " أخري تولد في داخلها وتلتصق بأحشائها وكأنها توءمها الملتصق الذي لم يولد معها ، بل ولد فيها وفي داخل جسمها ملتصقا بأعضائها محشورا في داخلها .. بدأت الفتاة تنشطر إلي نصفين !

نصف هامد مستسلم يحلم ويغرق نفسه في أوهام وتطلعات وأماني مختلفة الأشكال والأحجام .. ونصف واعي عيناه مفتوحتان يصرخ فيها أن استيقظي ليس هذا وقت الحلم ولا وقت التوهم !

لكن العقل الواعي العاجز كان أقل قوة ، للأسف ، من الآخر المسربل بالظلام ، الذي برع أيما براعة في اختراع الدفاعات ، وصد العدوان عنها بكل فن مرغوب ومتاح .. هاجمتها الأبيات والقصائد وأخذت الأفكار تتري على رأسها ، والقصص تسحبها بعيدا وسط عالم ملون أكثر بهجة من عالمها القابع خارج باب غرفتها .. أكثر بهجة وأقل خطرا وقسوة !

قاومت " مروة " لفترة قصيرة .. ثم زلت قدمها وبدأت تنسحب غارقة سابحة في عالمها الخيالي الجميل .. وبدأت تفقد قدرتها على التركيز كليا تقريبا!

بدأت المعركة إذن والعقل الواعي يبحث عن قائدته ليجدها تغط في نوم عميق .. وأخذت نتيجة المعركة تسفر عن نفسها مسبقا !

خطط وخطط توضع ولا يتم تنفيذها .. أخذت " مروة " تلوذ بحمي الساعات المتبقية ، وتسول لنفسها أنه بإمكانها أن تنقذ ما يمكن إنقاذه .. أخذت تسهر لوقت متأخر تستذكر دروسها ، تتخيل نفسها تفعل في الحقيقة .. وتأخذ في حساب عدد الأيام والساعات التي تفصلها عن موعد لجنة الامتحان ، ثم تقسم عدد صفحات الكتاب أو عدد موضوعاته عليها .. أخذت تُمني نفسها بطريقة مثيرة للسخرية والشفقة .. فهذا كتاب الفيزياء عدد صفحاته مائة ونيف ، وباق يوم ونصف على الامتحان إذن فلو استذكرت عشر صفحات كل ساعة ، فبوسعها إنهاء الكتاب كله خلال الوقت المتبقي ، بل ويتبقي لديها ثلاث أو أربع ساعات فائضة يمكنها استثمارها في المراجعة .. تضع الخطة كهذي ثم تنقلب على ظهرها وتنام !

لا تنام حقا بل تغلق عينيها وتبحر في محيطها الخيالي متخيلة أن الساعة ستقف لها ، وأن الدنيا تنظر لها بحنان وتستوقف الزمن لأجل خاطرها .. اشتدت عليها نوبات التخيل وهاجمتها الأحلام بقوة وجذبتها بينما كان عقلها الواعي يخبط على رأسها وينقرها نقرا مصرا مستمرا ويجذبها من يدها الأخرى .. تنازعها الطرفان فتمزقت بينهما وأصبحت كرجل أوقفوه بين امرأتين يعشقهما وطُلب منه أن يختار إحداهما .. إنه في أغلب الأحوال لن يعجز عن الاختيار فحسب بل سيتمزق نصفين وتتفرق أشلاؤه بين الطرفين !

لم تحسن " مروة " إدارة المعركة بين نصفي عقلها .. داهمتها العربة مسرعة فبدلا من أن تنتحي عن الطريق وتجري حيث الأمن وقفت بوجهها فداستها ومزقتها !

مرت عليها بقية أيام الامتحان وهي لا تدري إن كانت مستيقظة أم نائمة .. حية أم ميتة !

كانت تفعل كل ما يفعله الآخرون وبالضبط مثلما يفعلونه .. تنام وتغرق بالأحلام ، تداهمها الكوابيس وتحلم بالرسوب والفشل والإخفاق ، تصحو لتجاهد مع كتبها ومذكراتها ، وتجري لتلحق بمواعيد حصصها مع " بسنت " ، تأكل وتشرب ، تتحدث ، تبتسم أحيانا ، بل وتتظاهر بالضحك .. لكن من كانت تفعل كل هذا ليست هي بالتأكيد !

إنه وهم التلبس .. حين يتقاسم اثنين جسدك ويشطران روحك وعقلك بينهما ، وأنت عاجز عن تحديد أي في الاثنين هو أنت .. هو أنت بالضبط وليس شخصا آخر تماما !

كانت الأم تشعر بما تعانيه ابنتها، وتشاركها في هذا الشعور القريب الأستاذة " ماريان " ، التي بذلت جهدها لمحاولة ردع الفتاة عن الاستغراق في الحلم والتخيل .. حاولت إقناعها بأن تعيش الواقع ، وتلحق نفسها لتنجو ولو بدرجات منخفضة ، تحقق لها النجاح والإفلات من براثن الرسوب والفشل .. لكن كل تلك الجهود المخلصة كانت تتبخر وتتلاشي لحظة أن تقف البنت أمام أبيها الصارم وتري في عينيه ما تري .. تمضي هاربة من أمامه ولا يتبقي في رأسها سوي سؤال مثير للفزع والرهبة : ما الذي سيفعله هذا الرجل بي إن فشلت ؟!

ليس سؤالا استنكاريا بل كان عندها سؤال تقريري يشبه الحقيقة التقريرية التي لا مراء فيها التي يطرحها عليك السؤال الأبدي : ماذا ستفعل حينما تجد ملاك الموت واقفا فوق رأسك يقبض روحك !

حتى وإن كنت تشك في حقيقة وجود ملاك الموت ، فإنك أبدا لن يتسنى لك أن تنكر الحقيقة الأبدية الدامغة : إن روحك ستقبض وأنك ستموت يوما ما طال بك الزمان أو قصر !

مرت أيام الامتحان إذن ، وما من أحد كان بقادر على منعها من أن تمر.. وجاء يوليو بعنفوان حرارته وشقي الناس أمام قسوته .. لكن الفتاة المنتظرة على صفيح النار تتقلي عليه كالسمكة المشوية كانت في غيبوبة غير مدركة لما يدور حولها أو ما ينتظرها بعد أسابيع .. أسابيع قليلة !

*****

إرهاصات النتيجة بدأت حينما كانوا كلهم في الإسكندرية يقضون بضع أيام من الفسحة والتنزه بمعية الأب الذي أستأجر لهم شقة قريبة من البحر كما جرت عادته .. وأصطحب الأسرة كلها ليمرحوا ويصطافوا على شاطئ المدينة الجميلة .. كان الجميع بحاجة إلي تلك الأيام الخالية من الهموم والمتاعب وضغوط البيت ومتطلباته التي لا تنتهي .. وبخاصة " مروة " التي عانت حالة من المرض الخفي والإعياء الدائم منذ أن خطت خارجة من آخر لجنة امتحان لها .. وبالقرب من حضن البحر الأزرق المفتوح لاقاها شيطان الشعر بحفاوة ورحب بها ، وفتح لها بابا لتصعد فيه وتري وتسمع .. بدأت الفتاة تكتب أشعارا تذوب حلاوة ، وتدب بقدمين خفيفتين في عالم مبهر تراصت فيه العبارات والألوان والصور الشعرية كما تتراص النماذج الجميلة في محل لعرض فساتين الأفراح .. كلها بجوار بعضها ، كلها أجمل من بعضها ، وكلها تلمح وتغري وتنشط العرض والطلب .. بالقرب من البحر بدأ الشعر

يغزو عقلها بجيوش جرارة فخضعت له فورا وصارت تقضي ساعاتها الحرة على الشاطيء ، بعيدا عن أبويها وأخوتها اللاهين العابثين ، في خط رؤاها وإلباس أفكارها ثوب قشيب من جميل الكلمات .. وكذلك بدأت كتابة قصص كثيرة مختلفة الموضوع لكنها كلها أتحدت في الهدف .. إعادة صياغة العالم وتشكيل الجو المحيط بها .. ففي خيالها ، وفي عالمها الخاص الذي تملك حرية بنائه ، كما تملك حرية هدمه وبيع أنقاضه صبرا أو بشيك مؤجل الدفع أو مجانا ، كان هناك أب آخر .. كانت هناك فتاة أخري ، لها أب آخر ، الغريب أن خيال " مروة " ثبت الأم والأخوة ، بينما قام ببساطة بتغيير الأب .. لم تكن البنت تكره أباها لكنها كانت تتمني لو كان رجلا آخر .. رجل يفهمها ويقدرها ويطلقها حرة بدلا من أن يكتفها ويقيدها من قدمها بحبل أحلامه هو .. كانت تريده أبا آخر لكنه هو ، فكم كانت ملامحه محببة إليها ، كم كانت تحبه ولذلك كانت تريده أبا أفضل وأكثر تسامحا وتفاهما .. تمزقت لحظتها بين الأب الموجود فعلا ، والمحبوب دون نقاش ، والأب المتخيل الذي كانت تنتظره وتتمناه .. لكن كلا الصورتين لم تكونا تتنازعانها بقدر ما كانت تتمني لو تستطيع الجمع بينهما .. إنها تريدهما كليهما .. مندمجان في جسم واحد ، في شخصية واحدة ، في بدن واحد يحنو عليها ولا يقسو ولا يفرض رأيا .. ولا يكسر لها حلما لمجرد أنه ليس حلمه هو ولا يريده !

لكن الأب فيما يبدو كان مصرا على كسر حلم ابنته دون حلم ولا رحمة .. ضبطها مرة جالسة في الشرفة تتنسم نسائم البحر وتكتب على أوراقها أحلامها وتربطها بوشائج من كلمات وأشعار وقصص وخيال .. أختطف الأوراق من بين يديها وألقي عليها نظرة عابرة .. نظرة سريعة لكنها لم تنطق بغير الاستهزاء والاستخفاف !

قرأ أجزاء من هنا وأجزاء من هناك .. ثم بمنتهي الهدوء وجه إليها طعنة نجلاء في صورة جملة خالية من الروابط خالية من أفعال الأمر لكنها كانت كاوية كحمض مركز:

" مش أحسن نسيبنا من الكلام الفاضي ده ونخلينا في مستقبلنا أحسن .. كل ده كلام فارغ يا ماما وميوكلش عيش ! "

أأصبحت المسألة أكل عيش الآن ؟!

وهل أكل العيش لا يتأتي إلا بالوسائل التي يتخيلها الأب ولا يعرف غيرها؟!

أي عيش هذا الذي لا يؤكل إلا ببدن متهرئ من اللامبالاة وبعقل خاوي من الحلم والطموح والأمل ؟!

أكل سم هذا وعيش سوائم لا عيش آدميين !

لكن شيء من هذا لن يفهمه الأب .. وإن فهمه لن يقدره ولن يستطيع !

لم تجادله " مروة " بل تركته يلومها برقة ويسوق إليها حجج ، بدت لها أوهي من بيت العنكبوت ، ليصرفها عما وجدها عليه ، وكأنها وجدها عاكفة على صنم لها تعبده لا على حلم ترسمه ، ولا تسرف ، في إحسان بنيانه !

هربت من وجهه معتذرة بشيء كالذي يُعتذر بمثله غالبا .. أحست بالاختناق في حضرته فتركته وذهبت .. داهمها المغص بقية اليوم ، رغم أن التقلصات المؤلمة لم تكد تزرها مرة أو مرتين منذ أن انتقلت لتساكن البحر وتجاوره وتحادثه .. كان البحر يسمع لها ويبتلع كلماتها ، مع وعد بإعادة إخراجها في صورة لآليء وأصداف .. فهدأ اضطراب أحشائها وسكن القلق بأمعائها !

عادوا إلي مدينتهم الصغيرة مرة أخري وعلى كثب من إعلان نتيجة الثانوية العامة بقيت " مروة " ..على كثب من الحريق ولا تملك لنفسها حماية سوي رفع يديها لتزود الحر عن وجهها .. وحينما أعلنوا أن النتيجة غدا هاجمتها مساء أقوي نوبة تقلصات مرت بها أبدا !

*****

كان الأب متحفزا جدا لظهور النتيجة .. لم ينم ليلته وظل يحاول مع صديق له ، تعرف عليه مؤخرا ، ويشغل منصبا طيبا في مديرية التربية والتعليم بسوهاج ، على الهاتف يحاول أن يستنطقه ويستنجزه وعده بأن يحضر له نتيجة ابنته قبل إعلان كل النتائج .. كان الأب يتلهف على الفرح وعلى الدرجات العالية المرتفعة التي تشرفه وتحقق ما يصبو إليه هو!

وعده الموظف الكبير ومناه .. وغرورا باطلا أنتظر الأب على أحر من الجمر.. وعند الساعة العاشرة مساء جاءه الاتصال وآتاه حق اليقين !

كانت درجات البنت في اللغة العربية والإنجليزية ومجموعة المواد الأدبية والعامة جيدة .. لكنها نجحت بصعوبة ، وعلى الحركرك تقريبا ، في الفيزياء والكيمياء !

أنهار مجموعها وتصدع وتقلص إلي مجموع متوسط لا يغني ولا يشبع من جوع .. وعلى فرض أنها نالت أعلى الدرجات في الصف الثالث الثانوي ، المرحلة الثانية من الثانوية العامة ، فإن هذا لن يغير من الأمر شيء .. أنهار الحلم وتبدد وتمخضت تبة الرمال عن مجرد كومة تراب ، وانفجرت الحقيقة في وجه الأب .. وأصابت شظاياها وجهه فجرحته ونزف كبريائه دما فأغلق الهاتف بقوة ثم هرع مناديا " مروة " !

كانت الفتاة تستحم حين جاءها صوت أبيها .. في الحقيقة لم تكن تغتسل مطلقا بل أغلقت على نفسها باب الحمام وأطلقت سيول الماء من الدش وجلست بجوارها تبكي وتنتحب وتشعر بالمصيبة التي هي مقدمة عليها !

كان صوت الأب المجلل الصادح بالغضب الشديد كافيا جدا لتعرف فيم يريدها ، ولتهرع الأم من أسفل متسائلة عما يجري .. نادي الأب ثانية بحنق : " مروة " .. أنت يا زفتة الطين يا بنت الكلب "

سبها لأول مرة في حياته ، غير واع إنه إنما يسب نفسه في الحقيقة ، فالابن لا يكون (ابن كلب) إلا إذا أباه هو (الكلب) نفسه !

خرجت " مروة " من الحمام متباطئة .. جرت نفسها جرا بثياب مبتلة وبعينين منتفختين وبشعر ثائر غير ممشط .. كانت المياه تتناثر حولها مغرقة أطراف ثوبها ووجهها ورقبتها ، بدون أن تغسل لها جسدا أو تبرد لها نارا .. خرجت بصعوبة ومشت كالمنومة ، كالمخدرة ، إلي حيث وقف أباها متحفزا غاضبا كأسد انتزعوا منه أنثاه .. كان الأب يجرب أقسي وأقوي موجة غضب مربها أو عاناها في حياته !

بمجرد أن ظهرت ابنته بهذا المنظر المزري أمام عينيه حتى وضع يده عليها وأمسكها بقوة من ذراعيها وجذبها نحوه .. كان ممسكا بورقة كتب فيها درجاتها كما أملاها عليه معرفته الموظف الكبير .. لوح بالورقة أمام وجهها وصرخ فيها بقسوة : " شوفي يا أختي .. شوفي خيبة أملك وفشلك ! "

وصلت الأم عندهما الآن ورأت منظر زوجها ، فأدركت فورا أن ثمة ليلة سوداء تنتظرهم جميعا الليلة .. صرخ الأب في " مروة " وهو يستدنيها منه :

" بقي مش حرام عليكي .. مش حرام تضيعي كل تعبنا وتعبك ودم قلبي اللي طفحته في الدروس .. مكملتيش تمانين في المية يا بت .. ليه كده ليه حرام عليكي حرام عليكي ! "

تصدرت الأم محاولة دفع البنت إلي الوراء لتقف هي بينها وبين الأب .. لكن الأب الغاضب دفعها بعيدا بقوة وغلظة وعاد يشد " مروة " ويصرخ فيها بوحشية :

" ليه كده يا بنت الكلب ليه كده ؟ ناقصك أيه .. قوليلي .. دروس وبتاخدي دم على قلبك في كل المواد .. أحسن أكل وأحسن لبس وأحسن عيشة .. زفت موبايل وفي أيدك أحسن عدة .. مبتتعبيش في البيت ولا حد بيخليكي تشيلي ورقة من الأرض .. فسح ولبس واللي زيك مش لاقيين اللي يجيبلهم حاجة وبينجحوا وبيدخلوا طب وهندسة وبيرفعوا روس أهاليهم في السما ! "

لم يكن هجوم الأب قد أنتهي بعد ، وكان يتهيأ لاستئنافه لكن الأم حاولت بتر تلك المجادلة التي لا طائل من وراءها ولن تورث إلا النكد والخراب:

" معلش يا أخويا .. معلش هي هتسمع كلامك وتنفذ كل أوامرك .. هتعمل كل اللي هتقولها عليه .. هتعيد السنة وتحسن مجموع وتدخل الكلية اللي أنت تقول عليها .. "

هنا صرخت " مروة " ، التي شعرت أنها بغلة تُساق إلي الذبح ولا أحد يعطيها حتى حق الصراخ وقول لا ، أنسابت الدموع بلا حساب من عينيها وقالت بقوة :

" لا لا مش هعيد ولا هحسن .. أنا مش هعمل حاجة مش عاوزاها تاني .. أنا مبحبش العلمي وقولت لكم ميت مرة مش عايزة أدخل علمي .. حرام عليكم هو أنا معزة تتحكموا فيها زي ما أنتوا عايزين ؟! "

صرخت فيها الأم ونهرتها :

" بس يا بت ! "

أم الأب فقد أحمرت عيناه وصرخ بقسوة :

" ما أنت أصلك سباعة٦٧ ومش متربية .. لو كانت أمك عرفت تربيكي مكنتيش تردي على أبوكي كده وتباقريه ٦٨ كلمة بكلمة ! "

خبط الحاج في الحلل .. لكن الحلل ذاتها كانت واقفة بلا حول ولا قوة ، محاولة فقط إنهاء ذلك الموقف وتجنب تسويد الأمر أكثر مما أسود بالفعل :

" خلاص يا أخويا .. خلاص هي هتسمع كلامك والنعمة ما هتعصي لك أمر أبدا ! "

بحرقة كررت " مروة " :

" لا لا لا .. سيبوني في حالي .. سيبوني في حالي بقي حرام عليكم .. حرام عليكم ! "

انسحبت فجأة هاربة إلي غرفتها فلحق بها أبيها وهو يصرخ :

" أستني يا بت .. أنا مش بكلمك يا بنت الجزمة ! والله إن ما جيتي هنا ووقفتي قدامي وكلمتيني زي ما بكلمك لكون كاسر رقبتك الليلة ! "

دلفت " مروة " إلي غرفتها لكنها لم تجد الفرصة لإغلاق بابها خلفها ، وكانت ترغب في قفل الباب في وجه أي مخلوق بشري مهما يكن ، فلم تكن بها حاجة إلي رؤية أي أحد في تلك اللحظة ولا رغبه لديها في ذلك .. لكن الأب الغاضب المجروح في كرامته لحق بها ، ودفع الباب ودخل عليها .. في البداية جذبها من شعرها الهائش ، وانهال عليها بصفعات مدوية قليلة حتى نجحت الأم في الحيلولة بينه وبينها ، وهي ترقع بأعلى صوت لديها وتستعطفه قائلة :

" هتموت البت .. هتموت في أيدك يا أخويا .. هتموت في أيدك ! "

لكنه لم يكن يسمع ولا يعي شيئا في تلك اللحظة .. إنه لم يعد يسمع سوي صوت شيطانه موسوسا في صدره ، الذي ضاق بالغضب والوسوسة فأنفجر غضبه بركانا من الحمم .. ترك الفتاة وأسرع إلي مكتبها .. كانت لديه

فكرة واحدة راسخة في عقله الساخن بالغضب .. أنه ما من شيء أفسد عقل ابنته وضيع مستقبلها وبدد حلمه في أن يراها طبيبة يزدهي بها على الآخرين إلا (المدعوق) الشعروالأدب !

ألقي بكومة كتبها الدراسية على الأرض ، بينما " مروة " تختبئ صارخة خلف أمها التي تشاركها الانتحاب والذعر .. فتش بين أوراقها حتي عثر على كراسة ، فتحها فوجد فيها أشعارا فمزقها بقسوة وألقاها أرضا وداسها بقدميه في غل يصيب المرء بالهلع .. ثم أخذ يفتح الأدراج ، درجا درجا ، ويفتش وسطها منتزعا الأوراق ، التي تبدو له مشبوهة ، من بينها ويمزقها بشراسة وقسوة ، وفي النهاية أخذ يمزق كل ما يجده أمامه من أوراق بريئة المظهر كانت أم مشبوهة .. كانت " مروة " تنظر غير مصدقة لما يحدث أمامها .. إنه حلم كامل شيدته ، ورقة فوق ورقة وسطرا يعلو سطرا ، لتراه ينهار ويتبدد ويُهدم بقسوة أمام عينيها !

كان الأب في سورة حالة عصبية يصعب أن يجرؤ فيها مخلوق على الاقتراب منه ، أو الوقوف بوجهه .. لكنها اندفعت لا مبالية بأي عواقب يمكن أن تحيق بها محاولة منعه من هدم المزيد من بيتها الدافئ .. خباءها المريح الذي تهدهد فيه أحلامها وتلملم فيه بقاياها ، وتجمع أشتات نفسها الممزقة محال .. محال أن تتركهم يمزقونه أمامها دون أن تبذل جهدا للدفاع عنه !

اندفعت صوب أبيها وأخذت تحاول استنقاذ بعض الأوراق من بين يديه .. كانت دموعها تسيل غزيرة ، ولا تكاد تري ما حولها ، لكن حطام أحلامها وهو ينهار كان يصم آذانها بحيث أنها لم تكن بحاجة لرؤية أوراقها العزيزة ، الأوراق القليلة الوزن التي خطت عليها حياة كاملة تزن طنا ومن الأحلام طنين ، وهي تتمزق بيد غضوبة غبية جلفة لا تعرف رحمة ولا تفقه ودادا ولا جموح الروح وتطلعاتها اللانهائية .. صوت الأوراق وهي تتمزق بين يدي الأب كان

يغنيها تماما عن رؤية أي شيء ، كما تغني سماع أصوات الإنفجارات المدوية عن رؤية ألسنة النار وهي تلتهم ضحايا الحريق .. لا شيء في الكون يمكن أن يبقي ثابتا في عقلها بعد تلك العقوبة القاسية التي نالتها !

فشلت في إنقاذ حرف مما كتبت ، ولم تجد في نفسها القوة لتدفع الأب لكي يخلي سبيل أحلامها المخطوطة على الورق .. أي جريرة ارتكبت لُتعاقب بهذا الشكل ؟!

لا تملك هي ولا غيرها جوابا .. ولا حتى الأب الذي يأتي بنهم الآن على ما ذرفته ابنته من سطور يعتبرها هي المسئولة عن فشلها وخيبة أمله المرة فيها !

بعد أن عجزت عن إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وقفت كالبلهاء الميتة ترمق ما يجري حولها .. كان الأب ينبش أوراقها ويمزق أشعارها وقصصها وهو يصيح بالسباب والشتائم التي لم تتوقف عندها هي ، بل أمتد لسانه الطويل لينال أمها الواقفة مرعوبة مصعوقة متهما إياها بالتهمة التقليدية الأولي في مجتمع كهذا .. إنها لم تعرف كيف تربي ابنتها !

وبعد أن أنتهي حريق الأب الذي أضرمه في البيت وفي ابنته خرج فائرا غاضبا ، وهو لا زال يصيح باللعنات والشتائم .. لكن الجديد أنه بدأ نوبة تهديد خطرة لا يعرف مدي ما ستحدثه من أثر في فتاته المسكينة العاجزة ولا إلي أي طريق مظلم ستودي بها :

" والله العظيم ما هي معتباها تاني ! والله ما هخليها تشوف وش الشارع .. هكسر رجلها ورقبتها وهجوزها لابن عمها " يونس " وأخليها تعيش بقية حياتها خدامة لمرت عمها وعياله .. مش أتبترت على النعمة خلاص خليها تشرب بقي .. والله ما هتطول حاجة من كل اللي شافته مني بعد كده ! والله .."

حلف الأب مائة يمين مغلظة وغير مغلظة بأنه سيفعل وسيفعل ، وأنه سيحرمها من كيت وكيت .. كان تهديداته الملتهبة تصل إلي أذني " مروة " لكن لم يكن لها أدني أهمية بالنسبة لها !

فالفتاة وقد رأت حلمها يتمزق وينهار ويتفتت ويمُزق بيد غليظة أمامها لم يعد لأي شيء قيمة أو أهمية بالنسبة لها .. ما قيمة أن يهددون الأكمه بسمل عينيه وكيف يخاف القرد أن يسخطوه؟!

هربت من أمام أبيها إذن ، ليس خوفا من تجدد عدوانه عليها ، فهي واثقة من أنه لو كواها بالنار الآن فلن تحس لها حرا ولن تشعر لها بألم .. لقد فقدت الفتاة شعورها كله دفعة واحدة وأنقطع خيط أملها وحلمها انقطاعا عنيفا .. وبُترت صلتها بالواقع بترا كليا لا هوادة ولا رحمة فيه ؟!

لماذا لا يقدر أولئك القوم قيمة الحلم .. لماذا لا يتركون الإنسان يحلم ويعيش وفق ما يريده حتى وإن أخطأ أو كبا أو تعثر .. أليس من عثراتها تتعلم الجياد العدو ومن كبواتها تُلقن الفرسان أصول الرجولة والشموخ ؟!

لا مكان للحلم هنا ولا تسامح معه .. هنا مجتمع غليظ يكتم أنفاسك بيد ، ويقفل عينيك بيد ، بينما يلقي على مسامعك العظات الجافة والحكم اليابسة .. منتظرا أن تسوغها وتبتلعها بلا شربة ماء ولا رشفة أمل !

فقدت بوصلتها تلك اللحظة وتحطمت صلتها بكل ما حولها .. لم يعد شيء يخيفها أو يعنيها فقد شهدت حلمها وكلماتها ، التي استنزفتها من دمها ومن أوردتها ، وهي تُسفح أمامها وتداس بالأحذية وتتفرق بين القبائل !

وهم ، وهم وحلم لا سبيل للوصول إليه .. وغلظة وجفوة تثير الدهشة والسأم .. ما قيمة كل هذا ؟!

ما قيمة البقاء والتشبث بالبقاء وسط كل هذا ؟!

ما قيمة أن تحيا حياة الموت خير منها .. ولما تخاف موتا هو أكثر راحة وأمنا من الحياة ذاتها ؟!

شهقة يأس ودفقة قنوط تمشت في عروقها .. أنعدم الطعم في فمها وأحست بمرارة راسخة في حلقها وبصخرة تعوم في أحشائها .. انسكب الماء البارد بسماجته وثقله في أمعائها وتلقت من الكون حولها صمتا متآمرا شاهدا بعين عمياء متعامية عما يجري مما كان يجب ألا يجري ولا يُسمح له بأن يكون !

كان ..

يكون ..

كينونة عدمية ثقيلة جافة مخيفة ، مفرطة القسوة ، مفرطة الخفة ، بدينة مترهلة ، فظة جلفة ، بلهاء لا تملك ذكاء إلا في التآمر والكيد ، خفيفة بلا وزن ولا قيمة لها في سوق الذهب ولا في سوق النخاسة .. متجذرة كوباء ، مفلطحة كألم ممتد منتشر ، منضمة على نفسها كحية خطرة تتهيأ للغدر ، باطشة جبارة ، جسورة مقتحمة جبانة في الحقيقة ، لكنها تتظاهر بعكس ذلك .. قبيحة قميئة كريهة يحبها البشر ويتقاتلون عليها حتى الموت !

بينما الموت وحده يحمل نسمات الراحة ويحمل وعدا ، ولو كاذبا ، بتخفيف الألم والقضاء عليه ..

الموت ؟!

تري أي راحة في الحياة ، وأي سرورها .. وأي شقاء في الموت وأي مدعاة للحزن فيه ؟!

اختلطت الأفكار في رأسها وتشوشت .. وبرغم ذلك كانت تشعر أن رأسها خاوية يصفر فيها الهواء .. خرابا بلقعا في رأسها وعمار ليس إلا أنقاض بناء مهدم يخيم عليه الخراب !

خراب يعمر رأسها وهواء يضربه ، وموت كحلم مزيف جميل تدور حوله كل أفكارها الآن !

ابن عمها " يونس " هل يعتقد أنها ستبقي ليعاقبها على شيء كان من الحري أن يُعاقب هو ، لا هي ، عليه ؟!

أيعتقد أنها ستسمح له بأن يذبحها ميتة بعد أن ذبحها حية وداس بحذائه على رقبتها ؟!

كان الأبوان قد هبطا إلي الطابق السفلي من المنزل .. نجحت الأم في دفع الأب للنزول ، وترك البنت في حالها حتى يهدأ كليهما .. أستمر يطلق تهديداته الحارة مقسما بالطلاق ألف مرة على أنه قادر على فعلها وسيفعلها .. من جانبها راحت الأم تجيب عليه بخنوع أن أوامره ستسري على رقاب الكل ، وأن أحدا لن يعترض على أي قرار له وأنه سيد البيت المطاع مرهوب الكلمة ..عزيز الرجال الذي لم تنجب بطون النساء مثله !

مزحة وسخرية وأي سخرية .. مرة مرارة العلقم في حلق جائع تائه في الصحراء ليس أمامه إلا العلقم غذاء وشفاء !

في المندرة جلس الأب وجلست الأم ملاصقة له .. وأخذت تهدئه وتسوق له مليون مبرر ومبرر ليهدأ ويقلل من حدة انفعاله :

" أهدا يا أخويا إحنا عايزينك .. ملناش غيرك يا أخويا .. والنبي ما تزعل نفسك .. كل كلامك هيمشي عليها وعلينا كلنا .. عايزها تعيد السنة هتعيد .. عايزها تترزع٦٩ في البيت مش هنخليها تعتب الباب تاني .. آمال يا اخويا .. ده أنت راجلنا وكلمتك تمشي على رقبة الكبير قبل الصغير ! "

ويبدو أن تلك الدفقة من النفاق الأنثوي قد زادت من حمية الأب .. الذي وجد نفسه مطالبا بأن يتقن الدور ، ويجود إنتاجه الذكوري مؤديا حرفته في فرض سلطته الجوفاء بمهارة .. فأندفع مرة أخري يزعق وينتر

ويشخط ويسب ، معلنا إصراره على إخراج البنت من المدرسة ومنعها من إتمام تعليمها تماما .. لكن في الحقيقة أن الأب لم يكن في داخله ينوي الإقدام على ذلك فعلا !

كان يهدد فقط ليخيف " مروة " وأمها .. ولو أن البنت ركزت في كلام أبيها ، لأدركت أن ذكره لاسم عمها " يونس " تحديدا دليل على أن تهديداته كلها فشنك .. فعمها " يونس " وأبيها يكرهان بعضهما كراهية البين والنية !

لو أنها ركزت .. لو أنها فكرت .. لو أنها انتبهت !

ولو التي تفتح عمل الشيطان كثيرا ما تغلقه .. وتتممه أيضا !

وقد تممت لو عمل الشيطان وأكملته على أحسن وجه .. وهكذا وبينما كانت حدة المعركة تهدأ تدريجيا في غرفة الجلوس ، سمع الأبوان فجأة صوت ارتطام مكتوم أمام باب البيت .. لم يدركا ما يحدث ولم يفهما شيئا ، حتى سمعا إحدي جاراتهم تصوت بأعلى حسها وتصرخ بأشد لجاجة :

" يا لهوي يا لهوي .. البت يا " محاسن " .. البت يا خيتي .. البت يا حزينة ! "

ذلك أن " مروة " كانت قد تسللت إلي السطوح .. وصعدت السلم الخشبي الموصل إلي أعلى السطح المخصص لإلقاء الكراكيب الغير مستعملة .. ورمت نفسها من أعلى الدور الرابع لبيت أبيها !

(١٠)

في الساعات المتأخرة من الليل آتاها المخاض .. عنيفا مفاجئا حارقا ، ورغم أن " نعمة " جربت الولادة أربع مرات من قبل ، فإنها لم تشهد مخاضا حاميا كهذي المرة ، حتى في ولادتها الأولي البكرية ..

كانت أم " نعمة " تقيم برفقتها وتنام بجوار ابنتها منذ أن تعدت منتصف شهرها التاسع من الحمل .. وهي أول من سمع أناتاها وصرخاتها وأول من هرع لنجدتها في البيت .. ترامي الصوات المكتوم إلي أذني " عبد الرحيم " الذي يرقد مفتح العينين بجوار زوجته الثانية النكدية .. كانت " ثريا " قد نكدت عيشه تلك الليلة وجعلته يقضي ساعات في الجحيم من كثرة كلامها وشكاواها وزنها ، الذي كزن النحل لا ينقطع ، على أذنيه .. كان موضوع الحوار الذي فُتح وظل مفتوحا تتداول فيه الألسن منذ نحو شهر هو موضوع ولادة " نعمة " .. فمنذ أن دخلت الزوجة بحملها الشهر التاسع والحماة وكنتها الجديدة لا حديث لهن سوي عن الولادة وتكاليف الولادة .. كانت " نعمة " مصرة على أن تلد عند طبيبها تلك المرة ، لأنه حذرها في آخر زيارة لها من أنها تعاني ضعفا في الرحم ، ومن الأفضل أن توضع تحت إشراف طبي وتعقيم كامل ، بدلا من أن تسلم نفسها لداية أو حكيمة جاهلة لا يعرف إلا الله ما الذي يمكن أن تصنعه بها أو تسببه لها من أضرار.. أصرت " نعمة " على تنفيذ النصيحة وحدثت "عبد الرحيم " ، وبينهما ساتر من فتور ومقت خفي وكراهية مستترة من ناحيتها ، عن تكاليف الولادة ، وأمرته بأن يجهز نفسه للدفع .. أذعن الزوج رغبة في استرضاء زوجته الأولي واستمالتها إليه ، لعل وعسي تعود المياه إلي مجاريها بينهما .. لكن الخبر سرعان ما تسرب إلي أذني " ثريا " المطرطقتين في تحفز أبدي وما لبثت أن نقلته إلي حماتها ..

بدأت الحماة المتعضة الهجوم فبينما كانوا يتناولون الإفطار مجتمعين ذات صباح يوم جمعة ، و" نعمة " تجلس منزوية في الركن ببطنها المتكورة وحولها بناتها تطعمهن ولا تطعم هي ، قالت الجدة وهي تدفع ببصلة خضراء مقشرة إلي ابنها الذي يأكل لماما ويبدو شارد اللب والعقل :

" كل يا ضنايا كل .. شقيان يا حبة عيني وهمك ما يتلم .. بس نقول أيه بقي على الحريم اللي معندهاش دم ! "

ابتسمت " ثريا " خفية شامتة .. بينما تحفزت " نعمة " وتوترت لعلمها أنها المقصود بتلك العبارة الأخيرة ، وأن حماتها تعتبرها (مرة معندهاش دم) لسبب لا تدريه .. رد " عبد الرحيم " فورا محاولا لم الموضوع قبل أن يتسع :

" ربنا يعين يا أما وكله على قد جهده .. إن شاء الله نكفي ومنقصرش مع حد !"

كان يطيب بكلامه ما فتقته أمه ، لكن زوجته الثانية فتحت فمها قائلة بسخرية :

" كلها الحريم عتولد في البيوت .. آمال يا أختي لو كانت البطن جايبة ولاد كنا وصلنا لحد فين ؟! "

هنا نظرت إليها " نعمة " غاضبة .. وقالت وهي تلف ذراعيها حول " حسناء " الصغيرة لتمنعها من التحرك بعيدا وقلب صينية الطعام :

" والله البت والواد دولا حاجة بتاعة ربنا .. ولما تبقي تجيبي عيال أصلا أبقي أولدي عند الداية يا حبيبتي ! "

كانت " نعمة " تلكزها وتعيرها وترد لها صاعها الملآن صاعين أكثر امتلاء .. لكن الحماة غضبت لزوجة ابنها الجديدة ، وقالت تنهر " نعمة " دون مبالاة بزوجها الجالس كالنخلة الجافة التي تساقطت فروعها وجف رمقها :

" ما جابت يا ست الكل .. وادين في عين العدو .. وإن شا الله هتجيب لولدي زيهم ورا بعض ونكيدوا العدوين ! "

ضحكت " نعمة " فجأة وقالت مستهزئة :

" أصل اللي يتبطر على النعمة عمر ما ربنا ينولهاله تاني .. في واحدة بردو ترمي ضناها ! "

أربد وجه " ثريا " وقتمت ملامحها .. كانت تلك أكثر نقطة ضعف لديها ، ولديها اللذين أخذوهما منها ، كانت تلك المرأة تظل ثابتة قوية متجذرة في الأرض أمام من يعاديها ، حتى يأتي ذكر ولديها .. حين ذاك كانت جذورها تقتلع وتتحول لهباء منثور ، وتعجز حتى عن الرد .. تطلعت " ثريا " إلي بنات زوجها للحظة ، ثم أحمر وجهها ودمعت عيناها ونهضت بسرعة وهرعت نحو الطابق العلوي لتلوذ بحمي غرفتها من النار التي تحرق ضلوعها .. ستبكي حتى تجف عينيها ، وستنتحب حتى يتمزق قلبها .. لكن وخزة الألم التي سببتها لها ضرتها على مسمع من الجميع لن تمر على خير .. وستجعلها أكثر حنقا وحقدا وإصرارا على إنفاذ رأيها .. فإما هي وإما " نعمة " في ذلك البيت !

أما الحماة فقد غضبت وقالت بصوت مرتفع :

" فيه يا بت أنتي محدش مالي عينك ؟! دي ستك وست اللي جابوكي وبكرة تجيب الواد وتكيدك وتهري كبدك ! "

تصدت لها " نعمة " بقوة وردت عليها بمنتهي الشجاعة :

" دي تبقي ستك أنتي وست اللي خلفوكي .. أنا مليش أسياد يا حجة ! ناس حشرية ومعندهاش دم .. مالك أنتي ولا هي بولادتي .. هو الشملول ولدك ده أنا مش مسئولة منه ؟! والزفت العيل اللي هولده ده مش عيله ؟! "

هبت الحماة واقفة وصاحت بقوة وغضب :

" ما تلمي نفسك يا قليلة الأدب يا اللي محدش رباكي .. بتردي عليا يا بت ويتشتميني ؟! والله ما أنتي قاعدة فيه .. ولا عايزينك ولا عايزين بنتتك قطعة تقطعك وتقطعهم بليتنا وكسرتي عينا ! "

كادت المرأتان تشتبكان في خناقة حامية لرب السماء ، لولا أن فاض الكيل بالرجل الممزق بين طرفين كلاهما يشدانه بلا رحمة ولا هوادة .. رمي اللقمة من يده .. ثم نهض فجأة ليضرب صينية الطعام كلها بقدمه فتنقلب ، وتتساقط منها أطباق الفول والبصل المقطع المغمور بالليمون ، ومخلل الليمون والفلفل والخبز وأكواب الماء .. سقط كل شيء بصوت مدوي ، فأجفلت البنات الصغيرات وصرخن .. بينما انسحبت " نعمة " إلي الخلف ببطنها المتكورة حاملة ابنتها الصغرى على صدرها ، وجاذبة معها بقية البنات إلي الخلف بيديها وبذيل ثوبها .. صرخت الأم وشعرت بالرعب لمنظر ابنها بعينيه المحمرتين ووجه المسود الكظيم الذي يوشك على الانفجار .. صرخ بحنق والانفعال يخنق صوته :

" ما تبس بقي .. ما تبس حرام عليكم .. حرام عليكم مررتوا عيشتي وسودتوا أيامي .. الله يقطع الولادة على اللي هيولدوها على الولاد على البنات على الحريم ع الجواز في ساعة واحدة .. حرام عليكم حرام عليكم ! "

أسرع خارجا وهو لا يكف عن ترديد " حرام عليكم .. حرام عليكم ! "

حتى نزل السلم طولا وهو يكاد يبكي من فرط الحزن والانفعال .. أصبح خارج البيت الذي تتنازعه امرأتان وتهيمن عليه أم قوية لا قلب لها .. ثلاث نساء يلتففن حوله وكل منهن تجذبه من ناحية .. كل منهن تريد منه قطعة .. لكن الله خلقه ، كما خلق سائر الناس ، قطعة واحدة .. لا تمزيق ولا تفريق ولا تشتيت لها .. فكيف يرضيهن إذن ؟!

كيف يرضيهن وهو عاجز عن إرضاء نفسه .. كيف يتحمل أوزانهن فوق كاهله وهو غير قادر على حمل نفسه أو تحمل ما رزأته به الأيام من مصاب يبدو غير أليم .. لكنه أشد ألما من أي شيء عرفه في حياته !

" نعمة " وبناتها ..

" ثريا " ومطالبها ..

أمه وسطوتها !

نقار دائم وشجار مستمر وغيرة ولوعة وتمزق ووجع وعصيان وتمرد وكراهية محبوسة متبادلة حتى نخاع العظم .. حتى نخاع العظم تسلل المرض فأمضه وفي دمه انتشرت فكرة واحدة .. إنه سيقضي بقية حياته في نكد دائم بين مصيبتين !

*****

في نفس تلك الليلة جاء الطلق ساخنا ليُنهي نقاشا طال واستطال وتمدد وتفرع حتى أنتهي في الفراغ دون أن يترك أثرا أو يحل مشكلة .. فكرة الجدال تنتهي دائما إلي لا شيء .. كانت مفاجئة الطلق هي التي أنهت الأمر ، وحسمت النقاش وبترت حبل الجدال .. فلقد كانت الساعة تقارب الثانية صباحا وسخونة الولادة وسرعتها لا تسمح حتى بالتفكير في نقل " نعمة " المتلوية ألما إلي عيادة الطبيب .. قُضي الأمر رغم أنه كان بالإمكان أن يحاولوا على الأقل .. لكن الأم ، أم الزوجة ، تدخلت بفلسفتها الأبدية التي تعتنق فكرة المرأة التي يجب أن تستسلم حتى تموت ، لكي لا تصبح امرأة متمردة أو فاجرة .. وهمست في أذني ابنتها ، التي تعض الوسادة وبنتين من بناتها يبكين بجوارها ، بينما هرعت الابنتان الأخريين للاحتماء بأبيهما ، مطمئنة مذعنة :

" نجيبوا الست " عطيات " الحكيمة يا ضنايا ونلموا الدور .. ما هي ولدتك قبل كده مرتين وطلعتي زي الفل يا أمي ! "

جزت " نعمة " على أسنانها ، ألما وغيظا ، وقال بوجه محمر بشكل مروع من فرط الألم ومكابدته :

" يا أمايا أنا الدكتور قالي وحذرني قدامك .. عايزين تموتوني وتخلصوا عليا .. مستخسرين فيا قرشين أولد بيهم ! "

لا لم تكن الأم تستخسر في ابنتها حتى نور عينيها أو دمها نفسه .. لكن ما باليد حيلة !

لم تجد " نعمة " فرصة لمواصلة الكلام فقد داهمتها نوبة آلام مبرحة ، ورقدت شبه فاقدة الوعي .. هرعت الأم ، حماة " عبد الرحيم " إلي الخارج ، وهي تجر " شيماء " و" مروة " قسرا بيديها وتدفعهما إلي خالة أمهما " سلوى " ، التي أحضروها بالتليفون ، وتصرخ في وجه زوج ابنتها :

" روح يا ولدي .. غيتنا يا ضنايا وهاتلنا الحكيمة ! "

كانت " ثريا " تقبع كضبعه في شقتها بالدور العلوي ، وتسمع كل ما يدور في الدور الأسفل ، عن طريق أذنيها اللذين مدتهما ، مع رأسها ورقبتها ، وأدلتهما من زاوية السلم لتسمع كل ما يجري وتتظاهر بأنها لا تهتم في نفس الوقت .. وهكذا سمعت صرخة حماة زوجها وأمرها له بإحضار الحكيمة فشعرت بأنها انتصرت في معركتها .. انتصرت على " نعمة " أم البنات وأجبرتها على أن تلد بين يدي الداية وليس تحت إشراف طبيبها كما أرادت وخططت .. فرحت " ثريا " بنصرها الصغير عديم القيمة وشعرت بنسائم الفرحة .. لكن فرحتها كانت ستكون أكبر لو عرفت أن المعركة ذاتها على وشك أن تنتهي إلي الأبد .. وأنه لم يبقي حربا لتخوضها ولا صراعا لتجند قواها فيه !

*****

أحضروا الست " عطيات " ، وهي حكيمة مدربة سبق أن باشرت توليد " نعمة " في ولادتيها الثالثة والرابعة ، وتقيم على مقربة من منزل والد " عبد الرحيم " .. وكانت الحكيمة المدربة ، التي تقوم بعمل أفضل مما تقوم به الدايات القذرات ، قد تقلص رزقها وقل دخلها من الولادات بسبب لجوء معظم النساء في السنوات الأخيرة للولادة في عيادات الأطباء .. مما ألجأ المرأة

، التي تنفق على ولدين وثلاث بنات تركهم لها زوجها الممرض السابق في مستشفي المركز ، الذي تركها وترك لها الأولاد وتزوج من امرأة (بحراوية) وأنتقل للإقامة معها في القاهرة ، ناسيا أسرته ومتناسيا زوجته الأولي ، التي لم يقطعها من حياته بالطلاق ، لكنه اعتبرها غير موجودة ، وأمتنع عن إرسال مليم لها أو لأبنائه الخمسة .. تكسبت " عطيات " بعد انقطاع دخلها السابق أو معظمه من العمل في عيادات الأطباء ، نظير أجر شهري أو نسبة من حصيلة العيادة وإيرادها اليومي .. لكن المرأة ، في كل الحالات ، لم تعدم زبائن يطلبون خدماتها ومساعدتها في الولادة ، خاصة وأن أسعارها أقل كثيرا وأكثر مهاودة من أجور الأطباء المحترفين الذين يقصمون ظهور الوالدات ، والمواليد أحيانا ، بأجور أيديهم المرتفعة .. عدا تكاليف الأدوات والجراحة والقطن والشاش والحقن وخلافه !

وقد كانت والدة " عبد الرحيم " ممن يؤمنون بأن الحكيمة لا تقل في شيء عن طبيب النساء ، ويمكنها أن تجر الطفل خارج بطن أمه مثلما يجره الطبيب .. لكن كل الفارق بينهما أنها ، أي " عطيات " ، لا تتقاضي أكثر من مائتين وخمسين أو ثلاثمائة جنيه ، إذا زادت ومدت رجلها في الأجرة ، بينما الطبيب المتعلم لا يأخذ أقل من ألف وخمسمائة أو ألفين جنيها في الولادة الواحدة !

ذهب " عبد الرحيم " ودق على باب بيت " عطيات " فخرجت له خلال دقائق وعلى رأسها شال خفيف لفت به رأسها الأشيب بسرعة فبقي الكثير من شعرها الأبيض الخفيف ظاهرا للعيان :

" خير يا ولدي ؟! "

كانت تنادي كل من يقل سنه عن خمسين عاما بلقب (ولدي) ، مع أنها هي نفسها لم تكن تزيد عن الحادية والخمسين من عمرها .. لكن الهم

والجري وراء اللقمة والجنية وحمل تبعات خمسة أبناء بمفردها أنسوها عمرها الحقيقي .. وجعلوها تشعر وكأن عمرها مائة عام !

مستعطفا متوسلا قال لها " عبد الرحيم " الذي يلهث لأنه قطع المسافة بين بيتهم وبيتها جري في جري :

" " نعمة " بتولد .. والنبي تشهلي يا حاجة وتيجي تولديها ! "

طبعا كانت المرأة مرحبة فهذا رزق جديد هي في أشد الحاجة إليه .. أحكمت لف الشال حول رأسها وقالت مبدية العطف والتفاهم :

" حالا يا ولدي .. أجيب بس حاجتي وتني جاية معاك ! "

كانت الست " عطيات " بوصفها حكيمة قد الدنيا تصر على تمييز نفسها عن الدايات الشعبيات ، اللائي انقرضن بشكل شبه كامل ، بثياب بيضاء نظيفة تذهب بها لتوليد النسوة الماخضات ، وبحقيبة صغيرة تصطحبها معها لتظهر بمظهر الأطباء المتعلمين الفاهمين .. كانت تفهم في مسألة الولادة ورعاية من هن في مرحلة المخاض كثيرا ، وكانت تحرص على أن يتوفر برفقتها بعض الأدوات والأدوية البسيطة لتسارع بنجدة الوالدة في حالة حدوث مشكلة بسيطة أثناء أو بعد الولادة .. وكانت تعتبر محل ثقة الأمهات كبيرات السن ، والحموات خصيصا من اللائي يكرهن تكليف النسوة لأولادهن رهقا في الولادة ، بينما يمكن إتمام الأمر على خير وجه بورقتين أو ثلاث ورقات من فئة المائة جنيه تدفع في يد " عطيات " بدلا من دفع أضعاف أضعافها في أيدي الأطباء المغالين في أجورهم .. أسرعت الحكيمة تابعة " عبد الرحيم " ، الذي تعرف بيتهم مثلما تعرف بيتها تماما ، وقد لبست ثوبها البسيط وردائها الأبيض النظيف وحملت حقيبتها الصغيرة .. وجاءت خلفه تماما بخطواتها السريعة الرشيقة رغم سنها الذي لا يعد سن صغير بأي حال ..

وما إن فتح " عبد الرحيم " باب البيت وأوسع لها تاركا إياها تسبقه نحو السلم حتى أتاهما صراخ " نعمة " قويا حاميا كسكين تشق ظلام الليل وتوقظ كل نائم وكل غافل وكل متغافل صارخة فيه أن أنهض وقم .. فثمة امرأة تتألم هنا ، سيدة تتألم وتتمخض محترقة مكتوية بآلام فوق طاقة البشر على الاحتمال .. من أجل أن تأتي إلي العالم بشقي جديد يشارك القدامى الموجودين بالفعل شقاءهم ، ويقتسم معهم اللقمة المغموسة بالضنك والمر والصبر وطول البال الذي لا ينتهي إلا إلي حفرة متر في متر نعود فيها مثلما جئنا ونسير سيرتنا الأولي .. قبضة تراب بدأنا وقبضة تراب ننتهي وما بين البدء والصيرورة والنهاية ألم وعذاب وليل طويل .. لا ينجلي إلا عن صباح بشمس باردة لا تسمن ولا تغني من زمهرير!

لكن أحدا من الغافلين النائمين لم يستيقظ على صراخ " نعمة " الذي حجبته الأبواب ومنعته الموانع المعدنية من أقفال وموانع رمزية مما تربت عليه أن تكتم ألمها وتتجاهل وجعها .. فالألم عيب والتصريح به عيب أكبر!

أسرعت الست " عطيات " ترتقي السلم وهي تتمتم داعية بالسلامة والساعة السهلة التي تأتي .. فينسحب الوليد من الرحم ويطل برأسه إلي العالم صائحا بصوت لا يسمعه ولن يسمعه أحد :

" مرحبا .. لم أتيتم بي إلي هذا العالم الخرب ولما جشمتموني وجشمتم أنفسكم تلك المتاعب كلها ؟! "

لم يصرخ الوليد ، الذي لا يزال يئن بالداخل ويحاول الإفلات بكل الطرق ، ولم يندو عنه حس .. فالولادة عسرة والطلق ، رغم سخونته ، لم ينجح في جلب المولود إلي العالم بالقوة بعد أن فشلت معه كل الطرق السلمية والأساليب الطيبة !

كانت " عطيات " مدربة جيدا وتعرف كيف تتعامل مع حالات تعسر الولادة لكنها أحست بخطورة حالة " نعمة " بمجرد أن بدأت في دفع يديها داخل الرحم للمساعدة في إخراج الطفل .. كانت " نعمة " تنزف وتفقد دما بطريقة أكثركثيرا مما يجب !

راقدة على الفراش مفتوحة الساقين والحكيمة تحاول إخراج الجنين بينما بحر ، بحر حقيقة ، دون أي مبالغة ، دموي ينبجس من بين فخذيها ويسيل على الفراش الذي أغتسل بالدم وتحمم به .. لكن الدم لم يغسل إثمه ولم يطهره ولم يفده بل زاده إثما وعدوانا ونجاسة !

كانت الأم ، حماة " عبد الرحيم " ، تقف الآن وقد اعتراها الذهول والفزع .. بدأت تدرك أن شيئا يحدث لابنتها .. تحول وجهها إلي اللون القاتم المسود وهتفت أخيرا بقلق وهي تشهد محاولات الحكيمة المستميتة لجر رجل الجنين العصي ، أو رأسه على الأصح ، إلي الخارج وإبعاده عن حمي الرحم الذي يتشبث به في عناد لم تري له مثيلا من قبل :

" نجيبولها الدكتور يا أم " طارق " .. دي هتموت يا خيتي ! "

كانت الحماة تقف لدي الباب تحرس عملية الولادة من بعيد ، كقائد يشهد معركة وهو منبطح على بطنه ، لا يشترك في القتال ولا يترك الجنود المقاتلين المساكين في حالهم .. فردت فورا وكأنها سمعت تجديفا على الذات الإلهية :

" يا أمي على الحريم يا بووووي .. ما هي زي الفل وكلها هبابة وتولد وتخمسهم ! "

كانت تقصد أن تخمس البنات .. وتأتي بالبنت الخامسة وهذا هو كل ما كان يعني العجوز العقربة في تلك اللحظة !

لم ترد الأم لعلمها أنها لن تخلص مع الحماة الساعة .. كما أن قلقها الشديد على ابنتها جعل عقلها يذهل وتنسي اقتراح الطبيب ، وتتجه بعقلها وقلبها وكل جوانحها لمتابعة عملية الولادة المتعسرة الشاقة .. كانت الحكيمة تبذل جهدها و" نعمة " الميتة تعبا ونزفا كذلك تفعل كل ما في وسعها وتدفع بأخر ما تبقي لديها من قوة .. دفعت ودفعت ودفعت وتبللت بالعرق ، وتغطي الفراش حولها بالدم وأخذوا يضعون حلل قديمة ، من التي يستخدمونها في تسخين المياه ، عند قدمي الفراش لتتلقي ما يسيل من دم غزير وينزلق من فوق المشمع العريض الذي فرشوه تحت الوالدة .. مرت لحظات عصيبة على الجميع حقا بينما كان " عبد الرحيم " يقف عن باب الشقة الخارجي مرتخيا مسنودا على الأب وقد هرم واعتراه العجز والكبر فجأة .. كان يسمع صراخ زوجته وأناتها من موضعه فينخسه الألم في صدره وبين ضلوعه .. لم يحدث من قبل أن تألم الزوج لآلام الوضع التي تعانيها زوجته ، لكنه تلك المرة يشعر أنه ألم مشترك بينهما .. يشعر أن " نعمة " لا تصرخ من وجع الولادة ولا حرها ، لكن صرخاتها التي تتردد الآن خافتة هامدة هي الصرخات التي كان يجب أن تطلقها يوم زواجه .. إنها تعبر عن الألم الذي حبسته بين ضلوعها طويلا وقد آن له أن ينتفض ويخرج .. بطريقة ما هو مسئول عما تعانيه الآن .. إنه متأكد من أنه لو لم يغدر بها ، لو لم يوجع قلبها ويأتيها بضرة كريهة ، لما تألمت ولما صرخت ولما تعذبت هكذا .. إنه وهم يشمله وهو يعلم أنه وهم .. لكنه عاجز عن دفعه وعاجز عن إبعاده عن عقله وعاجز عن فعل أي شيء في أي شيء !

لقد خرب الآن وصار حطاما .. بقية رجل كان يختال بنفسه منذ ساعات فإذا به الآن يبكي كطفل لا حول ولا قوة له !

بكي حزنا وألما لها وألما لنفسه .. وفي لحظة شعر بأن يكره الأخرى كراهية الموت .. يكره " ثريا " ، بل ويكره أخيها " بدوي " أيضا ، كراهيته لكل شيء يجب أن يكرهه في تلك الحياة .. ذرف الدموع ولحقت به بناته فالتففن حوله .. مد ذراعين متخاذلتين وضمهن كلهن إليه في حضن واحد وهو يبكي معهن .. أحاطت به البنات ، وأخذت ابنته " شيماء " تمسح له دموعه بطرف ثوبها .. قبل خدها ثم قبل خدود ورؤوس بناته ، وفي لحظة غمره نفس الشعور الذي غمر أمهن ، زوجته الحبيبة من قبل ، حين كانت بحاجة ليد حانية تمسح على قلبها .. حين احتاجت إلي أم فوجدت في بناتها أربع أمهات صغيرات يحطن بها ويقدمن لها من الحماية ما كان يجب عليها هي إن تقدمه لهن وتمنحهن إياه .. الآن يشعر " عبد الرحيم " أن بناته صرن أمهات له .. أمهات صغيرات ، لا تبلغ إحداهن نصف ساق أمه الحقيقية ، لكنهن أكثر حنانا وأكثر عطفا وأكثر قوة .. وأعظم شأنا من كل الأمهات البالغات في العالم !

ضمهن إليه بقوة في نفس اللحظة التي دوت فيها ، وبشكل مباغت تماما ، زغرودة قوية من الحجرة الداخلية حيث ترقد " نعمة " .. كانت أم " عبد الرحيم " هي التي تزغرد ، وتجاوبت معها خلال ثانية أصوات أخري تشاركها الزغاريد وإعلان الفرح .. ولم يكن لتلك الإشارات الصوتية سوي معني واحد كمعني هتاف النصر.. أنه أحرز الهدف المرجو أخيرا ورُزق بالولد !

نعم ..

نعم ..

نعم ..

لقد جاءت بالولد .. " نعمة " وضعت صبيا !

*****

جري كطير فكوا قيوده وخلوا بينه وبين باب القفص إلي حيث ترقد زوجته .. زوجته الأولي .. حبيبته .. أم بناته وأم ابنه .. أم الولد الآتي أخيرا وبعد طول شقاء وطول عذاب وطول تصبر وطول انتظار!

كانت الجدة تمسك بلفة من فوط بيضاء وتحملها إلي صدرها في حنان ولهفة .. صرخت من فرط لهفتها وفرحتها حين وقعت عيناها على ابنها المخضل وجهه بالدموع :

" واد واد واد .. يا واد جالك الواد ! "

لكن " عبد الرحيم " لم يري الولد ولم يلتفت إليه .. هرع لينظر إلي زوجته المنطرحة على الفراش ..

كانت " نعمة " ترقد وسط بحر من الدماء الذي يغطي الفراش من حولها والأرض من حول الفراش .. امتلأت الحلل التي جلبوها بالدم وترقرق دم الأم المسفوح جهدا ورهقا بين أحضان المعدن الغليظ .. كانت الحكيمة تتصرف بارتباك وجرت نحو " عبد الرحيم " صارخة وهي تدفع إليه بورقة منتزعة من غطاء علبة تبدو ورقية سمكية كعلبة دواء :

" هاتلنا الحقن دي يا خيي حالا .. على طول يا ولدي شالله يسعدك ويفرح قلبك ! "

كانت تحمل دائما علبة حقن (اكسوسوتين)* فارغة لتطلب إحضارها حين تشعر أن الأم الوالدة تنزف فوق المقدار المعقول ، لأنها لا تجيد نطق اسم الحقن اللاتيني وبالتأكيد لا تجيد كتابته .. لكن " عبد الرحيم " دفعها بعيدا .. لم يعد يري في مرآة الوجود سوي وجه زوجته الشاحب الميت المثير للرعب .. من نظرة واحدة إليها ، ثم إلي وجه حماته ، أدرك أن هناك شيء خطير يحدث .. والحقيقة أنه كان مخطئا في ذلك فالشيء الخطير كان قد حدث بالفعل وأنتهي الأمر!

الشيء الخطير حدث عندما تجاهلوا نصيحة الطبيب ، وحينما أعطي هو أذنيه لامرأتين موتورتين حاقدتين وغمط امرأته حقها .. وأستكثر علىها بضع مئات من الجنيهات .. الخطأ حدث حينما تهاون في حق نفسه وفي حق زوجته وحبيبته .. حينما رضخ مرة ومرة ومرة ، ووجد نفسه أخيرا لم يعد يعرف إلا الرضوخ .. حدث الخطأ إذن وأنتهي لكن ليست كل الأخطاء قابلة للإصلاح للأسف !

أرتمي فوق جسد " نعمة " يحدثها :

" " نعمة " .. " نعمة " حبيبتي يا مرت عمري .. مالك .. متخافيش أنا هوديكي للدكتور .. متخافيش هشيلك على كتفي وهوديكي للدكتور دلوقتي ! "

اعترضت أمه بخفوت :
" أنت بس هاتلها الحقن وهي هتبقي كويسة إن شاء .. "
تحول إلي أمه وصرخ فيها بقوة :
" أسكتي .. مسمعش نفسك ! "
بقوة أسد غاضب نهرها فانتهرت ، وسكتت ولم تحر كلمة زائدة .. لقد كانت بحاجة لمن يُسكتها منذ زمن طويل !

كانت أم " نعمة " قد انخرطت في بكاء مر.. بينما فتحت الزوجة عينين غائمتين لا تعرف إن كانت تري بهما العالم المحيط بها ، أم أنها تهيم بهما في عالم آخر لا يراه أحد ممن يحيطون بها .. بصوت منخفض للغاية همست الوالدة المتألمة :

" جبتلك الواد .. سميه " محمود " .. عشان نبقي حامدين ربنا عليه ! "

سكتت بعد ذلك .. كانت عيناها لا تزالان تتحركان حركة عشوائية وتدوران هنا وهناك، لكنها لم تكن مدركة لما يدور حولها ، ولبحر الدم الذي ما أنفك ينفجر من داخلها .. لقد وهن الرحم وفشل في الانقباض .. وأخفق في السيطرة على

الأوعية الدموية فأنفجر الدم الحبيس في الجسد متسربا إلي الخارج وكأنه مداد محبرة مضي عليه سنين في محبسه .. وقد آن أوان خروجه ليسيل ويكتب قصة جديدة أو ينهي قصة قديمة !

صرخ " عبد الرحيم " مناديا أحد أخوته آمرا إياه بأن يسرع ليستوقف سيارة أو توكتوك ، أو أي وسيلة ينقلون بها المرأة التي تنزف بغزارة إلي المستشفي أو عيادة طبيب .. أسرع الأخ الأصغر بتنفيذ الأمر ، بينما وضع الزوج ذراعيه تحت جذع زوجته وقدميها ، وحملها كخرقة مبللة خفيفة الوزن ،غير مبال بكل الدم الذي علق به ولطخ ثيابه على الفور .. حملها وهي لا تكاد تعي ولا تحس بما يدور حولها وأتجه بها نحو السلم .. هرعت البنات الأربع يلحقن بأمهن وأبيهن صارخات والدموع تتقاطر على أوجههن البريئة بحورا من نزق الحزن وطيشه ، حين يصيب قلوب غضة لا ينبغي لها أن تعرف معني الحزن أو أن تجربه .. لكن خالة أمهن واحدي العمات أسرعن بمنع البنات وحجزهن بالقوة .. وهن يصرخن وينادين أمهن ويحاولن الإفلات بكل طريقة وكل وسيلة تستطيعها أجسامهن الغضة الصغيرة ..

جرت والدة " نعمة " خلف موكب ابنتها ، وتبعتها الحماة على بعد خطوتين .. وهي تشعر بأن هناك مصيبة قريبة ، قريبة جدا ، ستحدث مع أنها حدثت بالفعل وتحت أنظارها .. لكن منذ متى يبصر العميان أو يحسنون النظر؟!

بدأ " عبد الرحيم " يهبط السلم بتؤدة وتأني ودم زوجته يسيل على ذراعه الذي يسند به أسفل ظهرها .. كان يتمزق بين رغبته في الإسراع لنجدتها وبين حرصه على عدم تحريك جسدها الواهن بقوة لا تتحملها في تلك الحالة المزرية .. عند منتصف السلم تماما بدأت الزوجة تحتضر!

كانت قد فقدت ما قياسه ٣٠٠٠ملي من دمها ، وصارت على أعتاب الموت نتيجة فقدان الدم الضخم .. لم يسرع أحد بنجدتها ، لم تعرف الحكيمة ، التي ليست إلا قابلة مدربة في نهاية الأمر ، كيف تتدارك الأمر أو كيف تسرع بنجدتها .. شُغلوا عنها بالولد الذي ألهاهم وتلهوا به ، تاركين من أتت به إلي الدنيا تقضي وتنزف حتى الموت .. أصبح إنقاذها الآن أمرا يعتمد على شيء واحد .. هل لها بقية من عمر؟!

عند منتصف السلم اتضحت الإجابة وجاءت إليه تهرع ولكنها لا تبشر ولا تزف .. كانت رأس " نعمة " مائلة في حضن زوجها الذي ضمها إليه بحنان لم يضمها به منذ سنوات وسنوات ، بل منذ ليلة زفافهما ، حيث قرر أن يمنحها الأمان والشعور بالطمأنينة معه قبل أن يطلب منها هي أن تمنحه شيئا .. منحها ومنحته ، وكان بالإمكان أن يدوم هذا للأبد .. لولا الولد والتقاليد والانتظار والتصبر والتشكي وقهر النساء ، وغلبة الضعف على الرجل حين يحب ويتمزق بين من يحب وما يحب ويشتهي .. كان بالإمكان أن يستمر هذا إلي الأبد .. أبده هو وأبدها هي لكن أبدها أسرع للأسف وأكثر قسوة !

حين عد تسعة درجات نزولا ، وما عد ولا كان فيه عقل يعد ، توقف تنفسها تماما .. كان يشعر بنفسها الواهن المتخاذل يدخل ويخرج من صدرها ، ويطمئن إلي أنها لا تزال حية .. لا تزال تقاوم لكن الدم المسفوح كان أكثر من قوتها وأكبر من مقاومتها !

نزفت حتى صفي دمها فأسلمت الروح بين ذراعيه وفي حضنه .. شعر برأسها تخفق في حضنه خفقة صغيرة ثم شهقت ، وتدلي رأسها محويا في حضنه ساكنا صامتا ولا نفس يتردد في صدرها .. شعر بذلك فتوقف .. باغتته الضربة على مؤخرة عنقه فتوقف مجبرا !

لو أن أحدا فاجأه في السوق أو الشارع وضربه على مؤخر رأسه ، على قفاه .. لتوقف فورا واستدار إليه ورد إليه ضربته عشرا .. لكن كيف السبيل إلي رد ضربة الموت !

هل له وجه تصفعه عليه .. أله جلد تمزقه .. أله بطن أو صدر تركله فيه ؟! لا شيء من هذا ..

إنه بجبروته وقوته وخطفه المسروق لكل شيء لا يقاوم ولا يؤخذ منه ولا يرد عليه !

تهاوي الآن من الداخل .. آن له أن يتهاوي الآن ويسقط .. فقد صمد أكثر مما يجب وأكثر مما يحتمل .. تهاوي وجلس على درجة السلم العاشرة يرمق ما أمامه بذهول .. ولم يكن أمامه شيء يُرمق أو ينُظر إليه .. محض مساحة بيضاء لا ألوان فيها .. أفق معتم مخطط بالأبيض ولا خلفية له .. على درجة السلم العاشرة جلس واضعا إياها في حجره وعلى ساقيه غير مدرك أنه وبعملية طرح بسيط .. بإنقاص واحد كان يمكنه أن يدركها وهي حية !

بناقص واحد كان يمكن أن يعتذر لها ويعلن ندمه .. وكانت ستسمعه رغم الحجاب الذي توارت خلفه وغلفها وأحاطها بغلالة من كتمان .. بناقص واحد كان يمكن أن يجبر كسرها بكلمة تطيب خاطرها وتعرفها أنه لم يحب امرأة في حياتها سواها .. وأن التي تجلس فوق ، مذهولة مرعوبة فاقدة التوازن ، ليست زوجة ولا حبيبة .. إنما هي ماعون !

هي الماعون الذي أتي به وليست " نعمة " .. فلم يتزوج " نعمة " حين تزوجها لتكون معونا له .. أبدا !

تزوجها لأنه أرادها .. ولأنها أحبها .. ولأنها المرأة التي أشار نحوها قلبه وأشارت عليها جوارحه !

لكن الأخرى هي (الماعون) .. آتي بها لتحمل وتلد له الولد .. ووالله لو أنها فعلت ثم خيرها بين أن تبقي بلا قيمة ، أو أن تذهب تاركة له الولد واختارت الثانية ، لطلقها وأبعدها دون تردد ودون ندم !

والله لما كان لها في قلبه ذرة حب ولا لها عنده ذرة مودة ولا رحمة !

فأي رحمة ترجي وراء من أتت لتقوم بمهمة الحمل والإنجاب كأنها أنبوب اصطناعي ؟!

لا والله كان لديه الكثير ليقوله والكثير ليطيب خاطرها ويداوي جرح قلبها به .. ولكن ، ولأنه تلميذ خائب جمع بدلا من أن يطرح ، وفاته واحد لا غير .. فقد فاتته فرصة أن يقول لها كل ذلك إلي الأبد !

جلس بها على حجره ومن خلفه أتت حماته الوالهة على ابنتها ، وأمه التي يعتصرها القلق اعتصارا وينهشها الخوف نهشا .. جاءتا من خلفه تستحثانه على السير بينما حضر أخيه جريا من الخارج يبشره بأنه أحضر له سيارة بيجو تخص أحد أصدقائه لينقلوا المرأة التي تنزف بها .. لكن ما من فائدة أصبحت ترجي !

صرخت فيه الحماة بعد أن فقدت كل صبر لديها وكل طول بال على المكاره : " ما تقوم يا ولدي .. هتقعد بيها كده لما دمها يتصفي قدام عنينا ! " بدأ يبكي الآن .. سال بحر مفاجئ ، كأنه سيل عرم أنفجر من خلف حطام سد مدمر، من الدموع على وجهه وهتف بصوت مبحوح :

" ماتت ! "

ضربت الأم على صدرها وأحتبس الكلام في حلقها ، بينما أسود وجه أمه هو وتقلصت ملامحها في ذعر.. قال ثانية وهو يضم زوجته الميتة إليه وكأنه يخشي أن ينتزعها أحد من بين يديه :

" بتك ماتت .. " نعمة " ماتت ! "

بدم بارد وقلب أكثر برودا أستقبل العالم الفجر .. ودوي صوت الآذان من المسجد القريب ليعلن أن العالم يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. وبدا كأن صوت الآذان الشجي يستدعي الله نفسه ليشهد على ما يجري من خلقه وما يجري عليهم .. لكن الله ليس بحاجة إلي استدعاء أو طلب .. فالله ومنذ البدء كان يشهد أيضا ولا زال يشهد .. فهو الشاهد وهو الشهود نفسه !

(١١)

من ينتظرون لكل قصة نهاية يتجاهلون حقيقة مهمة واضحة وبسيطة .. أنه ما من شيء له نهاية في هذا الكون !

كل شيء فيه لا نهائي .. يبدأ ولا ينتهي .. فالموت ليس نهاية ولا الولادة ولا الحياة نهايات !

كل شيء في الكون يدور حول نفسه ليبدأ من جديد .. والقصة التي تنتهي تكتب سطر بداية لقصة جديدة تنبع من ذيلها .. حتى الموت ليس نهاية مناسبة لأي قصة !

فهناك ميت لكن هناك أحياء يتركهم من خلفهم هم على كل حال جزء منه وهو جزء منهم .. حتى الميت نفسه تنتظره حياة أخري خلف القبر ، ليس مهما أن تعرف عنها شيئا أو لا تعرف .. لكن الروح الصامدة الراسخة تقول لك بوضوح منذ لحظة صرخة الوليد بوجهك حين يلج الدنيا برأسه ، أو بقدميه أحيانا (أنا لا أموت .. أنا خالد وبعد أن أنتهي أبدأ من جديد)

بدايات جديدة وليست نهايات هي إذن ..

*****

" سناء "

مرت عليها أوقات صعبة وأيام طويلة مؤلمة بعد وفاة البنت القصيرة الصغيرة " إسراء " مدهوسة تحت الأقدام .. لم يكن موت الفتاة هو سبب ألمها المبرح حقيقة بل ما جري بعد حادث الموت .. فما من أحد عوقب على ذلك الخطأ الجسيم الذي نتج عنه موت طفلة صغيرة ضعيفة البنيان غضة الإهاب !

فالسيد مدير المدرسة تلقي مساعدة وحماية كاملة من المسئولين بالإدارة التعليمية ، التي تتبعها المدرسة ، وأنسلت يده من المسئولية بشهادة السيد الزائر الكبير التي جاءت في صالحه تماما .. شهد الموظف التعليمي الكبير بأن السيد المدير ، حفظ الله عليه كرشه ولغده السمين ، كان جالسا برفقته في المكتب يراجعان دفاتر وأوراقا هامة ، وأنه لا شأن له بقرار إنزال جميع الطلاب ، صغارا وكبارا ، كلهم من سلم واحد مما نجم عنه موت الطفلة التي لها ظروف صحية خاصة .. ألقيت الكرة في ملعب من كانوا يتولون مسئولية الإشراف اليومي في ذلك اليوم المشئوم .. فسرعان ما ركلوها بعيدا ونفضوا أيديهم من المسئولية ومن الجريمة ببراعة متناهية .. ببساطة تم التلاعب في كشف الإشراف اليومي ، وإثبات أسماء ثلاثة مدرسين تغيبوا عن المدرسة يومئذ كمشرفين على المدرسة في يوم الأحد ، وقيل أن الثلاثة تغيبوا فقام بقية المدرسين بواجب الإشراف اليومي متطوعين .. وعندما سؤل عن اسم الشخص الذي قرر أن يوجه الطلاب كلهم لاستخدام سلم واحد للنزول لم يجد المحققين من يجيبهم على هذا السؤال ورميت المسئولية على هذا وذاك لكن ما من ورقة رسمية تثبت من هو المسئول عن هذا القرار الغبي !

المدرسون كلهم أتحدوا ووقفوا صفا يدافعون عن أنفسهم .. كل واحد منهم وجد أن إفلات الآخرين هو ضمان لإفلاته هو من المسئولية ومن العقاب ، فتضامنوا وتآزروا معا ، ربما لأول وآخر مرة في تاريخ مزاملتهم المهنية .. أختفي الحقد المتبادل بين مدرسي المادة الواحدة ، وتبخرت المنافسة على الرؤوس وعلى الفوز بكعكة الدروس الخصوصية .. ووضع المدرسون ، خاصة المدرسون الأوائل الذين كانوا لا يكفون عن تبادل الشكاوي الكيدية ، والضربات القذرة تحت الحزام ، وبسببهم أصبحت المدرسة مرتعا للنيابة الإدارية ومحققيها ، خلافاتهم في جيوبهم ، فكل هذا نُسي الآن وتبدد .. ولم تبق سوي المسئولية الخطرة التي تهددهم جميعا .. فشل المحققون تماما في التوصل إلي من أتخذ قرار استخدام السلم الواحد ، كما فشلوا في معرفة من الذي بادر بإنزال طلاب فصول الصف السادس ، ثم طلاب الإعدادي قبل موعدهم بأكثر من ربع ساعة ، ليسقطوا فوق الجميع ويدهسوا بأقدامهم النزقة الغليظة عنق وجسد فتاة قزمة مسكينة لا حول لها ولا قوة !

طارت الكرة حول الملعب وما من أحد تمكن من اللحاق أو الإمساك بها .. وطارت روح " إسراء " الصغيرة فوقهم كلهم لتري كيف ضاعت دماؤها وضاعت روحها هباء ، في وطن أرخص ما فيه هو دماء الناس وأرواحهم !

حتى " سناء " لاذت بالصمت وتمسكت به .. وجدت نفسها في محيط معادي ، مهددة بما هو أكثر من فقدان وظيفتها ، إن هي تجرأت وفتحت فمها ولفظت الاسم الذي تعرفه جيدا .. اسم المدرس الأول الغضنفر الذي أتخذ قرار نزول الطلاب كلهم من السلم الآخر ليحافظ على شكل المدرسة ونظافة السلم المجاور لمكتب المدير أثناء وجود السيد المحترم الزائر الكبير!

كان اسمه معروفا للجميع لكنهم كانوا جميعا أيضا يؤمنون بمبدأ وعقيدة واحدة :

" وهو الأستاذ " محمد " ذنبه أيه ؟! ده عمرها يا بت الناس والأعمار بيد الله وما ياخد الروح إلا اللي خالقها ! "

فلسفة قبيحة مبنية على أكثر المثل سموا وجمالا في الكون .. وما دام الله هو خالق الروح وهو وحده الذي يأخذها ، فبأي حق تدهسون ما خلقه الله .. وبأي ملة تمزقون بديع صنعه وتفرمونه وتدوسونه بأقدام غبية غليظة ؟!

لا جواب سيأتيك من أحدهم .. فلا تتعب نفسك بالسؤال !

لقد تربوا على ألا يسألوا .. وربوا أولادهم وتلاميذهم على نفس المبدأ الصفيق .. فخرج الجميع يؤمنون بأن السؤال عيب وحرام !

بكت " سناء " حتى شبعت بكاء وحزنا .. أعطوها أجازة مرضية لمدة عشرة أيام عادت بعدها وقد تبدلت تبدلا كاملا .. وكأن امرأة جديدة حلت محل الأولي وأزاحتها وألقتها أرضا وهشمت رأسها !

امرأتان تتنازعان جسدا واحدا وروحين .. روح قديمة طلقة تحب الحياة وتعتقد أنه يمكنها أن تفعل الكثير ، روح تؤمن أنه بإمكانها أن تغير وتصلح الخطأ وتعالج الجرثومة المستفحلة ولو حتى بالبتر والاستئصال .. وروح جديدة كسولة متثائبة بلا عزم ولا شيء تؤمن به .. تري المدرسة من حولها مثالا على الفساد والإهمال وروح الجشع والتفاهة التي كُتب علها أن تحيا فيها إلي الأبد .. إلي الأبد يتوجب عليها أن تحيا هنا وتتحمل ما يفرضه مجتمع غير سوي .. مجتمع أعمي يتظاهر بأنه يري كل شيء ، ويعرف كل شيء بل ويعير الآخرين بعماهم .. ويقترح عليهم أن يصدر إليهم خبراته المجيدة وإنجازاته الفذة !

تنازعتها كلا الروحين فتمزقت بينهما .. عادت وقد قررت أن تفعل مثلما يفعل الناس ، فما دامت في روما فيجب عليها أن تفعل مثلما يفعل الرومان ، وإذا كان الإهمال وانعدام الضمير قانون سائد هنا فليكن هو ذاته قانونها ونبراسها .. فقد تمطي السأم في روحها وأنتشر الضجر في خلاياها !

وعلام تخوض كل تلك المعركة وحدها .. وضد من ؟!

ضد نظام راسخ قديم قدم الوباء ومنتشر انتشار الطاعون ؟!

ما جدوى أن تدخل معركة خاسرة وأنت تعرف جيدا ، ومن قبل أن تخضها ، أنها كذلك ؟!

عادت بدفاتر تحضير مضبوطة وكراسات منسقة ومراعاة كاملة لتوزيعة المنهج .. لكن بلا روح تعمل بها ولا خفقة قلب متوثب طموح متأمل !

مات شيء بداخلها حين وضعت الطفلة المزرقة الميتة على حجرها .. ودفنت روحها حين وجدت الكل وقد أفلتوا ووجدت نفسها تنعي بنتا لم يعد أحد يذكرها !

لقد ذهبت لتعزي أسرتها فيها ، فوجدت الأم تبكي بحرقة وتعدد على بنتها المغدورة القتيلة.. بينما الجدة للأب تنهرها ، وتقول لها بلا أثر لدمعة في زاوية عينها التي تستحق رصاصة تندب فيها :

" ما خلاص يا بت الناس ! يعني مات الهايج ٧٠ دي هبابة بت وكتر الله من البنات ! "

هبابة بت ؟!

أنتهي الأمر إذن ؟!

لا ليس بعد .. لأن " سناء " القديمة ما لبثت تحاول العودة من جديد .. فكم تتحرك الروح القديمة الحقيقية تحت الجلد الثخين الجديد المزيف !

تشعر أحيانا بدهشة مما وصلت إليه .. تحس بذهول لكونها أصبحت هكذا .. تتمطى روحها الحقيقية وتنتعش ، فتجد نفسها تأخذ حصصا إضافية من زملائها لتعلم الطلاب في فصلها كلمات جديدة أو تقرأ عليهم قصة أو تشرح لهم درسا تجده أصعب مما يستطيعون أن يهضموا ، وأكبر مما تستطيع عقولهم أن تستوعبه .. لكن الأولاد أنفسهم هم الذين أصبحوا يتهربون من الأعباء الإضافية !

انسلوا في إثر بعضهم مبتعدين متعللين بكل علة وكل حجة تخطر لهم على بال .. إنهم يريدون حصص ألعاب .. يريدون أن يتمتعوا بفسحتهم .. لا يريدون أشياء إضافية !

ليسوا بحاجة إلي ما تقدمه لهم مجانا فهم يحصلون عليه مثمنا بدقة ، ويدفعون مقابله في حصص الدروس الخصوصية التي ارتبطوا كلهم ، أو أغلبهم ، بها رغم حداثة سنهم وصغر أعمارهم الدراسية .. لا يريدون الشيء المجاني ففي عرفهم كل شيء مجاني ، حتى وإن كان المثل يحثهم على الإكثار منه ، إلا أنهم لا يرونه إلا شيئا رخيصا تافها معدوم القيمة !

تسللوا من بين يديها ووجدت نفسها تقبض على الهواء .. فعادت الروح الجديدة تؤنبها وتشمت بها :

" وأنت مال أهلك .. ما إن شالله عنهم ما أتعلموا .. روحي روحي أقعدي مع زمايلك في أوضة المدرسات وأشربيلك كوباية شاي .. بلا قلبة دماغ ! "

بلا نقاش أطاعت " سناء " النصيحة .. ولملمت كتبها وألوانها وكراسات التلوين وذهبت إلي حيث يجب أن تذهب كل مدرسة في تلك المخروبة المسماة مدرسة .. غرفة المدرسات لتثرثر مثلما يثرثرن وتشرب الشاي مثلما يشربن .. وتتكلم في كل تافهة وسخيفة وبالية مثلما يتكلمن !

لكنها أحيانا وهي في منتصف الطريق تستوقفها أداة نداء خافتة .. ثمة من يناديها ويستحثها على العودة .. لكن العودة باهظة الثمن هنا .. والبقاء على حرف السيف لا يُجني منه إلا القلق وحزات الجروح !

*****

لم تمت " مروة " بل نجت !

أنقذها حسن حظها وتصاريف القدر ولحظة تريث من الموت ، وربما لا مبالاة بها أو عدم رغبة في ضمها إلي صفوف رعاياه .. سقطت مباشرة كقطعة حجر ، ولأن موعدها لم يحن بها ولا تزال لها بقية من عمر تحياها ، فقد نفذت بالقرب من أسلاك الكهرباء المعلقة أسفل شرفتي منزلها وعبرت بجانبها دون أن تصب بسوء .. ثم عندما قاربت الوصول إلي الأرض وجدت نفسها تنقلب لتعتدل في الحقيقة .. كان تهبط برأسها لكنها وجدت نفسها تتشقلب كبهلوان محترف لتهبط على قدميها .. اهتزت واضطربت وانعدم وزنها وخف وعيها وتلاشي .. وما إن ارتطمت قدماها بالأرض حتى داخت بشدة وأنتابها دوار رهيب فسقطت على ظهرها وعلى مؤخر رأسها محدثة صوتا مدويا .. جذب انتباه جارتهم التي كانت تقف لتجمع غسيلا جافا مضي على تعليقه فوق حبال الغسيل يومين .. شاهدت سقوط البنت من منظور جانبي وهي تهم بالعودة إلي داخل المنزل ، فاعتقدت أولا أنها قطعة ملابس سقطت من شرفة منزل جارهم أبو " عمر " ..

لكن صوت الارتطام جعلها تنتبه وتفتح عينيها وتهرع لتري الأمر من منظور كامل .. فرأت البنت ذات الستة عشر ربيعا ساقطة ممددة على بعد مترين من باب منزلها ففهمت كل شيء ، وأخذت تصيح وتصرخ منادية أبويها وقد قر في ذهنها أن البنت قد قضت وانتهت .. هرع الأب وخلفه الأم التي تصيح وتدفع زوجها لتري ابنتها مسجاة أمامها وكمية دماء بدت لها مخيفة تنداح أسفل مؤخر رأسها .. رمت بنفسها فوق ابنتها واندلعت صرخاتها القوية فأسرعت نسوة الجيران وانفتحن صارخات مشاركات في الإعلان عن المأساة غير الضرورية أبدا التي حدثت الآن !

فقد الأب توازنه ، وأحس أنه يكاد يفقد الوعي وعلى صوت الصراخ جاء أخوته وأبنائهم .. وخلال لحظات كانت " مروة " ممددة على حجري أمها وحجر زوجة عمها " فايق " متلاصقتين في المقعد الخلفي من سيارة أبيها .. بينما عمها نفسه يقود السيارة بسرعة جنونية إلي مستشفي المركز ، وبجواره أبيها مكفهر الوجه صامت تماما .. وقد أصابته الصدمة الفادحة بالخرس وما يشبه الشلل العقلي الكامل حتى أنه لم يستطع أن يتذكر كيف يقود سيارة !

وصلوا المستشفي ودخلوا والمرأتان تصرخان بدون لحظة هدنة .. وهرع أطباء الاستقبال وعدد من الممرضات والتمورجية ، الذين أبدوا نشاطا فائقا حين وقعت عيونهم على السيارة الفاخرة ، التي أقلت البنت وذويها إلي المستشفي ، وأدركوا أنهم أمام زبائن ثقلاء الجيوب دافئين بالنقود .. حُملت البنت فورا إلي حيث جري تنظيف جرح مؤخر رأسها ثم حملوها لعمل أشعة على رأسها للتأكد من عدم وجود كسور بالجمجمة .. وبنقود أبيها وبشخط عمها وعصبيته نشطوا أكثر وعملوا لها أشعة كاملة على كل أجزاء جسدها .. وخلال ساعة كانوا قد تيقنوا من النتيجة المطمئنة لقلوب الجميع .. البنت بخير ، لا كسور ، ولا إصابات خطرة بها ، حتى الجرح الذي كان بسيطا نتج عن ارتطامها بأحجار

الطريق وزلطه لا أكثر ، ونظفوه وطهروه بعناية ، ثم ضمدوه .. وحملوها إلي غرفة خاصة بها .. بعد أن نفحهم عمها بخمس ورقات من ذات المائة ليضمن لابنة أخيه معاملة خاصة !

كانت مصابة بصدمة عصبية قوية لكنها بخير ليست ميتة ولا معرضة للموت .. وكان بالإمكان أن تخرج في نفس اليوم وتعود إلي قريتها ومنزلها ، لكن الأب والعم أصروا على أن تبقي يومين تحت رعاية الأطباء .. وبالنقود ضمنوا لها كل رعاية ممكنة وفائقة واطمئنوا إلي أن ابنتهم في أيد أمينة .. طالما ملأتها بالنقود !

خلال اليومين اللذين قضتهما هناك كفت " مروة " تماما عن الإحساس بشيء أو التفكير في شيء .. عندما فتحت عيناها لأول مرة حسبت نفسها ماتت وذهبت إلي الجنة !

ولكن أي جنة لمنتحرة قتلت نفسها ؟!

حين ذاك اعتراها الرعب وظنت أنها ماتت حقا لكنها ذهبت إلي جهنم .. وساءت الصدف السيئة أن تقترب منها في تلك اللحظة ممرضة ضخمة غريبة السحنة ، وما إن تبينت ملامحها بالقرب من وجهها ، حتى صرخت صرخة مدوية رنت في المستشفي من أولها إلي آخرها .. كانت الأم في الحمام تقضي حاجتها كارهة ، فهي لا تريد ترك ابنتها حتى لمجرد لحظة أو حتى للقيام بنشاط طبيعي لا تستطيع منعه أو إيقافه ، ورافقتها أختها ، التي حلت محل زوجة عمها " فايق " في البيات معهم في المستشفي الليلة الماضية ، لتمسك لها باب الحمام .. فحمامات المستشفي بلا أبواب كخلق الله ، لها أرتجة ومزاليج تغلق بها .. سمعت الأم والخالة الصرخة فأسرعتا عائدتين لتجدا " مروة " منزوية في ركن السرير مغطية رأسها وجسدها بالملاءة وهي تصرخ من تحتها بجنون :

" مش عايزة أروح النار.. مش عايزة أروح النار! "

أسرعت إليها المرأتان وأمسكت أمها بالملاءة تنزعها من فوق وجه ابنتها .. بينما قالت الخالة التي تناولت كوب ماء وحملته وهي تقول لأمها متوترة :

" هطس ٧١ وشها بشوية مية لا تتلبس ٧٢ ! "

وبالفعل وضعت الخالة كمية ماء في كف يدها وألقتهم بوجه " مروة " فانتفضت وارتعشت وكفت عن الصراخ .. كانت تلك أول لحظة تدرك فيها البنت أنها لا تزال على قيد الحياة !

لم تمت إذن ؟!

لم تمت ولا زالت حية ترزق ولا تزال تحت نير أبيها .. لم ينقذها منه موت ولا جنون ولا انتحار!

لكن الأب في الحقيقة كان قد تغير كثيرا بعد تلك التجربة السريعة المريرة الصعبة .. بدأ يراجع نفسه !

ليس عن فهم أو ندم أو مصارحة النفس بل عن طريق حساب الخسائر والمكاسب والآلة الحاسبة الجافة .. فقد فكر مع نفسه قليلا ، حين كف قلبه عن الارتجاف واللهاث في صدره أخيرا . عندما أخبروه مبشرين مهنئين أن ابنته لا تزال حية وأنها بخير وأنها ناجية بإذن الله ، بدأ ساعتها يفكر .. ما الذي سيستفيده من إجبار ابنته على ما تكره ؟!

من الواضح أنه غير قادر على إرغامها على أن تدرس الطب أو تتخرج دكتورة كما يريد ويشتهي .. يمضه هذا ويتعبه لكن هل الحل أن يتركها تقتل نفسها ويفقدها ؟!

لم يكن الأب قاسيا إلي تلك الدرجة .. بل هو فقط رجل ضيق الأفق قليل الفهم يؤمن بأن المهن العليا ، كما يفهمها ، ستمنحه وتمنح ابنته وتمنح أسرته كلها مزيدا من العلى والسمو والارتفاع الطبقي والمال والسطوة والعزة .. لكن ما العمل إن كانت ابنته لا تفهمه ولا تستوعب ما يريده ويأمله لها ومن أجلها !

فليخلي سبيلها إذن ويتركها تفعل ما تشاء لعله يجنب نفسه ، ويجنب زوجته المسكينة ، لحظات أخري من الألم الموجع والقلق المعتصر الذي شاهده بعينيه منذ أن وقعت أنظاره على ابنته ممددة على الأرض وبقعة الدم أسفل رأسها .. فلتفعل ما تشاء إذن !

يأسا ومللا وليس عقلا وتفهما وتعقلا .. بدأ يغمرها بحنان جاف وهي راقدة في المستشفي مصدومة مذعورة .. لم يكن يحبذ رؤية وجهها في الحقيقة ، على الأقل حتى ينسي ما جلبته له من قلق وألم وهم ، لكنه لم يشأ أن يقال أنه أب قاسي فظ بلا قلب ولا مشاعر .. من ناحيتها كانت " مروة " تخافه وتشعر بأن حنيته عليها كحنان الإبروهي تخيط الجروح !

خاط جرحها بإبرته غير المسممة ، وخرجت معه ومع أمها من المستشفي على حال طيبة .. كانت الأستاذة " ماريان " حاضرة في تلك الأيام بقوة وبشكل دائم .. في الحقيقة إنها لم تكد تفارق " مروة " منذ أن سمعت بخبر محاولة الانتحار الفاشلة المخيف .. هرعت إلي المستشفي ، ولم تنتظر حتى يعود زوجها من عمله ويقلها إلي المستشفي في المركز . فاتصلت بابن أختها دكتور " وجيه " ، الذي كان يزور عائلته في القرية ، ورجته أن يأتي فورا ويذهب معها لتطمئن على " مروة " .. كان " وجيه " هو الذي نجح في تغيير فكر والد " مروة " بذكائه ولباقته وعلمه الغزير وحسن منطقه !

حدث الأب برفق ، بعد أن عرفه بنفسه وبمركزه الوظيفي ، ثم دعاه إلي جلسة حديث هادئة بين رجلين يستطيع كلا منهما أن يفهم الآخر جيدا ويدرك ما الذي يقصده بالضبط .. سأله أولا لماذا يريد أن تكون ابنته طبيبة ؟!

أرتج على الأب للحظة ثم أجاب بغير كبير ثقة :

" عشان تكون بني أدمة محترمة والناس كلها تشاور عليها وتقول الدكتور " مروة " بنت فلان أهي ! "

ضحك " وجيه " في باطنه وأدرك أي نوعية من الناس ينتمي إليها هذا الأب .. ليس غريب عليه هذا النمط ، فلديه في عائلته أشكال كهذه وقد تعامل معهم شخصيا .. بل كاد يكون ضحية لهم ك " مروة " تماما !

إنه يتفهمهم تماما ويعطف على عقولهم ، ويحس بأنهم مخلصين حقا فيما يقولونه ، ويعتقدون بصدق ما يؤمنون به تمام التصديق .. إنهم ذوي الاتجاه الواحد .. ذوي التفكير المنمط والفكر المحدد الذي يسير في خط مستقيم لا يري ، ولا يهتم ، بما يقع على يمينه أو شماله !

فالدنيا في نظرهم خط واحد .. من التعليم والوظائف والزواج ، والمركز في نظرهم مرتبط بالوظيفة وبالمركز التعليمي .. لا أفق ولا خيال لديهم ولا يعترفون بأن ثمة أشياء أخري في العالم تستحق أن يعيش الإنسان من أجلها ويقاتل حتى الوصول إليها !

قد يسمعون بأسماء كُتاب وشعراء وفنانين مشاهير صنعوا اسما وصنعوا لأنفسهم ولأسمائهم تلك نفوذا ومكانة ، مكانة بأقلامهم وفرشهم وألوانهم وأصواتهم وأخيلتهم الجامحة ومواهبهم التي بلا حدود .. لا ريب أنهم ، أو كثير منهم ، درسوا وتعلموا وكانوا أولادا نابهين أذكياء ومجتهدين ومتفوقين كذلك ،

لكنهم امتلكوا شيئا آخر.. شيئا لا يقدره أولئك الناس ولا يرغبون ، ولا يحبون ، أن يعترفوا به .. إنه الموهبة والمنحة الإلهية غير المنكورة التي تسري في دمائهم دون سواهم !

أولئك الناس لا يعترفون بالموهبة ولا يؤمنون بها .. إنها تتجاوز خط أفقهم وتسمو فوقه ، إنها تعلو على الفوقية التي اعتادوا أن يوقفوا أنظارهم عندها ويمنعوها من التطلع لما فوقها ، لأنهم يؤمنون جد الإيمان بأن (اللي يبص لفوق يتعب) .. ولذلك لا يعترفون بذلك ولا يصدعون به !

وحتى إن صادفوا واحدا من هذا النمط الموهوب كان رد فعلهم هو تجاهله أو الإدعاء بأنهم لا يرونه .. هذا إذا لم يعمدوا إلي تسفيه أحلامه وكسر مجاديفه !

كانت " مروة " من الصنف الموهوب الرقيق ، الذي يملك شيئا مختلفا ، وكان أبيها على النقيض ، من المعسكر الآخر.. من عشاق الخط المستقيم ومن كارهي الخيال وجاحدي نعمة الموهبة !

كيف يعترف بأن له ابنة شاعرة موهوبة ؟!

لو كانت ولدا ربما كان سيخلي سبيلها ، لكنها بنت .. والبنت لا يجب أن تخرج عن الخط المرسوم لها ولتحمد الله في كل صلاة أن لها أبا يضع في يديها القيود ويغلها بالسلاسل ليحميها من همزات الشيطان الذي يقبع في عقلها !

لكنها ألقت بنفسها من أعلى البناء .. اختارت الموت على أن تحيا حياة لا تريدها ولا تقدر على دفع تكاليفها !

أفهمه " وجيه " أن ابنته لا ترتكب خطأ ، ولا تقترف جرما .. ليس ذنبها أنها موهوبة حتى النخاع ، وليس ذنبها أنها تكره نوع الدراسة التي أراد أن يفرضه عليها .. ولا ذنبها أن لقب الطبيبة لا يستهويها ولا يثير خيالها !

خلوا سبيلها إذن يا قوم واتركوها ترعي في أرض الله ما دامت لا تأتي جرما .. ولا تفعل ما يسيء إليكم ولا إلي اسم عائلتها وشرف أبيها وكرامته !

أقنع الرجل الرجل فنكس الأب رأسه .. شعر بقليل من الندم لكنه لا زال يعتقد أنه على حق وأنه في النهاية هو الأصوب والأكثر حكمة والأحق بأن يتبع !

وعندما غادرت " مروة " المستشفي برفقة الأبوين والأقارب، ومعها " ماريان " ، التي عاهدتها على أن تبقي بجوارها دائما ، كان لديها صك خضوع رزين من الأب .. سيتركها تختار الدراسة التي تحبها ولن يفرض عليها شيئا .. مقابل ألا تفعل هي بدورها شيئا إلا بعد استشارته وموافقته ورضاه !

وعدها " وجيه " بأن يساعدها على نشر قصصها وقصائدها في مجلات أدبية صغيرة .. وأعطاها أملا جديدا ومزق سترا فوق رأسها ، سامحا للفجر بأن يشرق أخيرا على قلبها .. سيرعي موهبتها وسيعلمها كيف تصقلها وتزيدها وتجمل المأوي الذي آواها الله إليه وتحسنه !

هل ضاع عام من عمرها سدي ؟!

هل تعود لتعيد السنة بعد أن تغير مسار دراستها إلي القسم الأدبي .. هل تبقي ، كما هي ، في القسم العلمي وتجتهد قدر طاقتها لتحصل على مجموع يؤهلها لدخول كلية الآداب أو التربية ؟!

هناك طرق متعددة أمامها .. والأب لا يقف بوسط أي منها معترضا .. لكنه يقف في نهاياتها كلها !

فهو لا زال مقتنعا بأن ابنته لم تفعل أكثر من أنها تركت القمر الواضح المنير ، لتمسك بنجمة صغيرة تافهة . يعلم الله إن كانت ستضيء لها حياتها أم ستظلم عليها ليلها ونهارها .. والأب معذور في تصوراته فهو مما نالوا تعليما مجانيا ، ولا

يعرف أن النجمة الصغيرة البعيدة أكبر آلاف وربما ملايين المرات ، من قمره القريب المخادع .. الذي يحيا حياته ويبلغ أجله في ثمانية وعشرين يوما قصيرة .. وربما كان يدور حول هذا النجم ألوفا من عينة قمره الذي لا يضيء إلا بما يختلسه من ضوء الشمس !

عادت الفتاة إلي البيت سالمة ، وقد تحولت حياتها تحولا جذريا أو بدأت تفعل وتغير أفقها وتلون بلون الوعد الجميل وحلاوة الانتظار والصبر حين تكون غير مؤلمة أو مثيرة للوجع ..

وخلال أيام كان كل شيء قد تبدل حولها .. عادت تكتب بكثرة وملأت درجها أشعارا وقصصا وإلهاما وخطت على الورق حياة أخري جديدة ، غير التي مزقها ودمرها لها أبيها من قبل ، تبدو أكثر جمالا وأقل حزنا .. ربما لأنها حياة مرسومة في ضوء النهار وعلى أعين كل من لديه أعين يري بها .. وليست مسروقة في ظلمات الليل ودفء الكشاكيل المغلقة المقفل عليها ألف درج ودرج !

لكن السؤال كان دائما يراودها .. وكم ألحت عليها فكرة أن تسأله لأبيها ولأمها ولجميع من يحيطون بها ، ويتداخلون في حياتها بشكل مباشر ويغمرونها بنصائحهم البلهاء التي يفعلون خيرا لو احتفظوا بها لأنفسهم .. هل كان يجب أن تعرض نفسها للموت من أجل أن يتركوها تفعل ما تشاء ؟!

" هل كان يجب أن أقف على حافة الموت حتى تسمحوا لي بالحياة ؟! "

*****

أيام شديدة السواد والحزن مرت على البيت كله عقب وفاة " نعمة " المفاجئة !

كان ذلك الحدث من الأحداث الغريبة التي تجتمع فيها النقائض ، ويفشل الإنسان في العثور على شعور مناسب ليجعل قلبه وعقله يتبنيانه ويعتمدانه شعورا رسميا قانونيا .. هل يفرح أم يحزن ؟!

كانوا ينتظرون الولد ويتلهفون للحصول عليه .. وها قد جاء وحصلوا عليه لكن أم الولد ذهبت في المقابل !

سيتربي يتيما ، بلا أم ، تحوطه مجموعة غريبة من البشر .. أب أنتظر مقدمه طويلا وحن إليه ولدا وسندا وظهيرا وحاميا له في ظهره ، وقاسي وعاني وضحي بعلاقته مع زوجته وحبيبته ، وتجشم مئونة إيواء وإطعام أربعة وعشرين ضلعا لا يحب صاحبتهم ، ولا يهوي فؤاده إليها من أجل أن تأتيه به .. وجاءه أخيرا ليشعر أمام الولد الصغير الباكي بشيء غريب .. يشعر بأنه كقطعة كعك بلا سكر لا طعم له ولا متعة بتذوقه !

هذا الولد فأسترح وأهنأ .. ها هو قد جاء ، لكنه للغرابة ولدهشة الظروف ، لم يرح قلب الأب ، ولن يستريح هو أو يهنأ بحضن أمه وحنانها .. ولد كُتب عليه أن يولد ويعيش لا مستريح ولا مستراح به !

لم يكره ضناه حتما لكنه عجز عن أن يحبه .. كما عجز عن أن يشعر بفرحة مجيئه ويطرب لرؤية ملامحه الذكورية الصغيرة !

وبجوار الأب تقبع جدة ، تأودت وتأوهت وملأت الدنيا صراخا وتعييرا وشماتة وسخرية واستهزاء وكيدا ، ليحصل ولدها على الذكر الذي سيحمل اسمه ويحفظ ذكره مدي الدهر وحتى نهاية الزمان .. لكنها تلقت الضربة على أم رأسها فترنحت وأفاقت أخيرا لتري الحق ساطعا لا يحتاج إلي برهان !

لقد ماتت زوجة ابنها تاركة له ، لولدها ، خمسة أطفال . أربع بنات وولدا رضيعا في أيامه ، بل في ساعاته ، الأولي .. ومهما فعلت ومهما كان ما يكنه قلبها من كراهية للبنات ، وهي لا تكرههن في الواقع ولا تستطيع إلي ذلك سبيلا ، فإنها لن تستطيع أن تتجاهل الحقيقة المؤلمة الصغيرة .. أن الخمسة أطفال صاروا معلقين في رقبتها الآن !

بصفتها جدتهم لأبيهم ، الذي سيتولى رعايتهم بمفرده بعد وفاة أمهم ، فإنها مسئولة مسئولية كاملة عنهم .. عن الولد كما عن البنات الأربعة !

فجدتهم لأمهم ليست ملزمة بهم ، وهي لن تستطيع أن تبقي لترعي أبناء بنتها المتوفاة بل إن أسرة الأب وأمه هم الملزمون بذلك .. فكيف لها أن ترعي الخمسة أطفال وهي في تلك السن وفي هذه المرحلة من الشيخوخة ؟!

وجود " ثريا " لن يخفف من الأمر .. بل سيزيده بلة وسوادا ، لأن زوجة الأب مهما كانت فهي زوجة أب .. وهل ستنسي " ثريا " أنها دخلت هذا البيت لتأتي بهذا الولد من رحمها ، فسبقتها ضرتها وحملته هي قبلها .. وأخرجته من رحمها دافعة دمها وروحها فداء لحياته ولوجوده ؟!

الغريب أن موت " نعمة " ، وهي تلد له الولد ، جعل " عبد الرحيم " يشعر بقربه من زوجته الميتة ، التي أعتصر قلبه حزنا عليها ووجعا لفراقها ، أكثر مما يشعر بقربه من زوجته الثانية الحية التي بدا وكأنه لا يراها مطلقا ولا يشعر بوجودها !

وفي الأيام الأولي لوفاة " نعمة " أقدم على تصرفات بالغة الغرابة .. فأخذ يحمم البنات بنفسه ويمشط لهن شعورهن ، خاصة الصغيرة " حسناء " ، ولا يبقي في البيت للحظة إلا وهن حوله ، والصغيرتان على حجره .. حتى الحمام صار يحملهن إليه بنفسه .. وهو ما لم يقدم عليه من قبل أبدا !

" ثريا " لم يعد لها وجود بالنسبة إليه ، وبدا وكأنه لا يتعمد تجاهلها بل إنه لا يراها فعلا .. أخذ أجمل صورة جمعته بزوجته الأولي المرحومة .. وقام بتكبيرها وتأطيرها بإطار ذهبي جميل وعلقها في واجهة غرفة الجلوس .. وأخذ ينثر صورها الصغيرة في كل مكان بما فيها غرفة نومه مع زوجته الثانية نفسها !

وأصبحت صباحات " ثريا " عذابا ووجعا مقيما .. تصحو لتجد زوجها يغط في النوم وثمة صورة صغيرة ل" نعمة " أسفل يده أو منزلقة وطرفها ظاهر من تحت الوسادة أو حتى ساقطة على الأرض بالقرب من قدمي الفراش .. إنه يحمل صورها معه في كل مكان .. يتأملها بدقة ويتفرس ملامحها ، يحادثها بلا صوت ويتوسل إليها كاتما دموعا سيكون أرحم كثيرا لو تركها تسيل وتطفئ حريقا في قلبه :

" سامحيني يا ست الستات .. سامحيني يا حبيبة يا مرت العمر يا غالية ! "

كثيرا ما سمعته يردد ذلك بخفوت وهو مستيقظ مسهد بجوارها موليا لها ظهره .. أو حتى يخرف به وهو نائم !

هل قربه الموت من زوجته الأولي أكثر مما أبعدتهما الحياة وتصاريفها وأحكامها الغريبة ؟!

أليس غريبا أن " نعمة " انتصرت عليها وهي ميتة أكثر مما انتصرت عليها وهي حية .. وأليس غريبا أنها بدأت تحس إحساسا غريبا نحو الولد الصغير يدفعها دائما لأن تحوم حوله محاولة أن تأمن الأعين والرقباء !

أحست للحظات كثيرة أنه ابنها هي .. الولد الذي كان يجب أن يولد من رحمها هي ، لكنه ضل طريقه لتنغرس بذرته في أحشاء " نعمة " ويخرج من بطن ضرتها

، لا من بطنها هي .. مجرد سوء تفاهم وتيه مؤقت لكن ها قد زالت " نعمة " لتعود الأمور إلي نصابها الصحيح !

لقد شاهدته في جنازة أمه موضوعا نائما على حجر جدته ، فأخذت تختلس النظر إليه .. أنه ابن ضرتها ولا شك .. لكن لما بدا لها أنه نسخة من أحد ولديها اللذين فقدتهما رغم أنفها ؟!

نظرت إليه بزاوية عينها ، كانت تلف رأسها بطرحة سوداء خفيفة وتجلس وسط النسوة ، لا حزنا على المرحومة " نعمة " .. بل لتتوسط المجلس وتثبت نفسها وتسجل اسمها كزوجة الابن الأكبر الوحيدة الآن ، وسيدة البيت بمعني الكلمة .. لذلك وقفت وكتفها بكتف حماتها تستقبل المعزين وتشد على أيديهم ، ولكن بلا دمعة واحدة في عينيها الواسعتين ، رغم أنها لم تكن تحس بالفرحة ولا بالسعادة لتخلصها من ضرتها .. أبدا بل كانت تحس بإحساس غريب آخر لا يوصف !

شعور غريب غمرها منذ أن سمعتهم ينعون " نعمة " بالصراخ والعويل .. لكن إحساسها ب" محمود " الصغير هو الذي يشغلها الآن !

لا تعرف إن كانت عيناها ووعيها وعقلها اجتمعوا واتفقوا على خداعها .. وأن يوحوا إليها أن ابن زوجها يشبه ولدها الأصغر" علي " شبها تاما ، لكنها ارتجفت حين تأملت ملامحه للمرة الأولي .. كانت نفسها صادة تماما من بنات " نعمة " لكن الولد كان وضعه مختلفا .. فلم يوضع في حجر أمه قط ولم تلمسه بيداها!

بدا لها ، ل" ثريا " ، هذا كافيا ليجعله بعيدا عن شعور الفتور والكراهية الذي يغمرها تجاه البنات .. أضف إلي هذا أن البنات كن يتجنبنها تجنبا طبيعيا وبدون وعي ، رغم حداثة أسنانهن ، يشعرن بأنها عدوة أمهن وضرتها .. وبدأت الفتيات تخططن ، بلا وعي منهن ولا تقدير ، لإبعاد أبوهن عن تلك الدخيلة !

لكن الولد شيء آخر.. إنه قطعة لحم حمراء .. لم تلمسه أمه ولم ترضعه ثديها ولم تضعه على حجرها !

لذلك يمكن للمرأة أن تحب طفلا يتيما أو لقيطا بلا أم معروفة كابنها وتربيه على عينها .. ولا تستطيع أن تفعل ذلك مع طفل تعرف له أما ، خاصة إذا كانت قد رأت أمه هذه رأي العين ولو مرة واحدة ، وهذا لأن الأول لم يوضع على حجر امرأة أخري تعرفها .. فالمرأة عندما تحب طفلا تؤمن أنه لا مأوي له إلا حجرها .. ولا حجر في الدنيا يستحق أن يحميه ويؤويه سوي حجرها هي !

إنها تشعر بقوتها وهي تضع طفلا على ساقيها .. تشعر أنها تهبه الحياة والوجود ، وتمنحه الحب واللبن وقطرات الحياة وتزود عنه الموت .. بنوة الحجر، قبل بنوة البطن أحيانا ، مسألة حياة أو موت بالنسبة للمرأة !

إنه وهم الخالقة الأنثى .. وحقيقة حب الأم وقوتها اللذين ليس كمثلهما شيء في عالم البشر في الثبات والرسوخ !

" محمود " صالح جدا لأن يكون ابن حجر ل" ثريا " .. حتى إن كانت ضرتها الميتة هي أمه !

هل قررت أن تحتويه بين ذراعيها .. هل قررت أن خير عقاب ل" نعمة " التي سرقت منها " عبد الرحيم " حية ، وسرقته أكثر وهي ميتة ، أن تأخذ هي ، أي الضرة الحية ، ابنها الوليد الصغير وتجعل منه ابنا لها هي .. هي وحدها حتى بعيدا عن " عبد الرحيم " ، الذي لم تعد تشعر نحوه سوي بكونه رجل محسوب عليها زوج .. ورفيق فراش مثلما يفعل الناس لا أكثر!

طافت كل تلك المشاعر وتضاربت وعصفت بذهن " ثريا " وبقلبها وعقلها .. حتى وإن كان عقلها الصغير وتعليمها المحدود لا يسمحان لها بصياغة تلك المشاعر العجيبة في صورة عبارات مفهومة .. ولا التعبير عنها بصيغة مقبولة تفهمها هي نفسها وليس مهما أن يفهمها الآخرون !

لم تدري بنفسها إلا وهي تتسلل إليه ذات ظهر حار ميت الهواء ، جثمت فيه الحرارة على القلوب والصدور ، فجعلت الكل يهجعون كالموتى بغير حراك .. كانوا قد أحضروا امرأة مرضعة من الجيران ، بعد وفاة الأم بسويعات قليلة ، ورجوها أن ترضع " محمود " مع طفلتها نظير أجر إن طلبت .. لكن المرأة كان لديها قدر موفور من الحنان والشهامة فقبلت أن ترضع الطفل بلا مقابل .. لكن الولد رفض أن يأخذ ثديها !

حاولت الجارة إرضاعه بلا جدوى .. حاولت مرارا وكررت المحاولة بلا فائدة من أي نوع !

استسلمت الجارة وهي تري الولد يلفظ ثديها مرة بعد مرة ويبكي بحرقة .. جربوا مع قريبات وحبيبات وجارات أخريات ، ممن تسمح ظروفهن الصحية بإرضاع طفل آخر مع أطفالهن .. لكن الولد رفضهن جميعا !

صنعت له جدته والدة أبيه زجاجة ماء بسكر ، وحملوه إلي طبيب أطفال وصف له نوعا من حليب الأطفال المخصص لتغذية الرضع .. ثم بدءوا موال الرضاعة الصناعية الطويل المرهق !

تنظيف البزازات وغسيلها .. تسخين المياه وصنع اللبن .. تبريد اللبن ليتحمل الغلام الصغير درجة حرارته .. الحفاظ على ما يتبقي من اللبن في الزجاجة ، أو سكبه وطرد الذباب بعيدا .. ومن ثم العودة إلي تكرار نفس تلك الخطوات مرة ومرة ومرة ومائة مرة كل يوم !

كانت والدة الأب هي من تقوم بكل ذلك ، وهي من تتحمل كل ذلك العبء .. أما والدة " نعمة " فقد كان موقفها غريبا بعد وفاة ابنتها !

ملأها شعور بالحقد والكراهية تجاه زوج ابنتها الراحلة وأمه .. شعرت بأنهم مسئولين مسئولية كاملة عن وفاة فقيدتها ، التي مزقت قلبها تمزيقا

على موتها المدمي المثير للأسى .. إنه هو من مرر عيشها هو وأمه ، التي لم تكن تكف عن معايرتها بالولد المطلوب الذي عجزت عن منحه لهم !

وها قد جاءتهم بالولد .. ودفعت ثمنه من دمها .. فليشبعوا به إذن وليشبعوا ببناتهم فلا ينقصها هم ولا وجع قلب .. فما فيها يكفيها ويزيد !

لم تمد للغلام الصغير عينا ولا يدا .. فمنذ الساعة التي رأت ابنتها فيها محمولة غارقة في دمها وقد تحجر شيء في قلبها ، ومات شيء في داخلها لا تعرف ما هو اسمه بالضبط !

شعرت بمزيج القسوة والكراهية نحو " عبد الرحيم " وأمه ، وبالطبع لم ينسحب ذلك على أبناء ابنتها الذين لا ذنب لهم في شيء .. لكنها أحست بأنها لا ترغب في أن تحمل همهم ولا هم أبيهم ، ولا شأن لها فهو مسئول عنهم .. هو من جرح ابنتها وأتي لها بضرة ، فليحمل هم أبنائه ويتحمل وزرهم ووحده حتى يدرك حجم الهم الذي كانت تحمله عنه المرحومة المسكينة !

تركت لهم الصغار ووقفت تأخذ عزاء ابنتها في بيتها هي .. لا في بيت زوج ابنتها !

كانت الجدة تتخذ هذا الموقف بشكل طارئ ومؤقت ، فستعود في أقرب فرصة للاعتناء بأطفال " نعمة " وتحن عليهم .. فلن يطاوعها قلبها أن تقسو عليهم ، بعد أن قست عليهم الدنيا .. وأذاقتهم مرارة اليتم وهم في سن الزهور الصغيرة التي لا تزال تحتاج ليد حانية تربت عليها لتتفتح !

وبينما كانت الجدة تفكر هكذا وتضيع في دوامة المشاعر والمشاعر المضادة كانت ضرة ابنتها تعاني تضارب المشاعر مثلها وأكثر.. فقد تسللت إلي حيث مهد " محمود " الصغير وعندما وقعت عيناها عليه نائما في هدوء لم تدري ماذا تفعل به أوله !

كانت حماتها قد وضعته لينام في الحجرة ، وبجواره على سرير صغير أختاه " أسماء " و" حسناء " نائمتان بعمق .. بينما تسحبت الجدة لتنام ساعة من الزمن تستريح فيها من التعب والنصب والهدة التي سببها لها العيال الخمسة !

كانت الطفلتان غارقتان في ثبات عميق يساعدهما هواء مروحة السقف المرتفعة على المزيد من الاستغراق في النوم ، فلم تشعر إحداهما بتسلل زوجة الأب إلي الداخل .. وجدت " ثريا " الطفل ذو الثلاثة أيام بين يديها الآن وهي منفردة به أو تكاد تكون كذلك !

فجأة أرتعش قلبها حين وقعت عيناها على خصلة شعر بنية اللون صغيرة تبرز من اللفة ، وتغطي جزء من جبينه الناصع الأبيض .. ارتجفت وأرتج عليها تماما ، فقد كان ولدها " علي " ، وأين هي من " علي " الآن ؟! ، لديه نفس تلك الملامح ، ونفس ذلك الشعر البني الناعم حينما كان في نفس سن " محمود " !

الآن فقدت سيطرتها على نفسها تماما .. أصبح قلبها هو الذي يسيرها ويحركها .. والمرأة إن تسلط عليها قلبها تتمخض عن عذراء سماوية ، أو تتمزق عن وحش مخيف !

وقد تمخضت " ثريا " عن أم محرومة .. أم حُرمت من أعز وأغلي ما لديها .. ولديها أخذوهما منها ، لكن ها هو ولد صغير يحتاج أما وصدرا حانيا وقلبا يضعه على نسيجه ويحفظه داخل لؤلؤته !

لم تعد زوجة أب ، ولا ضرة في تلك اللحظة بل هي أم .. استرجعت بذرتها الأولي من رحم أمها " حواء " ، فانتفضت الأم الكبرى الحامية داخلها ، وخرجت للعيان .. وتناولت الوليد بلهفة وضمته إليها !

كان " محمود " نائما حين دخلت عليه زوجة أبيه .. لكنه ، وحين أخذته برفق ورفعته من مهده ، ولامس صدرها فتح عينيه وأستيقظ .. بكي برفق لمجرد دقيقة ، لكنها وضعت وجهها بالقرب من وجهه فصمت على الفور ، وفتح عينان واسعتان لا دمعة فيهما ، وأخذ يتطلع إليها بصمت وهدوء ..

أعدو هذا أم مجرد طفل يتصرف بفطرة بيضاء نقية لم تلوثها أتربة الأرض بعد ؟! أعدو صغير هذا .. أم قلب أخضر كبير يحتويه جسد صغير وينتظر منها أن تكون أما له ؟! لم تشغل نفسها بالأسئلة .. مالت عليه وقبلت شفتيه وضمته إليها أكثر .. فجأة تحركت احدي البنتين فأجفلت " ثريا " وشعرت بالذعر.. لكن البنت تقلبت في نومها وبقيت غافية ولم تستيقظ !

هدأ روعها بعد لحظة فعادت تتطلع إلي " محمود " الذي كان رأسه يلاصق صدرها .. بغتة أحست بأنها تريد أن تشرب ماء وأنها ظمآنة .. وأن هناك شيء يسير على ثدييها في داخل الثياب !

فقدت عقلها في تلك اللحظة ، وتملكتها غريزتها وهبت أمومتها النائمة تتمطى .. لم تشعر بنفسها إلا وهي تمد يديها داخل ثوبها ، وتخرج ثديها الأيسر .. أخرجته وقربته من فم الطفل الذي ينظر إليها بهدوء !

لقد حرم على نفسه المراضع .. ورفض ولفظ أثداء الجارات والقريبات والحبيبات فهل سيقبل بثدي زوجة أبيه ..عدوة أمه وضرتها ؟!

نظر الغلام إليها للحظة فدق قلبها ، وشعرت بخوف لم تشعر به في حياتها .. فتح الغلام شفتيه وألتقم الثدي وبدأ يمصه ببطء !

تمشي ألم محتمل في صدرها .. ومعه شعور غريب أجتاحها بشيء كبير هائل يسير داخل دمها ويتسلل إلي داخل عروقها !

كان ثديها جافا ولا حليب به ، لكن الغلام أمتصه ببطء .. أرتعش جسدها رعشة هائلة فوجدت نفسها تنزع ثديها من فمه دون وعي !

سمعت صوت خطوات تقترب من باب الغرفة المغلق من الداخل ، أغلقته بنفسها بحرص ، فتركته ووضعته في مهده ، وهو يطلق بكاء خافتا يفتت القلب من فرط رقته وعذوبته .. وضعته بحرص وجرت نحو الباب ، قبل أن تستيقظ احدي الفتاتين وتفضحانها على اتساع البيت كله !

هل سيصدق أحد أنها تسللت إلي الغرفة ، تحت حمي القيظ الشديد والنوم العميق المخيم على البيت ، لمجرد أن تلقي نظرة على الطفل الصغير؟!

ستمصمص النسوة بشفاههن ويقلن وهن يغمزنها من خلفها :

" ما كان قدامها يا خيتي في جنازة أمه مطلتش عليه بعينها يعني .. كهن نسوان يا خيتي وكيدهن عظيم ! "

وستصبح (كيدهن عظيم) هذه مدخلا لتصورات ، ليس أكثرها جموحا أنها ربما تريد إلحاق الأذى بالطفل ، أو ربما تريد تسميمه أو إرضاعه شيئا يقتله !

إنهم يعتنقون مبدأ (الضرة مضرة) ولا شيء سيجعلهم يتزحزحون عن إيمانهم المطلق هذا ، ولا ألف دليل .. وحتى إن وجدوا من يخالف تلك المبادئ ويثبت كذبها فلن يكون مصيره سوي الاستهانة والسخرية والتكذيب .. والمزيد من الاقتناع بما يعتقدونه سلفا !

لذلك من الخير لها أن تمنحه حنانها في غفلة من أعين الرقباء .. ليكن " محمود " ابنا لها في الخفاء .. حتى تجد وسيلة لتأخذه علنا ، دون أن يعتقد أحد أنها تفعل ذلك استرضاء لزوجها ، أبيه ، أو بحثا عن حبه الضنين العزيز .. فالحق ، كل الحق ، أن " عبد الرحيم " لا أهمية له في هذا الأمر..

فالأمر الآن لا يخص سواهما هما الاثنين .. هي " ثريا " ، و" محمود " الصغير.. الذي حرك في تلك المرأة ما لم يتحرك منذ سنوات وسنوات !

تمت

قاموس الرواية

يحوي شرحا لمعاني الكلمات الصعيدية الدارجة

١- السبوع : حفلة تقام في اليوم السابع من ميلاد الطفل

٢- المعون : لفظ يطلق على أي إناء

٣- عيال الفقري تيجي بدري : مثل شائع في الصعيد عن الفقير الذي يعول كثير من الأولاد أو الأطفال الذين يولدون قبل موعدهم في بيوت تعاني الفاقة والفقر

٤- المتسبب : مصطلح يقصد به كل من يبيعون ويشترون خاصة من يفترشون الشوارع

٥- أمي : تنويعة على كلمة أمي بنطق مغاير قليلا تنادي بها الأم أبنائها أو المرأة المسنة على من يصغرونها كثيرا في السن

٦- تبحلقلي : من بحلقة بمعني (تنظر إلي) بعيون متسعة

٧- النقرية : فقرية ونحس

٨- البنتة : البنات

٩- مرة : امرأة

١٠- بيضا : عذراء لم يسبق لها الزواج

١١- عازبة : مطلقة

١٢- توطيها : تخفض من شروطك

١٣- العطولة : تعني الفاشلين أو العاطلين

١٤- مجلع : جميل مدلل بلهجة الصعيد

١٥- العفشة : قبيحة أو سيئة

١٦- تشق بها ريقك : تفطر بها

١٧- من تلانا : من جهتنا أو ناحيتنا

١٨- أمايا : أمي

١٩- الشملولة : كلمة تقال للسخرية تشبه في معناها كلمة السنيورة

٢٠- لادد : يعني يعجبها

٢١- يطقش البيض : يكسره ليقليه

٢٢- هلفطة : كلام فارغ

٢٣- تطلعي : تخرجي

٢٤- مصر: المقصود القاهرة

٢٥- المسايسة : المحايلة والملاينة

٢٦- خيتي : أختي

٢٧- تقضي : كلمة في الصعيد تعني تقوم بأعمال المنزل

٢٨- السبابير: جمع كلمة سبورة بالعامية

٢٩- يدعبس : يعبث ويلعب

٣٠- الهوسة : المقصود بها الضجيج والصوت المرتفع

٣١- ستها : جدتها

٣٢- ترزيني : تبليني

٣٣- الخوات : الأخوة

٣٤ فاجر: المقصود لسانها طويل أو كثيرة الشجار

٣٥- نتحدتو: نتكلم

٣٦- تلسن : تتكلم في حقها

٣٧- مية : المقصود لا تزال صغيرة جدا

٣٨- الرضي : نطق لكلمة الردي أو الرديء

٣٩- مهبلة : هبلة أو عبيطة

٤٠- أتهوستي : أتجننتي

٤١- أسفخك : أضربك

٤٢- تزعط : تطرد

٤٣- حاص : عيب

٤٤- نقضة : نقاوة أو شيء مميز

٤٥- عنطزة : فشخرة وتباهي

٤٦- يفتح عينه : بمعني يسعد قلبه ويسنده

٤٧- المحش : المقصود أحشاء الحيوانات ولحمة الرأس

٤٨- تمد رجليها : المقصود تتكبر

٤٩- عقب الحزون : آخر المرار وقمة الحزن والغلب

٥٠- جار: جنب

٥١- البردة : قطعة قماش عريضة سوداء كانت النسوة في الصعيد يلتحفن بها عند الخروج من المنزل ولا زالت تستخدم على نطاق ضيق في أرياف الصعيد وقراه

٥٢- أبايا : أبي

٥٣- الغفاليق : جميع غفليقة بمعني (مصيبة)

٥٤- الفروج : الفراخ

٥٥- تدسلي : تحطلي

٥٩- الزقل : جمع زقلة وهي العصا الغليظة

٦٠- الفرة : كلمة تطلق في الصعيد على الوباء الذي يفتك بالطيور

٦١- ياسون : المقصود ينسون

٦٢- النطنطة : التنطيط

٦٣- هبابة : قليلا

٦٤- شبشوبة : صغيرة السن

٦٥- يقوق : يبكي بصوت كالبوم أو الغربان

٦٦- هتش : المقصود فشر وكلام فارغ

٦٧- سباعة : تعني فاجرة ولا تخشي أحدا

٦٨- يباقره : يحاجيه ويرد له الكلمة بكلمة

٦٩- تترزع : تقعد

٧٠- الهايج : المقصود الشيء الكبير المهم أو الإنسان العظيم

٧١- يطس وشه بالماء : يلقيه على وجهه

٧٢- تتلبس : يتلبسها شيطان أو جن